كتاب العربي

الكتاب الثامن والثلاثون



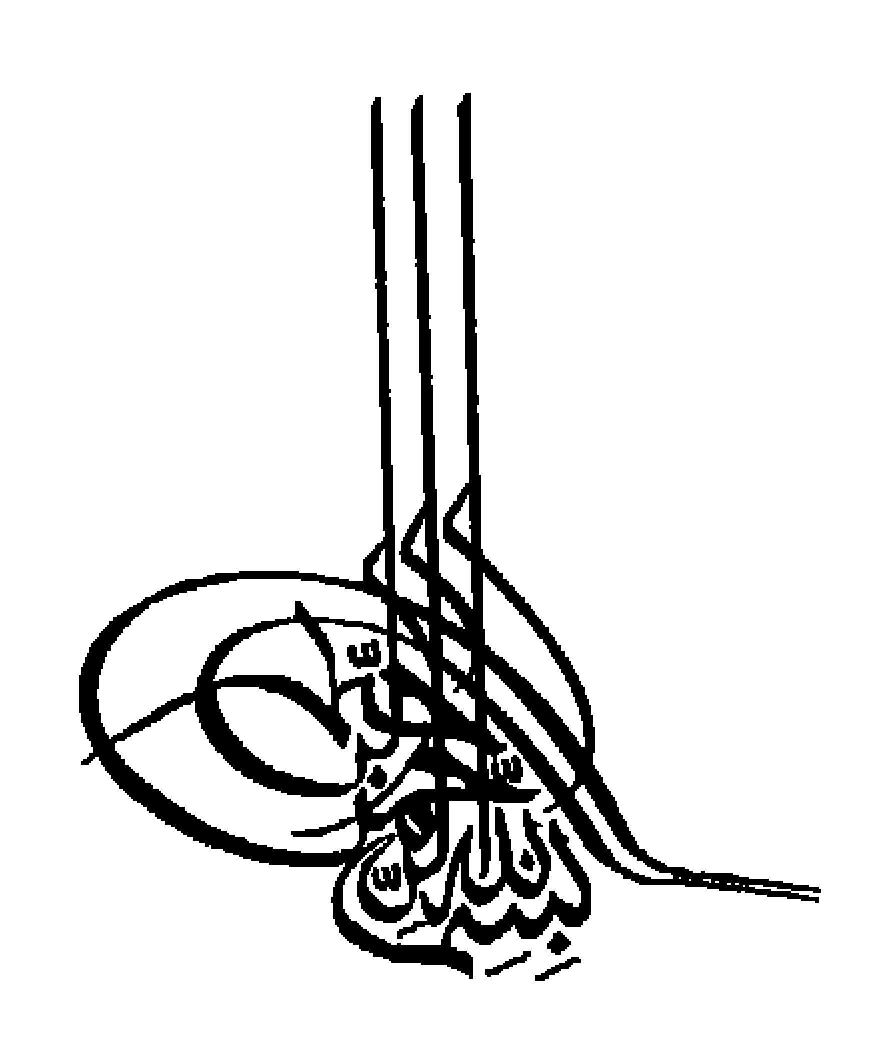
أحمد بهاء الدين

المثقفون والسلطة في عالمنا العربي

تقديم الكاتب الكبير:

محمد حسنين هيكل

١٥ اكتوبر ١٩٩٩



رئيس التحرير :

الدكتور سليمان العسكري

هذه السلسلة :

تصدر فصلياً وتقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد أو موضوعا واحداً تتناوله عدة أقلام .

الكويت	١ دينار	السعودية	١٥ ريالا	الأردن	١ دينار
سوريا	٥٠ ليرة	البحرين	١ دينار	مصر	٢ جنيه
السودان	٢٠٠ جنيه	تونس	٢ دينار	الجزائر	١٢٠ دينارا
اليمن	١٥٠ ريالا	قطر	١٥ ريالا	سلطنة عمان	١ ريال
لبنان	٥٠٠٠ ليرة	الإمارات	١٥ درهما	المغرب	٢٠ درهما

سعر النسخة خارج الوطن العربي ٣ دولارات أمريكية

الاشتراك في الكويت ٥ دنانير في الدول العربية ٨ دولارات أمريكية خارج الوطن العربي ١٦ دولاراً أمريكيا .

Al-Arabi Book, 38th

عنوان الكتاب : المثقفون والسلطة في عالمنا العربي

The Title : The Intellectuals and Authority in our Arab World

The Author : . . . . المؤلف :

AHMAD BAHA 'EDDINE . . . . أحمد بهاء الدين

15 October1999 . . . . الطبعة الأولى : ١٥/ ١٠/ ١٩٩٩

Publisher: Al-Arabi Magazine. . . . . الناشر : مجلة «العربي»

E. mail:
arabimag@qualitynet.net

إهــــــــداء ٢٠٠٧

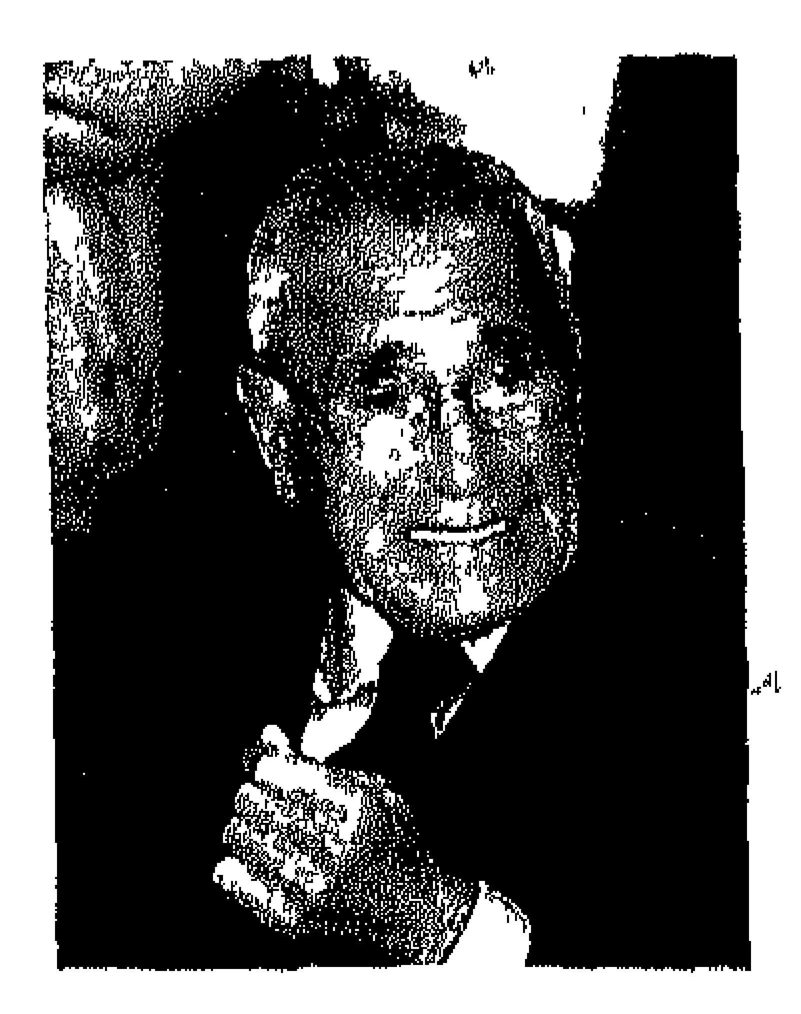
اسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات

جمهورية مصر العربية

المثقفون والسلطة في عالمنا العربي

الكتاب الثامن والثلاثون

١٥ أكتوبر ١٩٩٩



ذكرى كاتب ومفكر عربي

بقلم: الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل

قبل أن تهب عواصف الحرب ـ باردة وساخنة ـ على منطقة الخليج من نهاية السبعينيات إلى نهاية التسعينيات ـ كانت الكويت حالة عربية خاصة تختلف عن غيرها، لأنها ظهرت أشبه ما تكون بـ «شعاع ضوء منبعث على رأس الخليج». وأتذكر أن ذلك هو التعبير الذي استعملته خلال لقاء مع أمير البلاد حضره الأستاذ «عبدالعزيز حسين» وهو وقتها مستشاره العلمي، وحضره أيضا صديقي الغالي الأستاذ «أحمد بهاء الدين» وكان وقتها رئيساً لتحرير مجلة «العربي».

ومن الغريب أنني قلت ما قلت للأمير ضمن كلام عن الأمن، وكان ظني وقتها أن «نظرية الأمن الكويتي» معلقة بالدور الحضاري الذي يقوم به بلده في موقعه، إلى جانب تأثيرات هذا الدور على ما حوله. وكانت أطياف الشعاع الكويتي كما قلت للأمير أن الكويت توليفة خاصة: برلمان أقرب ما هو ممكن إلى حياة نيابية، وجامعة أقرب ما هو ممكن إلى أجواء علم، وصحافة أقرب ما هو ممكن إلى حرية، وأبواب مفتوحة أقرب ما هو ممكن لمدينة ـ دولة ـ تجذب إليها وافدين من كل مكان، ويصنع وجودهم على أرضها وتضيف حياتهم في وسطها حيوية إنسانية سمحة سادت دائما مجتمعات إنسانية مثيلة عرفها التاريخ.. ثم يضاف إلى هذا كله حركة وفعل هذه المؤسسة الكويتية الفريدة

وهي مؤسسة «الديوانية» حيث يلتقي كل المهتمين بحوارات الشأن العام، ويطلع الفجر عليهم أحياناً وهم في نقاشهم لا ينتهون.

وكان رأيي في ذلك اللقاء مع الأمير أن الدور الكويتي هو نفسه نظرية أمن الكويت، وكان ذلك فيما ظننت صحيحا ولعله لا يزال، والشاهد إنه حتى عندما جاءت الظروف بما دعا إلى عمل عسكري لاستعادة الكويت بعد طارئ دهمها فإن القاعدة المعنوية والأخلاقية ـ قبل العمل السياسي والقرار الحربي ـ كانت بالتحديد نتيجة مباشرة لدور الكويت الخاص في موقعها ومحيطها، وكان ذلك الدور بذاته هو الذي أسبغ المشروعية على الموقف العربي الذي سمح بالعمل العسكري على النحو الذي جرى به وقتها.

المهم هنا أنه في إطار ذلك الدور الكويتي المميز أنشئت مجلة «العربي»، وقد قصد بها أن تكون ملتقى فكرياً وعلمياً عربياً يصل إلى الناس مفيداً في قيمته، وفي نفس الوقت ممكناً في سعره بالقياس إلى تكلفته. وكان رئيس التحرير الأول لـ «العربي» بناء مقتدراً هو الدكتور «أحمد زكي». ثم كان رئيس التحرير الثاني هو الأستاذ «أحمد بهاء الدين».

كان الدكتور أحمد زكي مؤسس العربي، وكان أحمد بهاء الدين ـ في المرحلة الثانية من حياة مجلة «العربي» ـ ممثلا عظيما لمرحلة ما بعد التأسيس وهي أشبه ما تكون بمرحلة السكن في بيت بعد إنشائه، بمعنى أن السكن يجعل الحياة في البيت حركة سهلة، ويجعل إحساس الألفة ساريا فيه حميما دافئاً، ويجعل صوت الحوار مسموعا في أرجائه صريحا وفي نفس الوقت متحضرا.

ولقد نجحت تجربة أحمد بهاء الدين في مجلة العربي لأنها كانت متسقة مع الدور الكويتي، فقد كانت رئاسته لتحرير «العربي» فرصة لإسهام مصري ضخم في بلد فتح أبوابه لكل جهد، وكان عمله في العربي ـ ضمن تصور فكري وثقافي عام ـ مشاركة مستنيرة وخلاقة في بلد فتح سمعه ووعيه للحوار، وكان وجوده في الكويت علامة بارزة في تجمع عربي يندر أن يتكرر ـ وفي كل مجالات التعليم والثقافة، والاقتصاد والمال، والقانون والفن.

ولقد زرت الكويت في حياتي مرتين، ولم تطل زيارة منهما عن ثمان وأربعين ساعة، ومع ذلك فقد كانت تلك الساعات لمحات مضيئة لا تنسى،

ولابد أن اعترف أن معظم هذه الساعات كانت في مكتب «بهاء» أو في مسكنه، أو كانت في صحبته دليلاً ذكياً إلى البلد وناسه وتجربته في موقعه.

منذ تلك الأيام تدفقت في مجرى الخليج مياه كثيرة، وسالت مع أمواجه أنهار من الدم غزيرة، ومع مآسي الدم عصفت بالمنطقة أعاصير أصاب الجميع دمارها وبغير استثناء. وربما كان ما أصاب القلوب والعقول أخطر ألف مرة مما أصاب المنشآت والمباني، لأن ترميم العقول والنفوس أصعب ألف مرة من ترميم الحجر والحديد!

ولقد أسعدني أن تحتفل مجلة «العربي» بذكرى تأسيسها، وأسعدني أن يكون أحد بنود احتفالها إعادة نشر كتابات «أحمد بهاء الدين» في مرحلته الكويتية على شكل كتاب.

وربما قلت إن ذلك أسعدني لسببين:

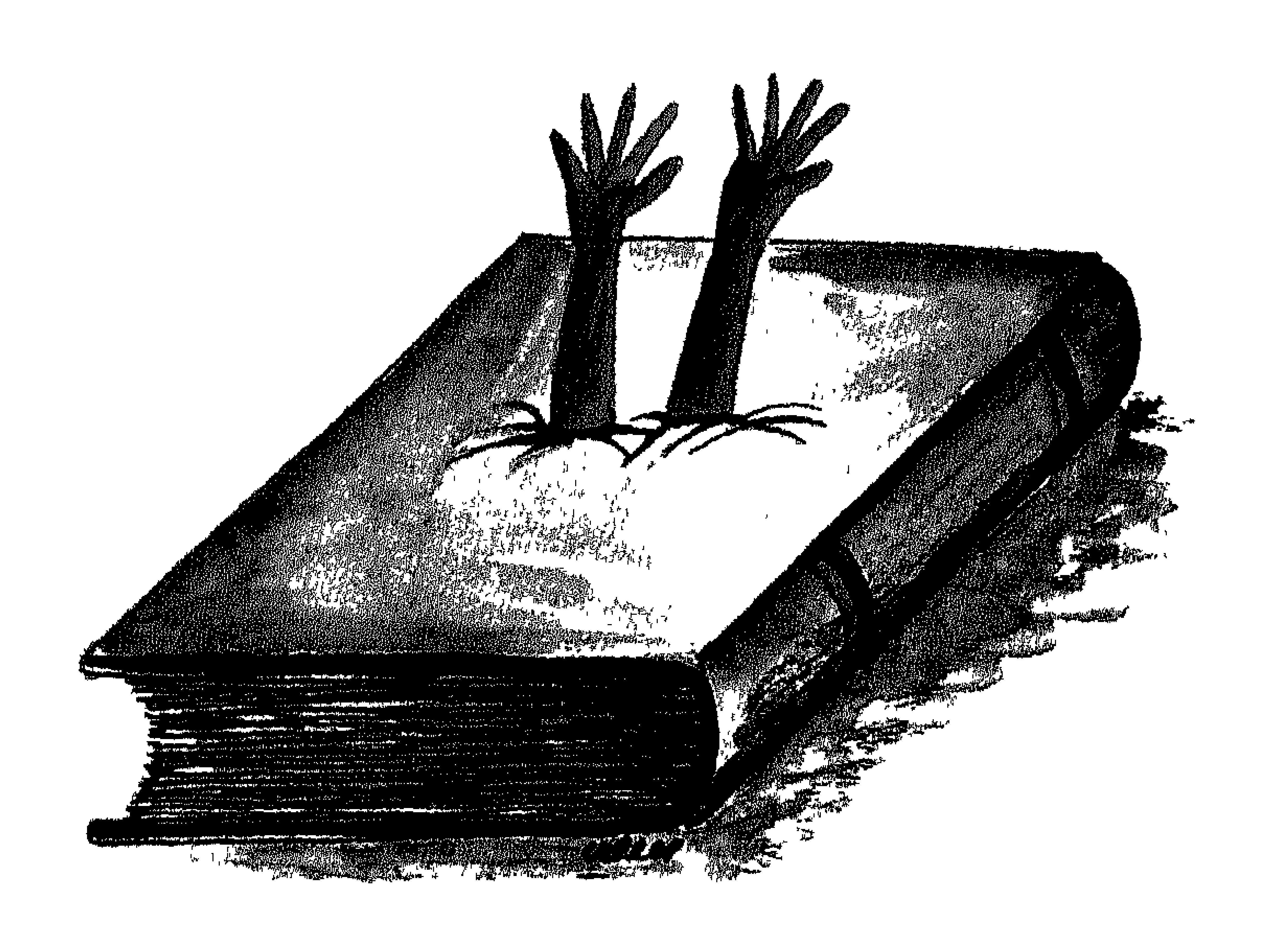
الأول أنه إحياء لذكرى كاتب ومفكر قومي كان الحوار إسهامه الحقيقي في قضايا الأمة وفي أفكارها.

والثاني أن الحفاوة بتلك المرحلة الكويتية في حياة «أحمد بهاء الدين» هي بشكل ما محاولة لاستعادة زمان سابق على كوابيس الخليج كلها، ولعل ذلك - على نحو أو آخر - جهد يحمد لأصحابه في العملية الضرورية والملحة لترميم ما أصاب العقول والنفوس.

والاحتفال بالمناسبات واستعادة الأيام لا يعني تكرارها، ولكنه فيما أتصور استنهاض للروح التي حققت، وتذكرة لها بأنها تقدر دائما وتستطيع شرط أن تتوافر إرادة الفعل.

الفصل الأول

السلطة وشرعيتها



المثقفون والسلطة . . في البلاد العربية*

لاشك أن الكثيرين منا ، ممن يتاح لهم السفر والتنقل بين البلاد العربية ، أو بين غيرها من بلاد العالم الواسع ، قد لاحظوا كثرة عدد المثقفين والنابهين منهم بالذات ، وذوي التخصصات المختلفة من سياسية واقتصادية وأدبية وعلمية . . الذين ليسوا في بلادهم ، ولا في أماكنهم الطبيعية .

ولست اشير بذلك إلى موضوع «هجرة العقول» بمعناه الشائع المعروف . وان كان لما أريد أن أتحدث عنه علاقة بهذا الموضوع ، الا أنني اريد أن أتحدث عنه من زاوية معينة ، تخرج بنا قليلا أو كثيرا عن مشكلة «هجرة العقول» بمعناها الشائع .

فمشكلة «هجرة العقول» بمعناها الشائع ، مشكلة عالمية ، لا يختلف فيها عربي عن غير عربي . وحتى البلاد المتقدمة تواجهها وتعاني منها ، ازاء بلاد أكثر تقدما . فإذا أخذنا ابرز بلاد المهجر مثل الولايات المتحدة الامريكية أو كندا . فسنجد فيها عقولا مهاجرة من البلاد العربية ، ومن دول البحر الأبيض ومن انجلترا وفرنسا . ومن الهند وافريقيا . المشكلة تنحصر ببساطة في ان بعض المثقفين ـ خصوصا في ثقافات يشتد عليها الطلب احيانا كالطب والهندسة وبعض العلوم ـ يفضلون الهجرة إلى بلاد يجدون فيها شروطا أفضل أومستوى من المعيشة أعلى ، أو فرصة أكبر للتقدم العلمي ، وتحقيق الذات ، ربما لا تكون متوفرة في بلادهم .

وهي مشكلة ضخمة وعويصة ، وليس لها حل سهل . ومن المؤسف أنها

---

* العربي ـ العدد ٢١٧ ـ ديسمبر ١٩٧٦

تشكل جانبا من أكبر جوانب أزمة العالم الثالث وعقبة من عقبات تقدمه .

فالخسارة هنا مادية وبشرية . لأن البلد حين يفقد واحدا من هذه النوعية من ابنائه ، يخسر مرتين . يخسر مرة بالمعنى المالي البحت ، لان البلد يكون انفق على هذا الابن مبالغ كبيرة من المال من اجل تعليمه وتكوينه في الداخل ثم في الخارج . ويخسر مرة اخرى بمعنى اكبر من المعنى المالي ، وهو ان خيرة شبابه لا يعودون ليساعدوا في المهمة الصعبة ، مهمة التنوير ورفع مستوى سائر الشعب ، كالحديقة التي كلما اينعت فيها زهرة ، جاء من يقطفها .

ومكسب البلاد الأكثر تقدما في هذا المجال هائل . فهي تأخذ الخبراء جاهزين ، بعد أن أتموا ثقافتهم ونضجهم وتلقيهم ، وبدأوا في مرحلة العطاء .

والغريب أن كثيرا من الدول العربية لا تدرك قيمة هذا «المهاجر» المؤقت إذا جاز التعبير ، حتى ولو كان عربيا ، وحتى لو كانت في أشد الحاجة إلى خبرته .

أذكر انني اشتركت مرة في مناقشة تليفزيونية حادة ، في قطر عربي شاسع الارجاء قليل السكان ، اذ قال مناظري : ان الخبير العربي يطلب اجرا اعلى من الخبير المحلي .

وقلت له متعجبا : لماذا اذا كان المهندس ـ مثلا ـ ايطاليا أو فرنسيا اغدقنا عليه . . واذا كان نظيره عربيا قترنا عليه . . ما دام الاثنان متكافئين؟ . . ثم هل تظن ان كندا مثلا أغبى منكم؟ ان كندا لا تفتح ابوابها طبعا لكل وافد . ولكن اذا كان هذا الوافد خبيرا في مجال يهمها ، فانهها تعتبره اضافة إلى رأسمالها وإلى انتاجيتها ازاء ضخامة مواردها واتساع رقعتها وندرة سكانها . انها تجري وراءه . . وتقدم له الاغراءات . . وتتولاه منذ وصوله بالمعونات المالية والاجتماعية حتى يستقر به المقام في عمل انتاجي مناسب له . ذلك أنها تعلم ان هذا النوع ـ في اي مجال ـ يضيف إلى ثروة البلاد القومية اضعاف ما يأخذ من مرتب .

وما دمنا قد تعرضنا لقضية العقول المهاجرة ، فلابد من القول انه اذا كان اللوم احيانا يقع على البلد الام لسوء تصرفها مع النخبة من ابنائها ، فان اللوم في احيان اخرى يقع على عاتق المهاجر نفسه ، حين يتصرف في انانية شديدة ، ودون مبرر لمجرد الهرب من مهمة صعبة تنتظره في بلاده الساعية الى التقدم ، لائذا بالفرار الى بلد قد تقدم فعلا ، ولم يعد عليه هناك الا المشاركة في جني

الثمرات .

ولكن هجرة العقول ، مهما بلغت الارقام ، تظل قضية جزئية الى جانب القضية الكلية التي علينا أن نتأملها . .

فالذي لاشك فيه ، ان معظم المثقفين ، من اهل الفكر والرأي والعلم والخبرة ، يبقون في بلادهم . او يعودون اليها .

على ان وجودهم في بلادهم ، لا يعني دائما الاستفادة منهم . . وبالتالي فالصورة العامة لهم في معظم بلادنا العربية ، اما السخط والكبت والشعور بالاحباط ، واما الانحراف ـ بالعدوى ـ مع الامراض الاجتماعية الشائعة في بلادهم ، فهم لا يستفيدون من ثقافتهم وقيمهم الحياتية ولا يفيدون ، وإما أن يلجأوا إلى نوع آخر من الهجرة . . هو الهجرة الداخلية . والانغلاق على أنفسهم . فهم موجودون في بلادهم وغير موجودين . موجودون بأجسامهم وبعملهم الروتيني اليومي ومشاكل حياتهم اليومية الصغيرة ، ولكنهم غير موجودين بعقولهم ولا بقدراتهم وطاقاتهم الحقيقية . متفرجون سلبيون . يرون الاحداث تجري امامهم ، وربما رأوا بلادهم كلها تتعثر أمامهم ، ولكنهم عاجزون عن المحاولة او ابداء الرأي ، او مشيحون بوجوههم عن الأمر كله ، يعيشون في مجردات ومطلقات لا صلة لها بضجيج الحياة من حولهم .

ولا يجوز أن نفترض ان كل واحد منهم يجب أن يكون بطلا ، مستعدا لمواجهة التشرد ، او دخول السجن!

وقد جرى العمل منذ زمن ، على أن نلقي الكثير من مشاكلنا على ما يسمى بالبيروقراطية .

فالبيروقراطية ، في هذا المجال ، هي التي تقتل المواهب ، وتعترض طريق الناجحين ، ولا تقبل دخول العناصر المثقفة الواعية بمجتمعها داخل صفوفها ، أو لا تضعها في مكانها الصحيح .

ولاشك أن بعضا من هذا صحيح . .

ولكن لاشك أيضا اننا نبالغ في الأمر كثيرا ، وان كثيرا من القادة والحكومات صاروا يجدون في هذه «البيروقراطية» شماعة يعلقون عليها كل المشاكل . . وكأن هذه البيروقراطية ليست جزءا منا ، ولسنا كلنا طرفا فيها ، أو كأنها جسم

غريب عن المجتمع .

وما هي البيروقراطية آخر الأمر؟

انها أداة كبيرة أو صغيرة ، من الموظفين في كل مجال ، وفي شتى الدرجات ، يمارسون عملهم طبقا لقواعد موضوعة لهم من قبل ، ولا يجوز لهم الخروج عنها ، وإلا تعرضوا للمساءلة والعقاب .

لذلك فانني اريد أن أصعد بالمسؤولية عن هذه الازمة في بلادنا العربية درجة اعلى من مستوى البيروقراطية . . أي إلى مستوى القيادة السياسية حيثما كانت ، وكيفما كان لونها ومذهبها وطبيعة نشأتها .

فيما يتعلق بالبيروقراطية . . فلو كان فيها داء متراكم عبر زمن طويل . . فانها مسؤولية القيادة السياسية في كل مكان ، ان تحسن اختيار القائمين بالعمل ، وأن تراجع اللوائح والاجراءات التي تحكم عملهم ، وتعمل على تبسيطها ، وتجعلها مناسبة لكل مرفق من المرافق . وليس هذا بالتأكيد مسئولية موظف كبير أو صغير ، أو أشبه بمسمار أو ترس أو عجلة في آلة كبيرة . لا تستطيع تعديل عمله ، انما يستطيع ذلك «المهندس» المشرف على هذه الآلة .

فإذا نحينا ايضا هذا العنصر الجانبي عن القضية ، عنصر البيروقراطية ، نصل إلى بيت القصيد من هذا الحديث ، وهو : العلاقة بين المثقفين والسلطة في البلاد العربية بوجه عام .

فهي علاقة يحكمها الشك ، وعدم الثقة ، على الأقل ، واحيانا يحكمها التناقض والعداء .

وفي تقديري ان هذه العلاقة «القلقة» تنطوي على خسارة كبيرة لكل بلد ، فوق انها تخلق «مناخا عاما» ان لم يكن هو المسئول تماما عن مشكلة «هجرة العقول» ، فهو يتسبب على الاقل في جانب منها .

فما هو السبب يا ترى؟

ليس المقصود بالتأكيد الوصول الى حكومات اشبه بجمهورية افلاطون التي يحكمها الفلاسفة .

فالحكم او السلطة بمعناها القيادي والسياسي ، امور لها مواصفات لا تتوفر عادة للمفكر أو المثقف أو الفني . واعظم فيلسوف قد يعجز بالتأكيد عن ادارة

قرية صغيرة. وبالتالي فليس مطروحا ان يتبادل الطرفان مكانيهما.

انما المطروح هو اقامة علاقة صحية بين الطرفين. .

الطرف الذي لديه الاسباب والظروف والمواهب التي تجعله زعيما، او قائدا، او حاكما. . يحسن اتخاذ القرار، ولديه الحس السياسي والاجتماعي الذي يجعله قادرا على القيادة في مرحلة ما، في بلد ما.

والطرف الذي لديه الاسباب والمواهب، لكي «يفكر» في الامور التي تعرض للحاكم، ويتأملها بعيدا عن ملاحقة الاحداث لكل حاكم او قائد. فهو عنصر مهم في انارة الطريق، واستكشاف شتى جوانب المشكلة، والتفرغ للنظر إلى الأمور في مداها البعيد.

وقديما، كانت مهمة القيادة أو الحكم ابسط مما هي عليه الآن بكثير. كانت الدول قليلة ومعزولة نسبيا. وكانت الامور التي تتدخل فيها الدولة قليلة، قد لا تتعدى الدفاع عن البلد وصيانة الأمن وكفالة القانون فيه.

ولكن، مع التقدم الهائل والسريع في كافة مجالات الحياة، صارت الأمور المطروحة على الحاكم كثيرة ومتشعبة ومعقدة الى آخر الحدود.

وأقصد بذلك الحاكم الفرد، والحاكم بالحزب، أو الحاكم بالبرلمان. فمجموع كل هذا هو ما اسميه «السلطة السياسية» في أي بلد من البلاد، مهما كان نظام الحكم السياسي والاجتماعي فيه.

هذه «السلطة السياسية» صار مستحيلا عليها ان تتخذ القرارات السليمة في كل المجالات، بسبب تشعبها وتعقدها، وحاجتها الى تخصصات كثيرة، وخلفيات متنوعة.

فاذا اخذنا دول المعسكر الشرقي، التي تقوم فلسفتها على دكتاتورية الطبقة العاملة، نجد انها في تقاريرها الحزبية صارت تزهو وتهتم بان تذكر ان عضوية الحزب صار فيها كذا في المائة خبراء اقتصاد سياسي وكذا في المائة علماء. . الى آخره.

واذا اخذنا النظم الديمقراطية في الغرب، نجد ان هناك قضية مثارة في انجلترا منذ سنوات حول علاقة الفكر والخبرة بالسياسة: فهناك كتاب ونواب يثيرون قضية تضاؤل دور البرلمان الانجليزي، لان كثيرا من الامور العامة التي تعرض

عليه معقدة لدرجة لا يستطيع النائب ان يحيط بها كلها تماما، في حين ان الوزير - ممثل السلطة التنفيذية - يجيء لمناقشة الموضوع المطروح مزودا بآراء عشرات الخبراء، واحيانا مصحوبا بهم، الامر الذي يجعل الغلبة في الاقناع غالبا للسلطة التنفيذية، فلم يعد للبرلمان ما يحكم فيه الا العموميات فقط.

وقضية اخرى مثارة في انجلترا - التي نتخذها نموذجا للديمقراطيات البرلمانية القديمة - خلاصتها ايضا ان رئيس الوزراء في مقره في البيت رقم ١٠ داونـنـغ ستريت، صار يحيط نفسه بخبراء من اعلى المستويات من الجامعات او من الحياة العامة، كالكتاب الصحفيين ومؤلفي الكتب وذوي الافكار المتميزة، الامر الذي جعل «مجلس الوزراء» في مجموعه يفقد الكثير من سلطته «لرئيس الوزراء» المزود بهؤلاء الخبراء، رغم انه ليست لهم صفة تمثيلية سياسية، أي ليسوا منتخبين.

فاذا اخذنا نموذج ديمقراطية برلمانية حديثة، هي الولايات المتحدة الامريكية، فاننا نجد انها سبقت زميلاتها في حل هذه المشكلة، او بمعنى أصح الاستفادة من العناصر المفكرة فيها.

فبالنسبة للكونجرس الامريكي، ونظرا لامكانيات امريكا المالية الواسعة طبعا، نجد أن النظام هناك يعطي كل عضو في الكونجرس ميزانية سنوية ضخمة، يكوّن بها جهازا فنيا مساعدا له، هم في الغالب من الخبراء الشبان، يعدون له الدراسات والمواقف المختلفة، وهم عادة شبان طموحون، اذكياء، مهتمون بالقضايا العامة لبلادهم. ولذلك فكثيرون منهم يبدأون من ذلك المكان حياتهم السياسية وتدريبهم لمراكز اهم مثل ليندون جونسون وروبرت كنيدي، وغيرهما كثيرون.

وبالنسبة للرئيس الامريكي نفسه، نجد ان كل رئيس، الى جانب وزرائه، وكل الجهاز التنفيذي التابع له، يعمد إلى الاستعانة بالكثيرين من عالم الفكر بوجه عام وحتى العالم الاكاديمي نفسه.

حكومة جون كنيدي كانوا يسمونها «حكومة هارفارد» لأن اغلب من أتى بهم من مستشارين ومساعدين كانوا من هارفارد. فسمعنا اسماء هارفارد اللامعة مثل مالك جورج بندي مستشارا له للأمن القومي، والاقتصادي السياسي

المشاغب كينيث جالبوبث سفيرا في الهند، وليشير عليه بشأن قضية مهمة هي محاولة فهم العالم الثالث بوجه عام، وكان هناك ايضا كيسنجر، للمشورة غير المتفرغة، بسبب كتاب ألفه واشتهر به عن السياسة في ظل الردع النووي، وموينهاين الذي اصبح ممثلا لامريكا في الأمم المتحدة، لمؤلفاته ودراساته عن قضايا اجتماعية امريكية كثيرة.

وبعد كنيدي جاء جونسون ليحتفظ بالبعض ويغير البعض الآخر، فوجدنا والت روستو الذي اشتهر بكتاب «مراحل النمو» الذي عارض به النظرة الماركسية في مراحل نمو البلاد المتخلفة، وشقيقه يوجين روستو استاذ السياسة الدولية.

ثم جاء نيكسون، فوجدناه يجعل كيسنجر مستشاره للأمن القومي، ثم وزيرا للخارجية، ويستعين بكثيرين آخرين.

وكان البعض يندهش احيانا من ان الرئيس الامريكي يستعين بمستشارين لهم آراء تخالف رأيه وفلسفة حزبه. ولكن هذا بالضبط هو المقصود احيانا.

فحين يأتي الحاكم بمستشارين ومفكرين من نفس مدرسته وتفكيره، فكأنه يضع حوله مرايا لا يرى فيها الا نفسه، في حين المفروض ان توجد عناصر اخرى تثير الجدل والنقاش، ويجد من خلالها فرصة التعرف على شتى الآراء والتيارات.

ومن اسباب مأساة نيكسون انه ـ في القضايا الداخلية ـ احاط نفسه بأشباهه في الفكر والرأي والسلوك. فكان ان وقع في عزلة حادة عن الرأي العام على حقيقته، مما ورطه في قضية ووترجيت بتصرفات كلها من مصدر واحد ونوعية واحدة، حتى صار الانفصام بينه وبين الرأي العام كاملا، الى ان اضطر للاستقالة الشهيرة.

وليس معنى ذلك تحويل المفكرين إلى موظفين في الدولة. فهناك نظام اللجان المؤقتة، التي تتشكل من أهل الفكر والخبرة، لدراسة قضية معينة، ثم تنتهي مهمتهم بانتهاء مهمة اللجنة.

وانجلترا فيها هذا الاسلوب. فحين ارادت الحكومات هناك ان تعيد النظر في نظام التعليم.. ومرة اخرى لدراسة مشكلة المواصلات.. ومرة ثالثة لدراسة مستقبل صناعة الفحم كطاقة.. كانت تشكل لكل موضوع لجنة قومية..

تتجاوز الاحزاب، وتتجاوز الاجهزة التنفيذية . . ثم يصبح التقرير بعـد ذلـك ملكا للدولة والبرلمان والرأي العام، يناقشه ويدرسه ويتخذ قرارا بشأنه .

وفي نفس الوقت انتشرت في امريكا المعاهد العليا المتخصصة . . معـاهـد مستقلة، معهد لدراسات البحر الابيض، معهد لدراسات الشـرق الاوسـط، معهد لدراسة الاسلحة النووية واثرها على السياسات المختلفة . . وكثيـرا مـا يطلب الرئيس أو الكونجرس من هذه المعاهد المستقلة دراسة ما، حول قـضـيـة يدرسونها . فتكون بين ايديهم خلاصة احسن الخبرات في البلد . وانتشـر فـي كل معهد ما يسمونه باللغة الامريكية ـ غير الانجليزية احيانـا ! ـ بـالـ Think Tank اسلوب آخر في توطيد العلاقة بين الفكر والحكم، بين العلم والعمل، بدأت تأخذ به دول متقدمة كثيرة .

واذا كانت امريكا قد سبقت اوربا في هذا المجال، وساهم الفكر في حياتها بدور كبير . . فان معظم المؤلفين يرجعون ذلك الى اختلاف الظروف التاريخية بين اوربا بتاريخها القديم، وامريكا التي بدأت من نقطة جديدة، متحررة مـن عبء التركة الاوربية .

يصف الكاتب «البرت سالومون» تلك الظروف في اوربا فيقول : «كان هناك ضغط الكنيسة العنيف على حرية الفكر في العصور الوسطى، ولما جاء عصـر النهضة لم يأت بتغيير كبير في حياة أهل الثقافة والفكر . ذلك ان مشكلة طلب الرزق كانت ترغم الكثيرين من المثقفين البارزين على العمل في خدمـة امـراء الاقطاع، الذين كانوا مستعدين لرعاية الشعراء والمفكرين مقابل استسلامـهـم الفكري . وهكذا وجد المثقفون انهم صاروا كالسفسطائيـين أيـام الإغـريـق، مضطرين لكي يعيشوا الى الاعتماد على قدرتهم على العمل كمـسـتـشـاريـن لأصحاب السلطة، على حساب نزاهتهم الفكرية، ثم ظهرت المطبعة، فكـان هذا انقلابا في حياة المفكر، اذ صار للمفكر لاول مرة ان يتحدث الى الناس من جهة، وان يتلقى بعض الموارد المالية من قرائه من جهة اخرى . ان الحلف الذي تم بين المؤلف وصاحب المطبعة في القرس السادس عشر، اذا كان كلاهما يصدر عن قناعات اجتماعية واخلاقية ودينية واحدة، جعل استقلال المفكر ممكنا . ثم لم يلبث النشر ان صار تجارة ومهنة مربحة .

وصار اصحاب المطابع والناشرون يخضعون لعوامل اقتصاديات السوق ودرجة اقبال الجمهور على انواع معينة من الكتب. صار المثقف الذي ليس له دور خاص، تحت رحمة رجل الأعمال. كان في مقدور المؤلف من الأغنياء مثل مونتاني ومونتسكيو ان يكون فليسوفا. اما المؤلف العادي، فلم يكن يجد سبيلا إلى أي عمل عقلي جاد. بالعكس، لقد اصبحت مطالب القارئ غير المتعلم اعلى صوتا وأكثر الحاحا، وخلقت بالتالي مؤلفي التسلية والجنس وقصص الرعب».

على ان اخطر ظاهرة ترتبت على هذه الظروف، هي عزلة المفكر تماما عن حياة المجتمع المحيط به وغرقه في تأملات وافكار مجردة، حتى كانت الثورة الفرنسية.

على العكس من ذلك نجد «ميرل كيرتي» يحدثنا عن التجربة الامريكية فيقول: «ان الظروف المبكرة للحياة الامريكية ألغت التفرقة التقليدية بين «النظرية» و«الممارسة». منذ البداية، لم تتح الحياة الامريكية ما يمكن ان يسمى «طبقة مثقفين مستقلة» كما حدث في حضارات الصين والهند واوربا، كذلك لم تفرض ظروف نشأة امريكا عليهم أي نوع من الوصاية، فكانت القاعدة تقضي على ذوي الاهتمامات الفكرية ان يكسبوا رزقهم بأنفسهم في نفس الوقت. وذلك بممارسة الطب أو المحاماة، او الانخراط في سلك رجال الدين، او ادارة زراعة او تجارة بل واحيانا الاشتغال بالحرف اليدوية.

وهذه الظروف ذاتها لم تدفع المثقفين إلى العمل والاختلاط بالحياة فقط، بل دفعت الرجال العمليين ايضا إلى تنمية اهتماماتهم الثقافية. هكذا كان وليم بيرد مثلا يستخدم في حياته اليومية كمالك كبير للاراضي، ليس فقط ثقافته القانونية، ولكن ايضا ثقافته في الزراعة والطبيعة وغيرها. حتى التاجر، كان على عكس زميله الاوربي يحاول ان يعرف المزيد من انواع المعرفة التي تفيد تجارته، كالملاحة، والفلك، والجغرافيا، والاقتصاد السياسي، واللغات التي تتحدث بها الشعوب الأخرى».

وهكذا، حين بدأت حرب الاستقلال الامريكية للانفصال عن انجلترا، كان «الآباء المؤسسون» الذين اجتمعوا في وليامزبرج لوضع اسس الدولة الجديدة،

كانوا جميعا من كبار المفكرين والعلماء في عصرهم في شتى الفروع من الفلسفة إلى القانون إلى العلوم التطبيقية . . جيفرسون وجون آدمز وغيرهما وكان فيهم مديرو جامعات واساتذة وخبراء بنسبة عالية جدا .

فلم يكن التحالف بين العلم والعمل جديدا على امريكا بعد ذلك . بل ان هذا المبدأ كان هو روح عصر التنوير الأساسية ، كما قال فرانكلين .

واعود بعد هذه الجولة إلى بلادنا العربية . . إلى واقعنا . .

اننا لا نجد المثقف عندنا يقاسي فقط تاريخيا ما قاساه المثقف الأوربي مما سبق ذكره ، بل انه يعاني من مرحلة انقطاع فكري تام ، دام عدة قرون من الزمان ، مع سيادة الاستبداد ، خصوصا خلال الامبراطورية العثمانية الذي زاد على ثلاثة قرون .

وعندما بدأ هذا يتغير مع العصر الحديث ، كانت مهنة الفكر والكتابة فكرة محتقرة من الفئات المتميزة في حين ان التعليم لم يكن متاحا الا لهؤلاء .

في مصر كانت الاسرة تكاد تتبرأ من ابنها اذا احترف الأدب أو كتب مقالا في الصحف . وكان المحامي يسمى في اللهجة «السفيه» لأنه الذي يدافع بالحق أو بالباطل امام القضاة .

وهذا يذكرنا بقصة «فولتير» مع اشهر مؤلف انجليزي مسرحي في ذلك العصر وهو «كونجريف» . فقد سمع فولتير ان كونجريف المؤلف العظيم جاء إلى فرنسا في رحلة ، فأسرع فولتير إلى زيارته قائلا له : ان شهرته ككاتب هي التي دفعته الى الحضور لتحيته . ولكن كونجريف استاء من التحية ، وقال لفولتير : انني «جنتلمان» ـ اي من النبلاء ـ قبل ان اكون مؤلفا ، وكنت اظن انك جئت تحييني لهذا السبب . فرد فولتير قائلا : انه ما كان ليسعى الى لقائه لو كان مجرد «جنتلمان!» . ولكن ذلك كان هناك ، منذ قرون .

المهم ان المثقف في العالم العربي شب عن الطوق ، واستطاع في حالات كثيرة التأثير في التفكير العام في بلاده ولكنه خرج لكي يواجه عددا هائلا من الضغوط لا حصر له ، القديم منها والجديد .

شيوع الاستبداد السياسي والارهاب الفكري في كثير من المراحل في كثير من البلاد العربية في تاريخها الحديث . . انتشار الامية انتشارا مخيفا ، ومازال

قائما، الذي يجعل دور العالم والمفكر بوجه عام مقتصرا على التأثير او مجرد الوصول إلى عدد قليل من الشعب، الذي يفكر له.

ديماجوجية بعض الزعامات التي تستخدم سحرها لدى الجماهير، في اسكات الصوت المختلف وارهابه فكريا، بضغط الاغلبية المنساقة لها السلطة الرسمية.

طغيان وسائل الاعلام ذات الانتشار الساحق، من صحافة واذاعة وتليفزيون، وهي وسائل تحتاج إلى استهلاك واسع من جهة، والى تلبية رغبات نسبة كبيرة من غير المتعلمين من جهة اخرى. صار ضجيجها الترفيهي يغطي تماما على صوت العقل المفكر في القضايا الاساسية لأي بلد، وهي محنة يعاني منها مفكرو العالم جميعا.

عدم وجود المؤسسات التي تنطوي على طابع البحث والتفكير والدراسة في شتى الفروع، والتي قد يجد المثقف والباحث فيها ملاذا وملجأ ومجالا يفيد فيه.

الشك القديم الذي يميز العلاقة بين السلطة وبين المثقفين بهذا المعنى.

وجانب من هذه المشكلة، يكمن في اختلاف طبيعة كل من رجل العمل ورجل العمل.

رجل العمل لابد ان يكون من طبيعته القدرة على الحسم. واتخاذ القرار السليم، وبالتالي فهو شخص مؤمن بما يفعل، مصمم على تنفيذه، لا يجوز ان يكون من طبيعته التردد، ولا وقت لديه للتأمل.

هذا، بينما رجل الفكر والعلم لابد ان يكون من طبيعته الشك والتأمل.

وحاجته إلى وقت طويل للوصول الى اقتناع ما، وادراكه لمزايا عمل ما وتخوفه في نفس الوقت من آثاره الجانبية.

وازاء هذا الاختلاف بين الطبيعتين.. تتعمق روح الشك بين الاثنين.. فيزدري صاحب المنصب حديث المفكرين والخبراء ويعاديهم، وينطوي اصحاب الفكر والعلم على انفسهم، او يطلبون السلامة بالسكوت، ويصبحون معارضين ايجابيين في اسلوب معارضتهم او سلبيين، او يفعلون ما فعله مثقفو القرون الوسطى مما سبق ذكره، «يشترون سلامتهم بالاستسلام الفكري لغير ما

يؤمنون به ويعتقدون فيه».

ولذلك فان احدهما لا يصلح لأن يأخذ مكان الآخر، كما قلنا في صدر هذا الحديث. . انما المطلوب ان تقوم بين الاثنين علاقة صحية سليمة. تفيد رجل العلم والفكر لأنه يدرك ويتعلم التعرف على المشاكل الحقيقية. وتفيد رجل العمل لانها تزوده بكل ما بذله رجل العمل والفكر من جهد ودراسة ومعرفة.

تحاول اكثر من دولة ـ على سبيل المثال ـ انشاء مجلس للتعليم، يضم اهم الفكر والخبرة في هذا المجال، وان تعددت آراؤهم. ولكننا سرعان ما نجد الوزير المسئول عن التعليم ـ مثلا ـ اي المكلف بالتنفيذ. يستنكف من مشورة هؤلاء، ويرى في وجودهم وصاية عليه، لا مساعدا له، وسرعان ما يتجمد هذا المجلس، او يموت دوره بالتدريج.

ونفس الامر في مختلف الاهتمامات.

هكذا نجد الكثرة من المثقفين العرب، خصوصا اولئك الذين يريدون طرح قضايا العصر الحقيقية والمصيرية، اما مهاجرين الى اماكن نائية، واما مهاجرين هجرة داخلية، وفي كلتا الحالتين نراهم هائمين على وجوههم، بضمائر مثقلة وآمال محبطة، ونفوس جريحة. غير راضين عن انفسهم اكثر مما هم غير راضين عن ظروفهم. ولا يفيد البلد ما انفقت عليهم وهيأت لهم، أي شيء.

اقول هذا الكلام، وانامدرك تماما ان هذه المشكلة جزء من درجة التقدم والنضج العام لاي مجتمع من المجتمعات.

وأقوله متوقعا ان لا يجد الكثيرون ان القضية على هذا القدر من الاهمية. وهو اعتقاد غير صحيح.

ان مشكلة التقدم في كل البلاد النامية، لم يعد احد في العالم يترجمها الى درجة التقدم المادي وحده. والتقدم المادي وحده ليس تقدما راسخا، انما قد يكون مظهريا سرعان ما تنهار اسسه، وتتأزم اموره اذا لم يصاحبه تقدم عام في كافة المجالات.

التقدم المادي لابد معه ـ بل لابد له ـ من تطوير وتنوير بالنسبة لمجموعة

الشعب، ولابد لتطوير وتنوير مجموع الشعب من العناية بالعناصر المتميزة ـ قدرة ـ من ابنائه، والمحافظة على المصابيح التي تضيء طريقه، والقوى التي ترعى قيمه وتقاليده وعقائده وافكاره.

***

السلطة

شرعية السلطة في العالم العربي*

سألوني، عن التحديات التي تواجهها القومية العربية . .

وكان ذلك في ندوة عامة، في مقرر رابطة الادباء . .

وقلت لهم: ان التحديات التي تواجه القومية العربية كثيرة، منها مثلا الوصول بها إلى نوع من أنواع الوحدةالعربية . ومنها حل مشكلة التخلف الاجتماعي والاقتصادي . ومنها تحدي المحافظة على الاستقلال القومي بين تيارات وعواصف القوى الكبرى . ومنها تحدي الحفاظ على الثروة البترولية الاستراتيجية وحسن استثمارها . . الى آخره .

ولكنني، قلت لهم، أفضل ان لا اتحدث عن «التحديات الخارجية» المعروفة، وأن أركز على ما يمكن تسميته «تحديات داخلية»، أي تحديات فينا وفي نفوسنا ومجتمعاتنا . ذلك أنني اعتقد انه لو استقامت أمور الأمة العربية الداخلية، وحياتها مع نفسها، لتغير الموقف تماما بالنسبة لكل شيء . وحتى التحديات الخارجية سوف يتغير وضعها وسوف تسهل مواجهتها إلى حد بعيد .

وقد اخترت من هذه التحديات، ثلاثة . .

ثلاثة امور تحتاج إليها المجتمعات العربية بدرجات متفاوتة . وقد تبدو للبعض نوعا من الترف الشكلي، لأنها «صفات» و«قيم» وليست «اشياء مادية» . ولكن الواقع ان الحاجة اليها صارت ماسة بها ومتفاقمة .

---

* العربي ـ العدد ٢٤٢ ـ يناير ١٩٧٩ .

فالقوة المادية لا يمكن أن تأتي الا في اعقاب قوة معنوية .

وكل مجتمع ناهض، لم يحقق نهضتـه وتقدمه المادي إلا بعد ان استتبت لديه «قيم» و«مؤسسات» و«نظم» تسمح بقيام هذا التقدم المادي واستقراره على اساس متين .

ان من الشعارات البراقة الرائجة هذه الايام، في مؤتمرات وعلـى اقـلام الباحثين وألسنة الزعماء والحكام . . عبارة «نقل التكنـولـوجيـا»، الـتـي نستخدمها في اطار البحث في سبل تطوير وتقوية مجتمعاتنا العربية .

ولكن التكنولوجيا لا يشتريها المال . ولا ينقلها عشرات أو مـئـات مـن الخبراء الذين يتعلمونها في الخارج . هذه وسائل مساعدة . ولكن التكنولوجيا لا تنتقل حقا وتصبح لها جذور الا في تربة صالحة ومهيأة لذلك . والتربة لا تكون صالحة الا اذا توفرت لها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية معينة .

وحتى لا يظن القارئ انني اشغله بقضية هامشية اسرد قصة صغيرة سردتها قبلا في مجال آخر، تدل اي انسان مدرك للمسؤولية، ان البلاد لا تـتـقـدم بالصناعة والزراعة واصلاح التليفونات وحدها!

منذ اكثر من عشرين عاما، وانا في مطلع حياتي الصحفية، تعرفت بحكم المهنة على الملحق الصحفي الشاب في سفارة اليابان بالقاهرة «وقد لقيته اخيرا سفيرا لليابان في دولة الكويت» . ثم عرفت منه بالمصادفة يوما انه يـواظـب على حضور حصص اللغة العربية في مدرسة المنيرة الـثـانـويـة فـي شـارع المبتديان .

ودهشت . وقلت له ان هناك وسائل اخرى اسهل لتعلم العربية بالنسبـة له وقتها قال لي : انه حقا مبعوث ليعمل ملحقا صحفيا لليابان في مـصـر . ولكن مطلوب منه شيء آخر، هو دراسة اللغة العربية دراسة دقيقة عميـقـة تمكنه من اداء غاية معينة بعد سنوات وهي : ترجمة كتاب «مقدمة ابن خلدون» الى اللغة اليابانية .

هذه الواقعة الحية، لا تبرح ذهني ابدا . فكتاب مقدمة ابن خلـدون مـن اهم كتب التراث العربي القديم . وهو من اهم مراجع علم الاجتـمـاع فـي

العالم كله .
ولذلك لم تكتف اليابان بان يطلع عليه المتخصصون في لغات اخرى ـ انجليزية وفرنسية ـ ولا الى اشارات المؤلفين العالميين اليه . ولكنها كلفت احد ابنائها بالقيام بهذا الجهد سنوات طويلة ، حتى يوجد هذا الكتاب كاملا ، في لغة اليابان ، متاحا لكل شاب او دارس ياباني في علم الاجتماع !
وقتها ، كانت اليابان خارجة من كبوتها وهزيمتها في الحرب العالمية الثانية . لم تكن قد هجمت على العالم كله بعد بسياراتها وترنزيستوراتها وتلفزيوناتها وكل صناعاتها التي تذهل العالم وتزعزع اعتى الدول الصناعية الاخرى .
والبعض يظن ـ في سطحية ـ ان اليابان عكفت على اتقان هذه الصناعات وحدها !
كلا ! فنفس الجهد الذي كانت تبذله اليابان في مجال البحث العلمي والانتاج الصناعي كانت تبذله ـ بالتوازي ـ في مجالات البحث الاخرى كالعلوم الانسانية . . وتترجم مقدمة ابن خلدون من العربية رأسا إلى اليابانية .
عرفت اليابان قيمة الكلمة والورقة كما عرفت قيمة الجهاز الالكتروني الصغير !
وبغير هذا ما كانت اليابان لتحرز ما احرزته من تقدم مذهل !
ففي حياة كل الأمم ، لم يحدث ابدا ان تم التقدم في مجال واحد دون مجال . المجتمع او الشعب اما ان يتقدم في كافة المجالات ، لانها تكمل بعضها ، واما ان لا يتقدم !
والتقدم غير القوة المادية العابرة !
وقد اخترت ثلاثة تحديات داخلية ، او ثلاثة اشياء علينا ان نحققها في بلادنا اولا ، ونقيم عليها حياتنا ، ونجاهد فيها انفسنا .
اولا : الديمقراطية وحرية الرأي ، وامرهما واضح .
ثانيا : العقلانية ، وليس ذلك معناه الغاء العاطفة . فالعاطفة في حياة الشعوب امر اساسي . حب الوطن عاطفة . وحب العدل عاطفة ، انما علينا ان نقرن التأثر بالعاطفة مع درجة كافية من العقلانية ، فيكون فكرنا وتصرفاتنا

وسياساتنا كلها قائمة على العقل والقلب معا .

ثالثا : الشرعية . .

وقد تكون «الشرعية» هي اكثر «الشروط» حاجة إلى الايضاح والتفسير . ذلك انها تختلط، من الوهلة الأولى «بالقانونية»، اي بالجانب القانوني، والشكلي، للشرعية في حين انها في مجال فلسفة السياسة والحكم اوسع من ذلك واعمق في معناها ومغزاها .

المفكر السياسي «ماكس ويبر» يقول : «بدون الشرعية، فان اي حكم، او نظام، يصعب عليه ان يملك القدرة الضرورية على «ادارة الصراع» بالدرجة اللازمة لاي حكم مستقر لفترة طويلة» .

وهذا صحيح . فالحكم في محاولته امتلاك عنان الامور والقدرة على مواجهة المشاكل والتحديات، تختلف قدرته وكفاءته اختلافا كبيرا . . بين حالة يكون فيها الناس معه، وحالة يكون فيها الناس ضده . او ليسوا معه . سواء كانوا ضده بالاعتراض والرفض والمقاومة . أو بالسلبية، والاهمال وعدم التفاعل معه .

واي حكم، قد يتمكن من تحقيق «استمرار وضع ما» عن طريق القوة او العادة . . ولكن العلاقة بين الحاكم والمحكوم تظل قلقة، مصدر ضعف للسلطة وللوطن معا «الى ان يقتنع المحكوم بجدارة الحاكم، واحقيته في ان يحكم ويدير له اموره عنه» .

فاقتناع الشعب، «باحقية السلطة وجدارتها»، هذا الاقتناع هو جوهر الشرعية ومغزاها . لا تغني عنه كل اشكال السطوة والرهبة والنفوذ . حتى ولو احاطت نفسها بعشرات الدساتير والقوانين!

ويقول دافيد ايترن في هذا المعنى ذاته « . . قد يقبل المواطن بسلطة الحكم عليه لالف سبب وسبب . ولكن الشرعية هي ان يجد المحكوم ان من المقبول عنده، والمناسب له، ان يطيع متطلبات النظام السياسي القائم، اذ يجد انها تتسق مع قيمه ومبادئه واخلاقياته وامانيه . ذلك ليس لمنفعة شخصية مباشرة له، ولكن بمعنى المنفعة العامة وعلى المدى الطويل» .

والشرعية بهذا المعنى اوسع من التأييد او المعارضة . فقد يكون هناك من

يعارض السلطة. وقد يتذمر الناس من بعض قراراتها وسياساتها. ولكن هذه امور طبيعية بل وحتمية. لا تنفي الشرعية، طالما شعر المواطنون ان السلطة في توجهها العام، سلطة وطنية، منطقية مع التاريخ الوطني، ومخلصة في المجموع لادارة الشعب، وللقيم العامة التي تربط ابناءالوطن الواحد بعضهم ببعض.

ولتوضيح هذا المعنى نعطي نموذجا من بلد عربي يصعب فيه قيام الشرعية الى حد بعيد، كصورة «متطرفة» نفهم منها «روح الشرعية». وهذا النموذج هو لبنان.

في لبنان يصعب الحديث عن «قيم واحدة وارادة وطنية عامة.. الخ» تجمع بين كل ابناء شعب لبنان. فلبنان قام على توازن طائفي. وتكرس هذا التوازن الطائفي في مصالح اقتصادية وانتماءات سياسية شتى. وزادت هذه الاوضاع تعمقا بعد الاستقلال بدلا من ان تزول. فالماروني والسني والشيعي والدرزي، لا يمكن الكلام عن «تصور عام واحد لمصلحة الوطن» يضمهم جميعا.

ولا يمكن الكلام عن «مستقبل واحد» يتصورونه ويطمحون اليه كلهم على السواء. وتعمق ذلك بان التعليم الوطني لم يوجد بل وجد اكثر من تعليم. كل تعليم علم ابناءه صورة مختلفة عن الوطن. والمؤسسات الوطنية كالجيش والبوليس والقضاء لم يتم الاحساس بانها للوطن كله، انما يحسبها كل فريق له او ضده حسب وضعه وانتمائه.

كانت الشرعية الوحيدة في لبنان قائمة على اساس ضعيف وهو: اتفاق الاطراف على نصيب كل طرف من «الكيان الواحد». فظل الكيان كيانا ولم يتحول الى وطن. وحين اختلفت الاطراف على الانصبة في هذا الكيان، وحين وقعت في المنطقة احداث وضعت هذه الاطراف امام اختيارات حاسمة بالنسبة لهويتها وانتمائها، فاختلفت هذه الاختيارات.. حين وقع هذا انهارت «الشرعية» وقامت الحرب الاهلية.

لبنان صورة متطرفة، ولكن قيمتها انها تشرح لنا فكرة الشرعية الاساسية..

الصورة الاخرى الواضحة التي تبين لنا ان «السلطة الشرعية» غير مجرد الوجود في الحكم هي صورة الاحتلال الاجنبي .

قد تحتل دولة من الدول دولة اخرى . وقد يستمر الاحتلال مائة او مئات من السنين . ولكن مجرد الوجود في السلطة هذا الزمن لا يجعلها شرعية ، لانه لا يتصور ان يكون هناك احتلال ما يتفق مع رغبة الناس ، ويعبر عن ارادتهم ويترجم امانيهم ولو باضعف المعاني .

انه وجود بحكم القوة لا بحكم الرضى . انه «استمرار» لا «استقرار» . انه اغتصاب للسلطة وليس تفويضا بها .

واذا كانت صورة الاحتلال الاجنبي ايضا صورة متطرفة . الا انها كذلك تشرح لنا جانبا آخر من جوانب فكرة الشرعية .

وحتى الثورة حقا ، اذا كانت ثورة حقا . فان هدفها النهائي يفترض ان يكون «اقامة شرعية جديدة» . بل إن ما يفرق بين الثورة وبين الانقلاب هو هذا المعيار الهام . الثورة والانقلاب كلاهما يغتصب السلطة . ولكن الثورة تغير المجتمع وتقيم شرعية جديدة يعيش بها مرحلة استقرار جديدة ، اما الانقلاب فهو يغتصب السلطة فحسب . واذا بقي فيبقى باغتصاب السلطة المستمر ، وليس بمنطق شرعي جديد مستقر .

وقد يحيط مغتصب السلطة نفسه بكل «اشكال» الشرعية ، فاي حكم قد يتمكن عن طريق القوة من اقامة برلمان مثلا واجراء انتخابات ، واصدار قوانين وتشريعات . ولكنها تبقى كلها ستائر تخفي عدم الشرعية ولا تحل محل الشرعية .

فالقانون ليس اي ورقة عليها توقيع الحاكم . القوانين احكام خارجة من ضمير الناس معبرة عنهم في الاساس . وما عدا ذلك فهو قوانين لا تساوي في ميزان الشرعية اكثر من ثمن الحبر الذي كتبت فيه .

وترى الناس في مثل هذا الوضع تتلقى هذه القوانين بالاذعان . وقد تنفذها عن خوف . او قد لا تقاومها عن سلبية وعدم اقتناع . ولكنها ليست بالنسبة لهم «مشروعة» . وليست لها في ضمائرهم اية مرتكزات .

وكما قلنا ان الشرعية غير «القانونية الشكلية» . وغير مجرد القدرة على

البقاء في السلطة. وانها تختلف عن التأييد والمعارضة لقرارات السلطة.
كذلك فان الشرعية غير الوصف السياسي لنظام الحكم: ملكي او جمهوري، موروث او جديد، فالملكية والجمهورية وغيرهما من نظم الحكم، لا ترتبط بالضرورة بالشرعية. لأن الشرعية كما هو واضح مما سبق ذكره هي معيار مستمر من «نظرة الرعية الى السلطة» وليست مستمرة من طريقة وجود السلطة أو الاسلوب الذي سلكته للوصول إلى الحكم. انما هذه أشكال للسلطة وليست هي التي تحدد اذا كان موقع السلطة من الناس هو موقع «القوة» أو موقع «النفوذ». والسلطة، في كل زمان ومكان، تحتاج إلى القوة لضبط حياة المجتمع. ولكنها لا تكون شرعية اذا كانت تعتمد على «القوة» فقط. انما تكون «شرعية» يكون لها لدى الناس «قوة النفوذ» لا «نفوذ القوة» فمن غير هذه الرابطة المعنوية بين السلطة والرعية.. لا تكون هناك شرعية!

وإذا كنا نسوق هذه الاحاديث النظرية كلها، فان الغاية ليست الغرق في النظريات.

إنما الغاية أن نقول أولا ان «الشرعية» بهذا المعنى عنصر حاسم في قوة الشعب والدول أو ضعفها. وان نقول ثانيا ان الشرعية بهذا المعنى غائبة أو ضعيفة في كثير من اقطارنا العربية. وأن نقول ثالثا ان الاحداث اذا كانت قد علمتنا اهمية الديمقراطية والعقلانية فقد آن أن ندرك الاهمية الكبرى للشرعية.. لأن الشرعية في النهاية هي الانسجام بين الحاكم والمحكوم. وبغير هذا الانسجام الداخلي لن ترقى لنا حياة في داخل بلادنا، ولن يقوى لنا عدد في خارج بلادنا، ولن يكون في سياساتنا وممارساتنا أي انسجام.

ولكن السؤال الذي لابد أن يطرحه كل قارئ هو: اذن كيف نتعرف على وجود هذه الشرعية من عدم وجودها.. وقد قلنا إنها غير «القانونية». وغير «السطوة» وغير الأشكال الدستورية؟

وهو سؤال وجيه..

وقد تكون الإجابة عنه غاية في السهولة والبساطة.. وقد تكون غاية في الصعوبة والتعقيد!

يمكن ان تكون الاجابة غاية في السهولة، اذا قلنا: لنترك كل هذه الحذلقات جانبا. ولنلجأ فقط إلى حس الناس البسيط وفطرتهم السليمة. ما هو شعورهم العام لدى الحكم القائم لديهم؟ هل يشعرون انه يمثلهم، يناسبهم، ينتمي إليهم؟ اذن فالحكم شرعي «مرة أخرى، بصرف النظر عن الموافقة أو المعارضة لبعض قرارات السلطة، فهذا امر عادي» وهل يشعرون بغربة مع نظام حكمهم، بعزلة عنه، بانقطاع الصلة بينهم وبينه؟ اذن فهو حكم لا شرعية له!

وهذه حالة لا تخفىٰ على أي مراقب عادي.

أما إذا حاولنا بعض الاجابات الصعبة، فاننا نحاولها أساسا لكي نتعرف على المزيد من ملامح الشرعية أو عدم الشرعية، ومن الصفات السلبية التي يشعر بها الحاكم والمحكوم معا.

فنحن نلاحظ أننا لو أخذنا مثلا سياسة أي بلد متقدم، له نظم سياسية مستقرة، فرنسا مثلا أو إيطاليا أو أي بلد من هذا النوع، فسنجد أن البلد قد تتغير أحزابه الحاكمة، وقد تتبدل وزاراته ولكن سياساته العامة ثابتة، عناصرها واضحة، توجهاتها معروفة مقدما، ردود فعله يمكن التنبؤ بها إلى حد كبير.

لكننا أحيانا ما نجد بلادا عربية سياساتها عرضة للتقلبات الحادة حتى دون تغير الوجوه والاشخاص. اهدافها مغلفة بالغموض، دوافعها إما الخوف من المجهول وإما ان هذه الدوافع لا توجد معلومات كافية عنها لدى المواطنين. والاعتبارات الشخصية لها قدر كبير في توجيه هذه السياسات. . بسبب المزاجية، واعتبارات المجاملة، والعلاقات الفردية بين الحكام، والنزعات العاطفية. وبالتالي فاننا نجد رد فعل الرأي العام ازاء هذا هو اما المقاومة، والحالة هنا تكون واضحة، وأما السلبية المطلقة، وعدم توفر «المصداقية» وعدم القدرة لدى الناس بالتنبؤ عن اتجاهات السلطة، وعدم استبعاد ان تنقلب هذه الاتجاهات فجأة بين يوم وليلة. وعدم توفر المبررات والاسباب والمعلومات الكافية لدى المواطن.

ونحن نجد أن معظم النظم العربية، باختلاف ظروفها التاريخية وأوصافها

الدستورية والبيئات التي أفرزتها، تعد المواطن بنفس الاشياء تقريبا. وتتحدث بلهجة تكاد تكون واحدة في أمور كثيرة. ولكن هذا يتعارض مع الواقع المؤلم.

فهناك مسافة واسعة بين المبادئ التي يبشر بها وبين حقائق الممارسات السياسية والادارية. وتكون النتيجة احباطا عاما لدى المحكومين وعزوفهم عن الاهتمام الجدي أو المشاركة الفعلية أو مجرد التصديق. وأحيانا يكون هذا الاحباط عندالحكام أنفسهم إذا كانوا حسنى النية ولا يدركون العلة. وذلك بسبب احساسهم - لعدم توفر المصداقية هذه - بعدم القدرة على تحقيق طموحاتهم، أو على العثور على صيغة لتنفيذ سياساتهم، واصطدامهم بعقبات كالسلبية أو الفساد، وانتشار روح الانتفاع أو عدم تفهم الناس لاهداف السلطة أو ربما عزوفهم عن مجرد محاولة تفهمها!

والمثل الذي يضربه «مايكل هدسون» الأستاذ الأمريكي صاحب كتاب «البحث عن الشرعية في العالم العربي» هو حكاية محاولة القيام باحصاء علمي لعدد السكان. فالناس أحيانا يكذبون في الارقام التي يقدمونها حتى عن هذا الشيء البسيط، أحيانا لتخلفهم، وأحيانا لخوف موروث من كل ما هو آت من «السلطة» وشكهم في نواياها ودوافعها.

ويعتقد نفس المؤلف «مايكل هدسون» أن أكبر عقبة في طريق الشرعية، هو عدم توفر المساواة بدرجة كافية. وهو لا يقضي بالمساواة كما تفسرها النظم السياسية والاقتصادية المختلفة. فكما أننا نقصد الشرعية بمعناهاالواسع الرحب فكذلك يرى أن الناقص هو توفر المساواة بمعنى واسع ورحب. فالناس في العصر الحديث ترى في الاحساس بالمساواة شرطا اساسيا لتقبلها الاختياري لوضع ما. والمساواة معناها العدالة، ومعناها روح الانصاف، ومعناها الجدية في القوانين المنسجمة في نظر المواطن مع المنطق وصدق الرغبة في تنفيذ هذه القوانين، ومعناها المعقولية في التصرفات، وعدم التحيز لمذهب أو عقيدة أو فئة.

وقد تكون صعوبة تحقيق «الشرعية» كامنة في الشعوب نفسها، قبل حكوماتها. هذا بوجه عام حال معظم الشعوب النامية. خصوصا تلك التي

لم يتحقق لها من قبل «انسجام وطني» بدرجة كافية. فهناك شعوب تسهل مهمة اقامة «الشرعية» فيها، مثل مصر، حيث جعلتها ظروفها التاريخية شعبا مندمجا متكاملا له بوجه عام نفس القيم والمعايير والانتماءات.

فمصر ليست مقسمة إلى طوائف. لا يقال فيها ان هذا سني وذاك شيعي مثلا. وحتى الاقلية القبطية الكبيرة فيها مستوعبة في اطار الاغلبية، حيث لا يوجد مثلا اقليم تركز فيه الاقباط انما هم في كل قرية ومدينة جنبا إلى جنب مع المسلمين. وليس فيها تعصب لاقليم دون اقليم. فاذا تشكلت وزارة لا يسأل أحد اذا كان هذا الوزير من طنطا أو من اسيوط. بعكس الصورة المتطرفة الاخرى في لبنان حيث يراعى تمثيل الطوائف. وداخل الدين الواحد يراعى تمثيل السنة والشيعة، وتمثيل الموارنة والارثوذكس مثلا، وداخل المذهب الواحد في الدين الواحد يراعى تمثيل سنة بيروت وسنة طرابلس. وشيعة الجنوب وشيعة بعلبك والهرمل، وهكذا.

وحين قاد هواري بومدين مثلا حركة التعريب في الجزائر والزام الكل باستخدام اللغة العربية بعد تاريخ معين، كان يقضي على أحد أسباب التفرقة ويضع أحد أسس امكانية قيام الشرعية «بعكس لبنان كما ذكرنا حيث لم يوحد التعليم بعد الاستقلال».

وفي مرحلة الانتقال من الوطنية إلى القومية العربية، تعارضت ـ وما تزال ـ الولاءات. فالولاء للوطن المحلي أم للأمة؟ ويجب ان نعترف بهذه الحقيقة ونحن نتحدث عن القومية العربية. فتلك أحد أهم قضاياها التي يجب حلها، بتحقيق الانسجام بين الاهداف الوطنية والاهداف القومية وليس بترك الساحة لنمو التنافر بينها.

ثم اننا عندما نتأمل اهم عنصر يؤثر في حياة الامة العربية ويربط بينها، نجد أن هذا العنصر هو الاسلام بغير جدال.

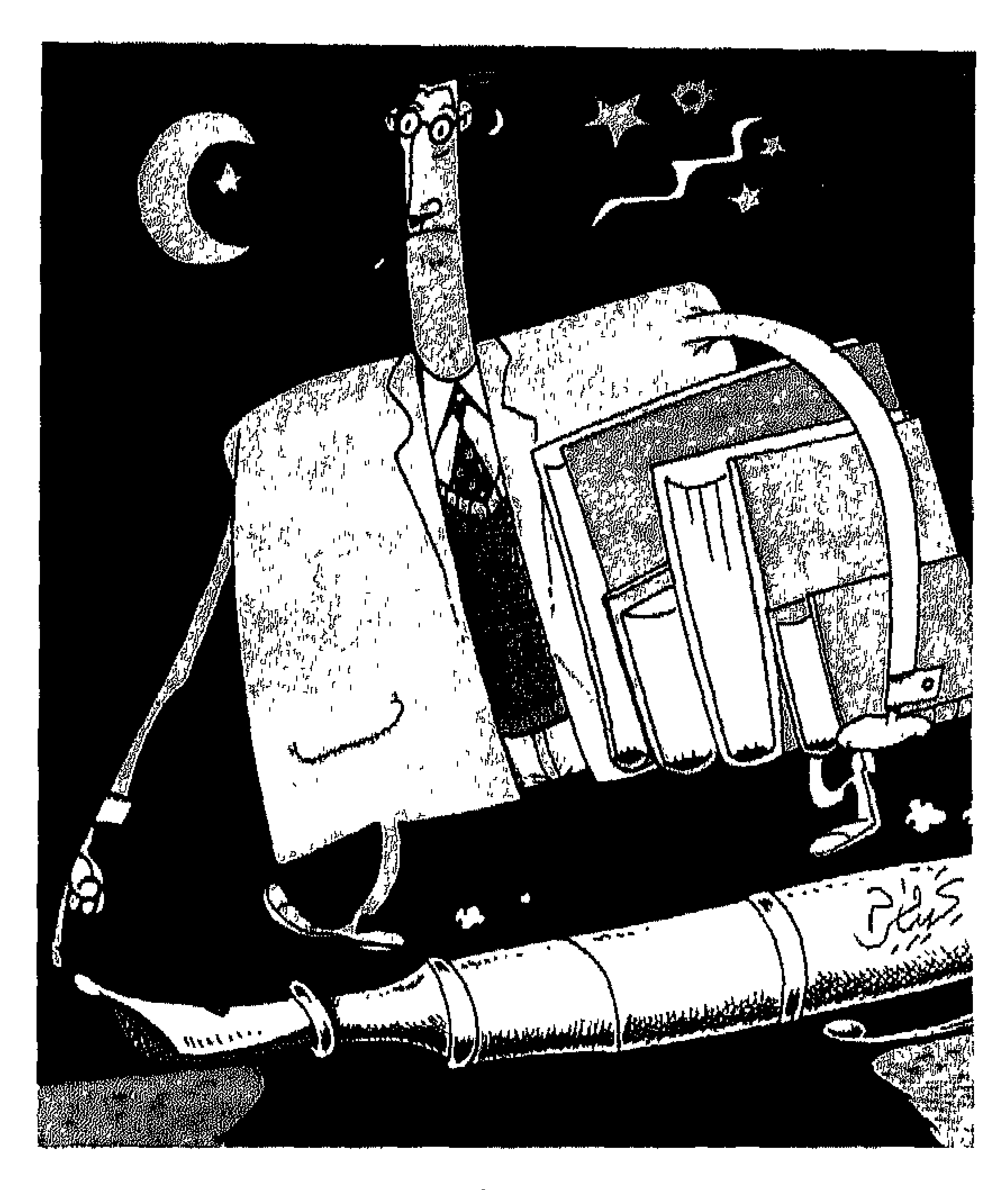
ولكن لاننا شعوب نامية، ولأن نسبة الامية في بلادنا فوق السبعين في المائة، ولأننا في مرحلة تحول وتطور سياسي واجتماعي وحضاري، نجد اننا حتى في نظرتنا إلى هذا العنصر الموحد لنا، مختلفون، بعكس الغرب مثلا حيث نجد ان نظرته إلى المسيحية واحدة. «بصرف النظر عن المذاهب

والخلافات وحتى ما بين المؤمن والملحد من تباعد». أما نحن فاننا على العكس: فريق يركز في نظرته إلى الاسلام على السلطة والطاعة وعلى العقاب بوجه عام.

وفريق يركز في نظرته على العدالة والمساواة والشورى والتسامح.

ولابد لنا من نظرة شاملة تضع كل عناصر الاسلام في اطار واحد متوازن ومتكامل. ونظرة شاملة إلى التراث والانتقاء منه والتمييز بين ما كان سببا في تطور المجتمع الاسلامي وبين ما علق به في فترات اضمحلاله وتخلفه.

***



فكرة القانون وقضية الشرعية في العالم العربي *

هذا الحديث . . استئناف لحديث سابق ، واعرف ان هذه مقدمة غير جذابة لأي حديث . ولكن ماذا نفعل وقضايانا بطيئة . . ومردود الكلام قليل . . وقد ينهل المطر فتثمر البذور وتخضر الارض ، او يستمر الجفاف فتموت البذور المنثورة وتبقى الارض قاحلة .

وقد وعدت القارئ وقتها باستئناف ذلك الحديث عن «شرعية السلطة في العالم العربي» . ولكن الاحداث تقاطعنا . . وتجبرنا على الانعطاف عن الطريق الرئيسي إلى اتجاهات جانبية . . بسبب الحفريات والمطبات التي تجعل المرور متعذرا .

وقد اعادني إلى هذا الحديث كتاب من سلسلة «عالم المعرفة» التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . . وهي ارقى سلسلة في اللغة العربية ، وتضارع ارقى سلسلة بأي لغة . . والكتاب معروف لاهل القانون - وانا خريج حقوق - وهو كتاب «فكرة القانون» بقلم القانوني الانجليزي الشهير دينيس لويد . وقد ترجمه وراجعه قانونيان عربيان : سليم الصوص ، وسليم بسيسو . . وقد سعدت بترجمته لانه صار في متناول الجميع . . اي من غير اهل القانون المتخصصين .

ونحن الذين درسنا القانون نعتقد انه كما ان الفنون والآداب والثقافة يجب ان تكون مشاعة بين كل اهل التخصصات والمهن والمواطنين الآخرين . . فكذلك يجب أن يكون الامر بالنسبة للقانون .

وليس معنى ذلك ان يعرف كل مواطن مواد القانون المدني والجنائي والتجاري

---

* العربي - العدد ٢٨٠ - مارس ١٩٨٢ .

وغيرها . . كما يعرف عبدالوهاب وأم كلثوم وفيروز . . ولكن ان يعرف «فكرة القانون»، وما هو «القانون»؟

ذلك ان الناس ـ حتى المسئولين في معظم الحالات ـ يظنون ان اي ورقة مرت بالمراحل «التشريعية» المختلفة حسب نظام كل بلد . . اي من حاكم فرد أو من مجلس قيادة او من برلمان او حتى من استفتاء شعبي . . تصبح «قانونا» جديرا بهذا الاسم الجليل . وهذا غير صحيح . .

ومن هنا يعتبر هذا الحديث مكملا للحديث عن مشكلة «الشرعية في العالم العربي»، وما خلصنا اليه من ان انعدام الشرعية في أي مجتمع ـ على اختلاف ألوان الشرعية، هو اعمق مشكلة يواجهها العالم العربي في البحث عن صيغة لحياته حاضرا ومستقبلا . ولأذكر القارئ بأن «الشرعية» قد تكون وراثية وجمهورية انتخابية أو ثورية، ولكن هناك شروط هي التي تضفي على هذه «الاشكال» تتلاءم مع كل مجتمع وتراثه، وتكوينه، وحاجته الطبيعية في الاستمرار، وفي التغيير، بما يلائم ظروفه في المرحلة التي يعيشها و«التشريع» غير «الشرعية» . . وان تشابهت الكلمتان .

فالتشريع ـ الذي هو القانون ـ لا يهمنا هنا ـ كما قلت ـ تفاصيله، ولكن يهمنا فكرته، فلا حياة لأي مجتمع بدون قانون ما . فهو موضوع يهم الجميع . وأبسط الناس وأقلهم معرفة يعيش من خلال «قوانين» دون ان يعرفها .

كما ان «القوانين» التي تحكم حياة الناس ليست كلها «مكتوبة» في مواد، كما قد يتصور الناس . ان اول «مجتمع» انساني . . بل «جماعة» انسانية، وجدت على الأرض، ما كانت ستجتمع» الا على «قانون»، او مجموعة من الاعراف والتقاليد والسلوكيات متعارف عليها . . تتبعها الاغلبية، ومن يعصها يكن خارجا عليها .

وعندما نجد أصل كلمة «الخليع» في اللغة العربية منذ الجاهلية ـ نجد ان اصلها ذلك الذي «خلعته» قبيلته عنها، وتخلت عن حمايته ازاء القبائل الاخرى . . لأنه خرج عن قيم واعراف وسلوكيات قبيلته .

ففي اكثر المجتمعات بدائية كان هناك قانون . . وبغير ذلك ما قامت مجتمعات من الاصل . حتى المجتمعات التي تؤمن بالجن والشعوذة وتعبد الشمس او النار او المطر وتقدس رئيس القبيلة . . وتعطيه الحق في مائة زوجة او في كل نساء القبيلة . . كالحال في اواسط افريقيا . .

وهذا لم يمنع ان يكون كثير من اكبر المفكرين العقلانيين من اعداء فكرة القانون ذاتها . . او في فكرة شيء من هذا . . من افلاطون صاحب الجمهورية المثالية التي هي قانون عنيف ـ الى «باكونين» و«كروبتكين» زعماء المذاهب الفوضوية في القرن التاسع عشر . . الذين بشروا باختفاء الدولة اي باختفاء القانون .

ومازالت صيحة «جان جاك روسو» تدوي في الآفاق . حين قال : ان الشر بدأ في العالم كل حين وضع اول انسان علامة على قطعة ارض وقال «هذه ملكي» ، فمنذ تلك اللحظة بدأت الحدود والقيود . وبدأت الصراعات . وولدت القوانين . وان الحل هو العودة الى الطبيعة . . حين لم يكن هناك نص مكتوب . .

وقد لعبت هذه الصيحة دورا كبيرا في قيام الثورة الفرنسية . وتأثر بها ـ ومازال ـ مفكرون كثيرون بطرق شتى . ولكن هذه الصيحة كانت «اولا» رد فعل تراكم «قوانين» ظالمة صارت سدودا في طريق تقدم البشرية . لأن هذه «العلامة» الاولى التي وضعها اول انسان على قطعة ارض وقال هذه ملكي ، تحولت عبر القرون إلى عسف امراء الاقطاع وإلى رقيق الارض . . الى آخره . وكانت «ثانيا» مستحيلة . . لأن العالم الذي تقدم بعد عصر النهضة وازدحم ، وعرف المدن الكبيرة ، والعلاقات المعقدة ، لم يكن ممكنا ان يعود إلى حياة الرعاة من جديد .

والغريب ان فكرة الغاء الدولة والغاء القانون يلتقي عندها اقصى اليسار واقصى اليمين . . فالفوضويون ـ وهو مذهب له فلسفته ، ينتمي إليه فيما اعتقد منظمات مثل «الالوية الحمراء» في ايطاليا ـ يرون ان «الدولة» هي مصدر كل شر ، لأن الدولة للاقوياء ، ولو اختفت لساد العدل . . والمحافظون المتطرفون ـ مثل رونالد ريجان ـ يرون ايضا ان الدولة هي مصدر كل شر ، وانه كلما تركت الدولة الناس وشأنهم فسوف يسود قانون آخر عكسي يؤمن به ، وهو : ان يكون البقاء للاقوى . . وان هذه هي سنة الكون ! . . ومنذ البداية كما ذكرت ، وبشكل تلقائي ، لم يجتمع ناس في جماعة الا حول «قانون» او «عرف» غير مكتوب ، له نفس وظيفة القانون .

ولكن ، منذ بداية نشوء الفكر وقيام الحضارة ، كان هناك تفريق بين قانونين يتحمس كل فريق من اهل القانون لاحدهما :

القانون الطبيعي . .

والقانون الوضعي . .

وكان طبيعيا ان يبدأ الفكر الإنساني بالانتماء الى القانون الطبيعي. فقبل رسالات السماء، وقبل العلم، كان الانسان متأثرا في كل نواحي حياته بالطبيعة. وبقوى غيبية لا يدركها.

وبالتالي لابد ان يكون هو نفسه جزءا من هذه الطبيعة.. اذن فالقانون السليم ـ مكتوبا او غير مكتوب في البداية ـ هو المستمد من الطبيعة. وغايته يجب ان تكون هي محاولة تحقيق اكبر درجة من الانسجام بينه وبين الطبيعة..

كان من حقائق الطبيعة مثلا ان البقاء للاقوى.. في الغابة كما في المجتمع البشري. فكما ان من حق الاسد الذي خلق سيدا على الحيوانات ان يأكل اي فريسة.. فمن حق اي قبيلة او جماعة قوية ان تقتل وتسلب وتسبي قبيلة او جماعة اقل منها قوة.

ومع تقدم الانسان البطيء، ادرك ان هذا ليس «عدلا» وان احدى غايات اي قانون لابد ان تكون تحقيق درجة من العدل.

ومع ذلك فقد امتدت فكرة القانون الطبيعي عبر القرون. فقد اخذ بها الاغريق ولكن من زاوية «عقلية»: فأهم دور للاغريق في الحضارة هو تقديسهم للعقل الذي ظل مؤثرا الى الآن.. وبالتالي قالوا: ان هذا الكون ـ بالتحليل العقلي ـ لابد وان له منطقا اوجده، وقوة خلقته، وقانونا يسيره.. فالانسان اذن عليه ان يتلاءم مع هذا الكون، ولكن من منطلق التحليل العقلي لا الاكتفاء بالظواهر كما فعل البدائيون. لقد حاولوا فهم ما وراء هذا العالم. ما هي «فكرته» الاساسية؟ وان القوانين التي يضعها الانسان يجب ان تحاول الاقتراب من الفكرة المثالية الكامنة وراء هذا الكون والقوانين التي تحكمه والتي يمكن معرفتها بالعقل المجرد. فالطبيعة هي امر واقع، وهي المقياس، الذي يجب استخدامه في معرفة ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي.

وتنوع العزف على هذه النغمة الاساسية ابتداء من افلاطون وارسطو الى من جاءوا بعدهما. ولكن مع عصر النهضة في اوربا لم يعد لدى الانسان سلاح واحد هو العقل المجرد، لقد ظهر العلم. ومع العلم ظهرت «التجربة». وبدأ عصر الشك الذي جسده «ديكارت»، بل وضع الشك في مقام عال حين قال: انا اشك اذن فانا موجود! اي جعل الشك معيار الوجود.

في هذا الجد الجديد ظهر النوع الثاني بعد القانون الطبيعي «وهو القانون الطبيعي».

والفكرة واضحة من الاسم: ان علينا ان نبحث ـ علميا وفكريا ـ ما هو موجود. ما هو طبيعي، ولكن ليس علينا ان نعتبره مثلا اعلى لا عن طريق الخرافة ولا عن طريق العقل المجرد. الطبيعة فيها الخير والشر. وليس صحيحا ان الانسان طيب وخير بالسليقة والاصل. فقد قتل قابيل اخاه هابيل. وبالتالي فيجب ان «يضع» الانسان قوانينه ويقلل الشر ويزيد الخير. ويعالج الادواء المولودة مع الطبيعة.

كان فرسان هذه القضية «كانت» و«لوك» و«هيوم».. وغيرهم كثيرون.

وقال «كانت» قولا شهيرا: ان هناك ما هو كائن بالفعل، وهناك «ما يجب ان يكون» وعلى الانسان ان يتدخل فيما هو كائن ليقترب به إلى ما يجب ان يكون.

ألسنا نروض الانهار التي تغرق الناس بفيضاناتها؟.. ألسنا نقاوم الامراض والاوبئة؟ اذن علينا ان نروض المجتمعات البشرية.. بالقانون «الوضعي».. وسيطر منطق القانون الوضعي ومايزال.

ولكن، كان هناك تيار وسط، لم يجد تعارضا حادا بين الطبيعي والوضعي، بل حاول ان يجعلهما متكاملين، في طلب الحياة الاحسن..

وايا كان منبع هذا التيار، ففي تقديري أن منبعه الاكبر هو الرسالات السماوية والاديان.. فالاديان تعطي «الطبيعة» ـ مادية وبشرية ـ قيمة كبيرة لانها من خلق الله. ولكل شيء حكمة، والخير والشر على السواء، اذن فهناك احترام كبير للابقاء على الصلة بين الانسان مهما بلغ علمه وعقله، وبين الطبيعة. وبالتالي فالقانون الطبيعي سيظل دائما له حكمة وله نفع وله مكان والانسلاخ عنه مستحيل.

وفي نفس الوقت نزلت الاديان باحكام تقترب وتبتعد عن القوانين، ولكن فيها قدر من القانون. بعضها وضع مجرد قيم اخلاقية، طالب بها البشر، فهي قانون ـ والفرق بين القانون والاخلاق قضية كبيرة، ليس مجالها هذا الحديث ـ ولكنها في هذا المجال قانون.. وبعضها ـ الاسلام بالذات ـ نزل بالقيم والاخلاق، ولكنه اضاف اضافة هائلة مختلفة نوعيا لا كميا، الى بند ما يعتبر قانونا، فقد نزل مقننا لاشياء كثيرة تنظم حياة الانسان بل وتنص على العقوبات، وفي مجال كالزواج والطلاق والارث مثلا ينظمها تنظيما شاملا محددا.

ومع ذلك فهو لم يلغ العقل ولم يحرم الانسان من حق التفكير والاجتهاد على ضوء نصوصه وتغيير التفكير والاجتهاد وتطويره مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان.

فهو اذن قوة كبرى في ساحة الاخذ بالقانونين معا، الطبيعي والوضعي، او الطبيعي والالهي والوضعي، وفي ساحة الاخذ بمنطلق الحث على التكامل والانسجام بينها حين يضع الناس قوانينهم مفصلة..

ولعلي أسرفت في هذه المقدمة التاريخية، التي لابد منها في تصوري، لكي نقترب من موضوع فكرة القانون كما يجب ان نفهمها في حياتنا المعاصرة. والتي ينقص مجتمعنا ادراكها والتي تكمل فكرة «الشرعية».. لأن التشريع ووضع القوانين هو ترجمة الشرعية واسلوبها في ممارسة شرعيتها.

ان ما ذكرته في الحديث السابق عن «شرعية السلطة في العالم العربي» ينطبق على هذا الحديث.

فالمعيار واحد..

السلطة حقيقة موجودة. وتتخذ اشكالا شتى.

ولكن شرعيتها ليست في مجرد وجودها فهذا معيار شكلي. والاقتصار عليه يؤدي إلى المهالك. لأنه يؤدي إلى الانفصام بين المجتمع والسلطة التي يفترض انها تمثله.

والتعريف المأخوذ به في كتب العلوم السياسية هو ان شرعية السلطة توجد «اذا كانت السلطة تمثل الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام بنسبة كبيرة، تشارف الاغلبية، في المجتمع».

فهو ـ كما نرى ـ معيار موضوعي، لا شكلي..

الشكليات ليست الاساس

دستور غير ملائم لهذه الشروط، برلمان لا يمثل هذه الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام.. وزارة منتخبة من هذا البرلمان، كل هذا لا يوجد الشرعية.

فما أسهل فرض الدساتير، وتزوير الانتخابات وتزوير الاستفتاءات فالشكل شرعي ولكن الجوهر غير شرعي.

نفس الشيء ينطبق على القانون. وهذه هي «فكرة القانون».

لابد ـ في فهمي وقناعتي ـ ان يكون القانون فيه جزء نابع من «طبيعة» المجتمع.. كما ينبع الماء من مصدر طبيعي. لابد ان يكون جزءا من الطبيعة البشرية لمجتمع ما، كالماء الذي هو جزء من الطبيعة الجيولوجية. فكل مجتمع له «جيولوجيا» في

تراثه وبيئته وتاريخه وتكوينه النفسي وقيمه السلوكية والدينية والاخلاقية.

ولابد ان يكون القانون فيه جزء وضعي «ولكنه لابد ان يكون وضعيا بالشروط والتعبيرات السابقة» معبرا عن الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام للنسبة الغالبة في المجتمع لان الاجماع شبه مستحيل. حتى في «الشرعية الثورية» التي تأتي لتحطم شرعية وتقيم شرعية جديدة، والتي تستهدف تغيير المجتمع لابد لكي تنجح ان تكون رد فعل لمشاكل حقيقية وآتية بحلول تعبر عن العقل العام والضمير العام والارادة العامة لأغلبية المجتمع.. بصرف النظر عن «شكل التعبير» الذي قد يكون ركيكا او بليغا، ولكن شرط البلاغة اساسي في «موضوعية التعبير»..

اذن؟..

فحين نتحدث عن سيادة القانون فهذا عنوان عام جميل. لكن لا يجب الاستسلام له.. مهما احيط بشكليات القوانين: من توقيعات، واقرارات، واستفتاءات، كلها جريحة ومجرحة بشكل او بآخر..

سيادة القانون هنا نكتة..

وهذا سر رد فعل الشعوب حين لا تطيع - في أغلبيتها - القوانين، وتقابلها بسلبية هائلة انها «تخضع» لها بحكم القوة لا بحكم احترام القانون. «والخضوع» على العكس يعلم الناس عصيان القانون. ولكنها لا «تطيع» الا القوانين المعبرة عن الارادة العامة والضمير العام.. يطيعها حتى المخالف لها.. ومن حقه أن يدعو الى تغييرها.. وهو يفعل ذلك سلميا.. ذلك انه يعرف انه ولو خالفها فهي تعبر عن ضمير عام وارادة عامة. ولا سبيل امامه الا ان يقنع الضمير العام والارادة العامة بأن يتغيرا.

هذه الفجوة بين «روح القانون» المتصاعدة من هذه الينابيع وبين «القوانين» النابعة من السلطة «والقوة» وحدهما.. هي الفجوة الثانية بين الشرعية واللاشرعية..

وهي السبب في الزلازل والبراكين المفاجئة.. والنهايات العنيفة.. والاخاديد التي تشقق المجتمع الواحد وتقطع سبل الحوار والتطور البناء المطرد..

وهو امر ادراكه مسألة حياتية ومصيرية للامة العربية وهي في مرحلة انتقال حضاري متلاطمة الامواج لا يعصمها من الغرق في دواماتها، الا هذه الشرعية الموضوعية بكل مستوياتها، وكافة وجوهها.



الحل والضمان: حق التفكير والتعبير!*

ضرورات هذا الحديث بالذات كثيرة.

فنحن العرب نمر بأزمة مدلهمة. ربما لم نمر بمثلها منذ نصف قرن.

وليست هذه مقارنة بين حال وحال، ولا بين زمن وزمن. فمنذ نصف قرن كانت معظم البلاد العربية محتلة، مسلوبة الارادة. وكانت معظمها فقيرة متخلفة. ثرواتها اما مجهولة، واما مملوكة للاجنبي المغتصب. وجيوشها غير موجودة، وحكامها من صنع المستعمرين في الاغلب. إلى غير ذلك مما نعرف من حال الامة العربية والشعوب الاسلامية قبل نصف قرن، اي قبل الحرب العالمية الثانية.

والآن نرى الصورة بالتأكيد غير الصورة. صحيح لقد اغتصب من ارضهم قطر عزيز هو فلسطين، واحتلت اسرائيل اراضي من ثلاث دول عربية اخرى. ولكن الدول العربية صارت مستقلة الارادة في مجموعها، لها مقومات الدول في معظم الاحوال، ولها جيوش ودبابات وطائرات، ولها ثقافة وفكر وفن وأدب، ولها ثروات ضخمة وأموال تؤثر في حياة العالم. وبعد أن كانت الكلمة تعبر ارجاءها في شهور صارت لديها من محطات الاذاعة والتليفزيون والصحف والاذاعات ووسائل التعبير ما لايقل في نسبته الى عددها السكاني عن مثله في كثير من البلاد المتحضرة.

ولسنا في حاجة إلى الاطالة. ولكن كل قارىء يعرف أن الأمة العربية بما لها من موقع وما فيها من ثروات، وما يتدافع داخلها من تيارات، صارت أحد

---

* العربي - العدد ٢٤٦ - مايو ١٩٧٩م.

أهم ما يؤرق العالم من هموم. حتى أن الناس في أي مكان في العالم اذا تلفتوا إلى مكان يمكن أن يؤدي إلى قيام حرب عالمية ثالثة. أشاروا بأصابعهم إلى شرقنا الاوسط، أو إلى عالمنا العربي.

وكان هذا وحده كفيلا بأن يضعنا أمام أخطر الامتحانات واصعبها. فالاهتمام العالمي اذا كان موضع فخر فهو يجر الى التدخل، فتحوم وحوش الغابة وجوارح الطير من كل جانب، تبحث عن مواضع للخطأ وثغرات للانقسام.

وكأن زيادة وسائل التعبير في بلادنا زادت من سوء التفاهم بينها وليس العكس.

وكأن المجلة الواحدة التي كانت تصل بين قطر وقطر، تبل الريق كقطرة الماء، كانت افعل في تفاهم شعوبنا من الضجيج الاعلامي اليومي الهائل، المتواصل، الذي يعبر آلاف الاميال في أقل من الثانية.. ولكن القضية في كلتا الحالتين، والقضية في كل العصور والقرون، تبقى واحدة.

ان حرية الرأي وفتح الباب لتعدد الفكر هو المخرج، هو المخلص، هو صمام الأمان لكل أمة وكل شعب وكل مجتمع وكل نظام..

وقهر حرية الفكر قد يكون عمل فرد. كما كان يحدث قديما في بعض العصور الخالية. وقد يكون عمل آلاف الأفراد والصحف والميكروفانات والكتب، كما يحدث احيانا في أكثر المجتمعات تقدما..

والعاقبة في كلتا الحالتين وخيمة..

وقد استوقفني هذا في مناسبتين: احداهما، كنت استرجع فيها حادثا فكرياً قديما من تراثنا. والمناسبة الثانية كنت أقرأ فيها كتابا جديدا مما اخرجته مطابع الولايات المتحدة الامريكية حديثا..

ولكنهما، على بعد الشقة، واختلاف النتائج، واختلاف نوع المجتمع تماما، يوصلاننا الى نفس الاستنتاج. وربما كان الاستنتاج الواحد من محنتين مختلفتين تماما، هو العبرة. فالعبرة الواحدة من ظروف غاية في الاختلاف، اقوى مائة مرة من عبرة تنتجها وتفرزها ظروف متشابهة..

القصة الأولى، قصة محنة احمد بن حنبل مع الخليفة المعتصم..

وبايجاز ودون خوض في التفاصيل، ثارت في اواخر عهد الخليفة المأمون قضية فكرية انقسم حولها الناس وهي: هل القرآن قديم، أو ان وجوده مرتبط بوجود الله، ام هو جديد، ام هو جديد او مخلوق، اي ان وجوده يرتبط بوقت نزوله على الرسول.

وبايجاز ودون خوض في التفاصيل، ثارت في اواخر عهد الخليفة المأمون قضية فكرية انقسم حولها الناس وهي: هل القرآن قديم، او ان وجوده مرتبط بوجود الله، أم هو جديد أو مخلوق، أي ان وجوده يرتبط بوقت نزوله على الرسول.

وقد تبدو لنا القضية لو طرحت اليوم غير ذات موضوع. ولا يمس الرأي فيها صدق ايمان احد. ولكنها وقتذاك تحولت من جدل فلسفي الى شيء آخر تماما حين اعتنق الخليفة الحاكم رأيا من الرأيين. فبدأت المحنة الكبرى تلاحق من لا يرى رأي الخليفة. وكالعادة كان المثقفون هم من تعرضوا للمحنة. فهم في ذلك الوقت الفقهاء والعلماء والقضاة. فأرسل المأمون إلى وزيره وحاكم العاصمة بغداد اسحق ابن ابراهيم يطلب منه امتحان القضاة والفقهاء، قائلا له ان من يخالفون الخليفة في الرأي لابد أن يكونوا «من حشد الرعية، وسفلة العامة، وأهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه..» فكأن الحاكم قد ادانهم بالكفر مقدما لمخالفة رأيه.

وأخذ اسحق بن ابراهيم يحضر الفقهاء والقضاة ويقرأ عليهم كتاب الخليفة ـ محذرا ومنذرا ـ ثم يسألهم: هل القرآن قديم أم مخلوق. فمنهم من قال برأي الخليفة، فكان يوضع في الاصفاد، ويقيد بأثقل الاغلال، ويتعرض لشتى صنوف العذاب. فكان منهم من يعود فيعدل عن رأيه، حتى يتخلص مما هو فيه. وما هي الا كلمة يقولها والله أعلم بما بقى في ضميره. ومنهم من يثابر، ثم يستسلم.

وكان من بينهم أحد أكبر فقهاء الاسلام وهو أحمد بن حنبل.. وكان أكثرهم عنادا، فربطوه في الحديد، وألقوه بكل مقامه الجليل في السجن حتى يرى الخليفة فيه رأيه. ولكن الخليفة المأمون لم يلبث أن توفي.

وأمر المعتصم فأحضروا أحمد بن حنبل إلى مجلسه. وقد أحضروه وهو

مكبل بأغلال من الحديد، وهو الكهل، لا يطيق حملها ولا السير بها. . ويجلسونه في هذه الحال في حضرة الخليفة. . ليناقش فقهاء السلطان. فاذا أفحمهم وهزم حججهم، أخذوه مثقلا بأغلاله إلى السجن.

ويتكرر هذا يوما بعد يوم.

ولا أطيل على القراء. فقد انتهى الامر بأن أمر الخليفة آخر الامر فجردوه من ثيابه، وربطوه إلى كرسي، وانهالوا عليه بالسياط. . حيث كان يجلس يناقش. وكلما غاب عن الوعي من العذاب، افاقوه، وسألوه ان كان قد عدل عن رأيه، فيقول لا، فيعودون. .

ولما كاد يموت في مجلس الخليفة، أعادوه إلى أهله كتلة مهشمة من اللحم والدم. .

كانت السلطة في أوج عظمة الامبرطورية الاسلامية تنزلق أكثر وأكثر إلى الاستبداد. . وبالتالي إلى التداعي والانهيار. .

الملاحظة الثانية التي استوقفتني، وجعلتني أتأمل عوامل صعود وانهيار الامبراطوريات والأمم حتى وان بدت في أوج مجدها. . كانت في كتاب أمريكي، عن الولايات المتحدة الأمريكية.

الكتاب ضخم في حوالي ألف صفحة. وقد اعتبرته الصحافة الامريكية أهم كتاب صدر هذه السنة. واسمه «البحث عن التاريخ». ومؤلفه أحد أكبر الصحفيين المؤلفين في أمريكا وهو تيودور هوايت. وقد جمع فيه خلاصة متابعته للاحداث التاريخية الكبرى حيثما وقعت طوال أربعين سنة تقريبا. وقد نعود إلى جوانب أخرى من هذا المجلد الضخم في احاديث أخرى.

وقد غطى الكاتب ثلاث فقرات تاريخية عاشها حيث كان التاريخ يصنع بالفعل.

* مع الثورة الصينية «من ١٩٣٨ إلى ١٩٤٥» مزاملا ماوتسي تونج وشواين لاي. . وشيانج كاي شيك.

* اعادة بناء أوربا مع الحرب بمشروع مارشال «١٩٤٨ ـ ١٩٥٣».

* فترة التحولات الكبرى في امريكا بعد الحرب، من رئاسة ايزنهاور الى مقتل جون كنيدي «١٩٥٤ ـ ١٩٩٣».

ويهمني في هذا الحديث صفحات أراد المؤلف فيها ان يجيب على سؤال هام:

ما الذي ورط الولايات المتحدة الامريكية في حرب فيتنام؟

ما الذي جعل هذه الدولة الكبرى تحارب حربا مجنونة طيلة عشر سنوات، وتخسر نصف مليون من شبابها بين قتيل وجريح، وتخسر فوق ذلك سمعتها، وخسائر سياسية لا حصر لها، وانهيارات لمواقفها، وشك في حسن تقديرها حتى بين حلفائها..

ثم إن امريكا لديها كل وسائل حرية الرأي. وكل اسباب المعرفة ومشاركة الرأي العام. وكل أنواع المخابرات ومراكز الابحاث ووسائل الدراسة. فما الذي اعماها رغم كل هذا، وساقها معصوبة العينين الى مستنقعات فيتنام؟

يقول تيودور هوايت، في اجابة مفصلة جدا: انها «المكارثية» التي اجتاحت امريكا لبضع سنوات قليلة!

ان الخوف، مع الاسف، هو الذي يحرك احداث التاريخ، اكثر مما يحركها الامل..

وبمجرد ان انتشر الخوف في امريكا، من ان يتعرض لاتهام مكارثي له بما سمي «النشاط المعادي لامريكا» صار كل صاحب رأي، او صاحب منصب، او صاحب مسئولية، يحاول ان يتخلى عن دوره، وينزوي، ويسكت، وهو يرى الكارثة المحققة.

كانت امريكا وقتها اغنى ما تكون بخبراء الصين والشرق الاقصى. يعرفون كل شيء من اللغة والاصل والتاريخ إلى السياسة والزعماء الجدد. ولكن الارهاب الفكري الذي نشره مكارثي باتهام كل شخص في وطنيته، كان بمثابة من خلع عيني امريكا وقطع اذنيها. فصارت بالنسبة لاحداث آسيا كلها لا ترى ولا تسمع. ومضت إلى كارثة سياستها الآسيوية التي دامت بعد ذلك حوالي ربع قرن!

لقد جر مكارثي كل عقل امريكا الى لجنة التحقيق في الكونجرس. لم تكن هناك سياط كسياط المعتصم. ولكن كانت هناك سياط من نوع آخر لا يقل قسوة وهو التشهير امام الرأي العام و«اغتيال الشخصية» كما يقولون في التعبير

الانجليزي Character Assassination .

جر إلى المحرقة العامة أمام عشرات الملايين من الخبراء واساتذة الجامعة وموظفي الدولة وجنرالات الجيش والكتاب والصحفيين. وكل من قال رأيا ذات يوم في سياسة امريكا نحو الصين مخالفا لما جرى. بل وكل من قابل ولو في مهمة رسمية أحدا غير مرغوب فيه.

وقد انتهى مكارثي نهاية محزنة بفضيحة أودت به. ولكن رعشة الرعب التي صارت رمزا في كل مكان واسما يطلق وهو «المكارثية». . رعشة الرعب هذه لم تفارق أمريكا بكل ضخامتها وحرياتها سنوات طويلة.

فلما بدأ العملاق يذهب في مغامرات الخاسرة ويغرق في وحول آسيا. . لم يجسر واحد على النطق. لا الخارجية، ولا المخابرات، ولا الخبراء، ولا الكتاب، ولا اعضاء الكونجرس.

وكان الثمن نصف مليون قتيل وجريح، وربع قرن من السياسة المدمرة الفاشلة، وانفصاما داخليا في امريكا ادى الى عنف الستينيات. . من مظاهرات المدن الى اغتيالات جون كنيدي وروبرت كنيدي ومارتن لوثر كنج وغيرهم. . كل هذا مقابل سنتين او ثلاث من الارهاب الفكري العام!

ان الحكايتين اللتين رويتهما هنا، ليستا فريدتين في التاريخ. .

ولكنني قصدت أن أضع جنبا الى جنب نموذجين متباعدين تماما. . في بيئتين وعصرين مختلفين أشد الاختلاف.

ولكن اثر قفل باب الاجتهاد، والارهاب الفكري من السلطة أو من الجماهير، يصل في الحالتين إلى نفس النتائج. .

وأمتنا العربية والاسلامية في أخطر ظروفها. .

الخلاف العربي ضار فتاك. القضايا المطروحة للاختيارات وللقرارات تدور لها الرءوس. ويجوارنا في ايران تقوم جمهورية اسلامية، وهو اسم له رهبة، وله خطر، ولكن دون ان نعرف شيئا عن تفسيراتها لقضايا اختلاف الرأي ووسائل التعبير. وقد يرتبط بها هذا الاسم الخطير «الجمهورية الاسلامية» وجودا أو عدما لزمن ليس بالقصير.

ونحن فوق هذا كله نخرج من ظلمة الى نور، ومن تخلف إلى محاولة

تحضر، ومن انكفاء على الذات الى انفتاح على العالم، ومن تجاهل العالم لنا الى اهتمامه بنا، ومن بحث عن هويتنا بين الاصالة والتجديد..

فاذا لم يكن حق التعبير وحق التفكير لهما ضرورة بل وقداسة في هذه المرحلة.

واذا لم يتعلم الحكام والمحكومون هذه الكلمة الآن.. ففي أي وقت سنكون فيه أحوج اليها من وقتنا هذا في عالمنا هذا؟

***



في الانحطاط الثقافي.. داؤه ودواؤه!*

اذا كان هذا العنوان يصدم القارئ، أو يوحي اليه بتشاؤم ليس مستعدا لاستقباله. فانني اعتذر اولا، واقول له ثانيا ان الحديث ليس فيه تلك الدرجة من التشاؤم التي يوحي بها العنوان. غاية الامر انني وضعت عنوان الموضوع بشكل مباشر، دون ان احاول كما يجب البحث عن عنوان جذاب.

وقد يزول التشاؤم من ذهن القارئ إلى حد كبير، اذا قلت له مقدما ان ظاهرة الانحطاط الثقافي التي اراها، ظاهرة عالمية، ولها أسبابها العالمية واذا كان لابد ان اركز اغلب الحديث على الجانب العربي، فهذا امر طبيعي لأن ما يجب ان نعرفه ونحاول معالجته، هو المرض الذي في جسمنا قبل المرض الذي في جسم الآخرين.

والناس جميعا اذا جلسوا بعضهم الى بعض ابدوا جميعا دون استثناء سخطهم او مللهم من كل ما يعرض عليهم.. في الصحافة، في السينما، في الاذاعة والتلفزيون، او في الكتب. وهم يتساءلون: أين الكتاب؟ أين الشعراء؟.. ماذا يقول فلان وماذا يكتب علان؟ وأين نجوم السينما والمسرح الكبار؟

ولعل جزءا من أسباب انتشار «الفيديو» هو انه مكتبة من نوع جديد يمكن الناس من اقتناء اشياء قديمة لم تعد تعرض بعد. فيجدون في العودة الى ما سبق لهم ان شاهدوه متعة أكبر وغذاء أشهى.. تماما كما اذا اشتاق قارئ أي شعر جيد.. بحث عن ديوان المتنبي او عن «الشوقيات».

هل هذا صحيح؟ أم انه من طبيعة الانسان، في كل زمان ومكان، ان يقلل من قيمة الجديد والمعاصر والمتاح له بسهولة، بينما تزداد في نظره قيمة القديم المعتق،

---

* العربي ـ العدد ٢٧٤ ـ سبتمبر ١٩٨١

لانه صار نادرا ولكن ماذا ينتج منه مرة أخرى؟ . .

على اي حال، فالمؤكد ان «الشعور بالانحطاط العام» في هذه المجالات. وان هذا الشعور اذا كان خطأ او صوابا فهو شعور موجود. وهذا في حد ذاته حقيقة كافية لان نقف عندها ونتأملها.

وهذه الظاهرة، اذا نظرنا اليها من الزاوية الضيقة، قد نجد بعض الصواب في ما يقول به كثيرون من مؤرخي الفكر والفنون والثقافة العامة . . وهو ان اجيال المبدعين في هذه المجالات لا تتوالى وراء بعضها البعض في تسلسل متواصل . . ولكنها اشبه بحركة الموج في البحر . . تجد بين كل قمتين من الموج العالي، نقطة منخفضة . . كذلك اجيال المبدعين الكبار، بعد كل موجة عالية، هناك موجة منخفضة قبل ان تأتي موجة اخرى عالية . .

فاذا كنت في عصر ما ـ على سبيل المثال ـ تجد كاتبا او فنانا مثل العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم، ومحمد عبدالوهاب، وام كلثوم، وفيروز . . فلابد ان يتلو هذه الموجة العالية، انكسار في الموج، قبل ان يتلو الهبوط صعود موجة عالية جديدة.

وهناك من يضيف الى ذلك ان جيلا من القمم، من طبيعته ان يلقي ظله على الجيل التالي مباشرة فلا تتوفر له الفرصة الكاملة للنمو. تماما كالشجر الضخم الذي لا تنضج نباتات اخرى في ظله، اذ انها تحجب عنها الشمس، وتمتص منها الماء، فلا تنمو حولها الا الحشائش. فلابد ان يبعد جيل الصعود بعدا زمنيا معقولا ينحسر فيه اثره، بحيث تتاح فرصة كاملة لنبت جديد.

وقد يكون هذا التصور صحيحا. ولكنه لا يكون صحيا في تقديري الا اذا كانت كل الظروف الاخرى ثابتة غير متغيرة. اما اذا تأملنا ما هو اوسع من ذلك من ظروف واعتبارات، والعالم السريع المتغير الذي نعيش فيه، فاننا سوف نشرف هنا على مساحة شاسعة من الاسباب والمبررات المؤدية الى الانحطاط العام الذي نتحدث عنه.

وبعض هذه الاسباب مرضي، بمعني المرض الذي يحتاج الى علاج حقيقي . .

وبعض هذه الاسباب صحي، أو بتعبير أدق ان امراضه من امراض النمو كالامراض التي لابد ان يمر بها المخلوق البشري في مراحل الطفولة والصبا والمراهقة قبل ان يصل الى شباب جديد معافى، ونضج متقدم عما كان موجودا من قبل.

ولنبدأ بتأمل نموذج من «أمراض النمو» أو أهم نموذج في الواقع في مجال ما

يمكن ان يسمى «أمراض النمو» . .

لاشك أننا جميعا قد نادينا ، ودعونا ، وعملنا ، من اجل هدف نبيل من اهداف العصر ، وهو «ديمقراطية الثقافة» . .

وليس فينا الا من عاصر ، او سمع ، او قرأ ، عن صيحة طه حسين المدوية في مصر ، وانتشر صداها في كل العالم العربي حين قال : ان التعليم يجب ان يكون كالماء والهواء! ومعنى ذلك انه حق طبيعي لكل انسان مهما كان وبصرف النظر عن كل اعتبار وان كل دولة ملتزمة وبالتالي ان توفره ولو بالمجان ، لكل انسان .

واذكر وقتها ـ وكنت طالبا ـ ان هذه الصيحة اثارت حماسة الجميع . وصارت بالنسبة للبعض هدفا قوميا في مستوى هدف الاستقلال والدستور .

واذكر ان الجدل يومها ثار بشدة وعنف هائلين . .

طه حسين يرى ان العبرة بالقاعدة العريضة . وبالتالي فأول اسباب التقدم ومظاهر العدالة هو في توفير التعليم الذي هو ضروري كالماء والهواء لكل انسان .

وكان العقاد انطلاقا من ايمانه بالنخبة ، يقول : ولكن الماء اذا ترك في اي نهر يتدفق دون حساب ، فانه قد يغرق كل ما حوله ويقضي على الاخضر واليابس . وانما الاستفادة بتدفق الماء تكون بضبطه وربطه ، باقامة الجسور من حوله ، والخزانات في طريقه ، وشق الترع منه . .

وهذان القولان ، يلخصان معركة دارت عشرات السنين في مصر . حتى جاء طه حسين وزيرا للتعليم فبدأ بسرعة في مجانيات التعليم ، والتوسع في انشاء الجامعات ، وحرك موجة لم يكن ممكنا ايقافها بعد ذلك . فقد كانت موجة العصر . بصرف النظر عن ارادات الافراد وآراء المفكرين .

ولن اترافع هنا عن ضرورة وقيمة ان يكون التعليم كالهواء والماء . فهي قضية حسمت نهائيا . واذا كان فيها من عيوب فهي عيوب عدم اكتمالها . مثل ضحالة التعليم الذي يقدم للناس . وعدم كفايته حتى الآن اذ ان نسبة الامية في عالمنا العربي مازالت هي الاعلى . وان التعليم صار تلقينا سطحيا ، او مجرد تعريف بالقراءة والكتابة . فالعيب هنا في القصور عن اكمال الرسالة ، وليس في الرسالة ذاتها ، ومع ذلك فالموقف يتحسن ولا يسوء . ثم انه لا يمكن المقارنة في هذا العصر بثوراته العلمية والمعلوماتية والتكنولوجية . . بين شعب متعلم ، وشعب اغلبه غير متعلم . .

ولاشك انه كما ان دائرة التعليم قد اتسعت، فان دائرة مستوى المعيشة، المادية المعقولة قد اتسعت ايضا، وهذه اشياء ايجابية، والواجب هو المضي فيها بجدية اكثر وخطوات اسرع؟

ولكن كيف اثر هذا على الثقافة في مفهومها العام. . وكيف يساهم في انحطاطها الذي نشير اليه؟ . . وكيف ينتج عن الخير بعض الشر؟ . .

نعم، هذا ما حدث في مجالات كثيرة . .

فقد حدث أمران في وقت واحد :

الامر الاول : هو انتشار ما يسمونه وسائل الاعلام وما احب ان اسميه وسائل التثقيف العام، او هكذا يجب ان تكون . . وهذا في حد ذاته كان كافيا لان ينشر رسالته في دائرة مستوى المعيشة، المادية المعقولة قد اتسعت ايضا، وهذه اشياء ايجابية. الواجب هو المضي فيها بجدية اكثر وخطوات اسرع؟

ولكن كيف اثر هذا على الثقافة في مفهومها العام. . وكيف يساهم في انحطاطها الذي نشير اليه؟ . . وكيف ينتج عن الخير بعض الشر؟

نعم، هذا ما حدث في مجالات كثيرة . .

فقد حدث امران في وقت واحد :

الامر الاول : هو انتشار ما يسمونه وسائل الاعلام وما احب ان اسميه وسائل التثقيف العام، او هكذا يجب ان تكون . . وهذا في حد ذاته كان كافيا لان ينشر رسالته في دائرة اوسع، ولم يكن هذا ممكنا الا اذا حملته موجة اوسع من الجماهير. فامكانيات التعلم حين كان العالم في عصر المخطوطات، لا تقاس الى امكانياته حين ظهرت المطبعة الاولى، وامكانيات المطابع الاولى في اصدار الكتب لا تقاس الى امكانيات المطابع الحديثة، وظهور الصحف الاسبوعية ثم اليومية، العشرات في البداية صارت بالآلاف، والآلاف تحولت الى ملايين، والملايين تحولت الى عشرات ومئات الملايين بمجرد تقدم وسائل الطباعة وصناعة الورق، وانتشار القراءة والكتابة.

وجاء بعد ذلك ظهور الاذاعة ثم السينما ثم التلفزيون. وهذه وسائل تذهب الى البيت وتدخله وتعاشر سكانه مهما كان نائيا، ولا تنتظر حتى يذهب سكانه اليها . .

ثم انها كما تهم من نال من التعليم، فإنها تخاطب لاول مرة من لا يقرأ ولا يكتب. فهي تخاطب المتعلمين والاميين وهي اكثر تأثيرا عليهم، لانهم بحكم الامية

وانعدام التكوين الثقافي اقل مقاومة واقل مناعة لما تقدمه اذا كان نافعا او ضارا ، وهذه هي الامر الثاني .

هذه التطورات العلمية والتكنولوجية السريعة ، التقت في عالمنا بالموجة التي تحدثنا عنها من انتشار التعليم نسبيا ، ومن ارتفاع مستوى المعيشة نسبيا ، وحدث بين الامرين تفاعل كيمائي خطير .

فقد اصبحت منابر التثقيف العام الهائلة من اقدم وسائلها وهي الكتاب الى احدثها وهي التليفزيون ، محكومة باعتبارين معا :

الاعتبار الاول ان جمهورها الاكبر والاوسع صار من الجمهور الامي . او شبه المتعلم او المتعلم غير الناضج ، وهذه الوسائل لكي تعيش عليها تفضل ان يكون زبائنها بالملايين من هؤلاء على ان يكون جمهورها آلافا قليلة من المثقفين . وبالتالي انتشر الانتاج السهل الهابط المستوى ، واحيانا المنحط القائم على الجنس والجريمة والاثارة دون اي قيمة فنية ، او اجتماعية . فاذا اردت ان تصدر جريدة ذات مستوى ، فعليك ان تقنع بعشرات الآلاف من القراء . .

اما اذا اردت ان تصدر جريدة توزع الملايين . . فعليك ان تزيح من ذهنك قضايا المستوى الثقافي والفني والرسالة الثقافية العامة .

الاعتبار الثاني ، ان وسائل التثقيف العام هذه بحكم تكاثرها وتعددها صارت كالمعدة الشرهة التي مهما اعطيتها من وقود فهي تقول : هل من مزيد؟

الصحيفة صارت عدة صحف ، المجلة صارت عشرات المجلات ، الموجة الاذاعية او القناة التليفزيونية صارت موجات وقنوات وزادت ساعات ارسالها حتى كادت تغطي الاربع والعشرين ساعة في اليوم .

وكل هذا يحتاج الى انتاج . الى طعام للمعدة الشرهة .

وهكذا صارت تتلقف اي شيء يقدم اليها لكي تنشره او تذيعه ، او تملأ بساعات الارسال التليفزيوني .

لم تعد هناك اي صعوبة في النشر .

كل منا قرأ الكثير من حياة اعظم الكتاب والمفكرين والموسيقيين والصحفيين ، وكيف ان كل واحد منهم قاسى وتعب ، وربما عرف الجوع سنوات ، قبل ان يعترف به ناشر ، وان يرى اسمه على شيء منشور . ذلك ان الباب كان ضيقا بالفعل ،

وكان الدخول من هذا الباب الضيق يحتاج الى جهد حصين، والى تفوق واضح، او اضافة هامة قبل ان يلتقط صاحب الابداع انفاسه، ويمر من عنق الزجاجة . . ويتبدى عمله للجماهير «القليلة نسبيا».

وربما مات العبقري ولم يعرف الا بعد موته بسنوات . .

فان جوخ الرسام العظيم مات جوعا . . ولكن بيكاسو الذي جاء في عصر الاعلام، الواسع تكدست بين يديه مئات الملايين التي لا يعرف ما يصنع بها.

كان هذا الكفاح ماضيا وقد فات . .

الآن، يستطيع الشاب ان ينشر اول مقال يكتبه في حياته، وان يرى على شاشة التليفزيون اول رواية تخطر على باله. فالطلب في هذه السوق اكثر من العرض بكثير فالمشتري في حاجة الى شراء الثمار الناضجة مع الثمار الجافة التي تعطنت. إنه يريدها كلها . . وبالتالي فان مهمة المنتج البائع صارت في غير حاجة الى المعاناة القديمة.

هذا هو ابرز اسباب ما اسميه بالانحطاط الثقافي ولكنني في الحدود التي شرحتها، اضعه في مجال امراض النمو . . لانني لا اتصور مستقبلا للانسانية الا في ازدياد التعليم، وبعد ازدياده عددا لابد من ارتقائه نوعا. واول جيل لمسه تيار الثقافة لابد ستعقبه اجيال تعمقت فيها قيم الثقافة.

فمواجهة مرض «النمو» لن يكون برده الى الوراء. ولا بتركه يصل بصاحبه الى الموت.

ولكن مواجهته تكون بتوقعه، وبعلاجه، حتى يصل الى مرحلة النقاهة ثم الصحة الكاملة. او هذا هو المستقبل الوحيد فيما عدا الموت بالمرض.

على ان هناك امراضا اخرى، غير صحية، وتحتاج الى علاج، لانها اذا تركت تصبح امراضا مستعصية، وليست امراض النمو التي تأخذ مجرها.

واتحدث هنا عن امرين اكتفي بهما في هذا الحديث . . القضية الاولى هي انه صار لا مفر في تقديري من ان تتدخل الدولة بصفتها نائبة عن المجتمع وممثلة لمصالحه في هذا المجال. في بلاد نامية مثل بلادنا . . لابد ان تتدخل الدولة ابتداء من تحسين التعليم، بل تغيير فلسفته من مجرد تلقين الى عملية تكوين يشمل العقل والذوق ومختلف الحواس . . انتهاء الى ايجاد ورعاية للمؤسسات التي قد لا تخدم اليوم الا النخبة، ولكن لا بد من المحافظة عليها حتى تلحق بها الجماهير . .

من يوجد معاهد المسرح؟ ومعاهد الموسيقى؟ . .
ومعاهد التراث؟ والفرق التي تخرج من هذا كله؟
من يترجم لنا امهات الكتب العالمية؟ من يرعى البحوث الدقيقة المتخصصة؟
من يمكنه ان يوجد المجال لهذه الجذوة المتميزة؟ ويحوطها ويحميها من هبات الريح المتقلبة؟ غير الدولة حين تدرك انها مسئولة عن مستقبل الثقافة ومستواها تماما كمسئوليها عن زيادة الانتاج ورفع مستواه؟

وهنا نحتاج إلى ان تفرق الدولة بين ما تسميه «اجهزة الاعلام» وبين ما نسميه «اجهزة التثقيف العام» فلا تأخذ هذه الرسالة على انها مجرد دعاية لنفسها، او مباهاة بكثرة مطبوعاتها . . او بان يكون لديها مطبوعات فاخرة لمجرد انها رموز تقدم كحرصها على ان يكون لديها فنادق فاخرة . . للسياح وكبار الزوار.

والقضية الثانية، هي محاولة تخليص تدخل الدولة من العيوب التي تعلق به كثيرا، وتقتل رسالة التثقيف العام قتلا . . او «شنقا حتى الموت» كما يجئ عادة في منطوق الاحكام بالاعدام . .

ذلك هو حين يكون تدخل الدولة سياسيا بالدرجة الاولى والاخيرة. التدخل الذي هدفه استخدام الثقافة وليس خدمة الثقافة، وتحديد الابداع بمسارات معينة، بدلا من تحريره من الاسر حتى يتمكن من الانطلاق.

ان اعرق بلاد اوربا صارت حكوماتها تعين المسارح الجادة، وفرق الموسيقى القومية والابحاث والكتابات العلمية والادبية . . وبعد ان غمرتها ايضا موجة مشابهة لكل ما شرحناه من قبل مع اختلاف في المستوى وليس في النوع.

ولكن تدخلها للدعم لا للحكم، للتحرير وليس للتخدير.

بهذا ـ على الاقل ـ نجعل من ديمقراطية الثقافة حقيقة، ونجعلها علاجا للانحطاط الثقافي، وليس داء من ادوائه.

عندما يسأل الفرد نفسه في ظروف هذا العصر: ماذا يترك لابنائه؟ . . يرد قائلا: أزودهم باحسن تعليم وتكوين، ثم يشقون طريقهم من بعدي بانفسهم.

وما نريده من الدولة هو ان تسأل نفسها: ماذا تترك للاجيال المقبلة؟ ثم يكون الرد ازود شعبي باحسن تعليم وتثقيف وتوعية وتكوين . . ثم اطمئن الى ان شعبي سينهي مستقبله احسن ما يكون البناء.



○ هل ساعد الاعلام على التفاهم بين الشعوب أم العكس؟

هل زادت وسائل الاعلام الحديثة من درجة التفاهم بين الشعوب؟

كان هذا موضوع برنامج تسجيلي عرضه التليفزيون الانجليزي ـ الـ B.B.C ـ ورأيته في الصيف الماضي، اي منذ سنة، ولكنه ما يزال يعود الى ذاكرتي، في اكثر من مناسبة.

وكان صاحب البرنامج واحداً من ألمع الكتاب الصحفيين في انجلترا، والذين طافوا العالم كمراسلين، ولكنه كتب اهم مقالاته وكتبه عن الشرق العربي، وكان صديقا عزيزا، وكان اسمه دافيد هولدن، وقد مات منذ اكثر من سنة، في القاهرة برصاصة واحدة مازال سرها غامضا، وان كان اقرب التفسيرات انها المخابرات الاسرائيلية التي قتلته، لانه كان يحمل اوراقا هامة عن اوضاع الفلسطينيين تحت الاحتلال. وقد كان قادما من الضفة الغربية. وكل ما عرف هو انه قتل بعد خروجه من مطار القاهرة بساعات قليلة.

وقد وصل البرنامج التلفزيوني الممتاز، الى نتيجة هي: ان تزايد وسائل الاعلام الحديثة ـ صحافة، اذاعة، وكالات انباء، تليفزيون ـ لم تزد في التفاهم بين الشعوب، بل على العكس، فقد كانت نتيجتها من هذه الزاوية، سلبية إلى حد بعيد..

اي انها زادت من «سوء التفاهم» بين الشعوب!

وقد تبدو هذه النتيجة غريبة، بل انها غريبة فعلا..

---

* العربي ـ العدد ٢٤٩ ـ يوليو ١٩٧٩

ففي خلال نصف قرن من تاريخ الانسانية كلها، وقعت ثورة غيرت حياة الناس جذريا، وهي ثورة وسائل الاعلام الحديثة. .

ظهرت الصحافة المكتوبة، فبدلا من تناقل الناس للاخبار بالسماع من فرد الى فرد، قويت الصحافة بحيث توزع بالملايين في اليوم الواحد.

ومع التقدم العلمي، ظهرت وكالات الانباء تنقل المعلومات والاخبار من اقصى انحاء الارض الى الجريدة من جهة، وانتشر الطيران الذي صار ينقل الجريدة من مقرها الى مختلف انحاء الارض من جهة اخرى. فصار الفرد قادرا - في كل صباح - على ان يعرف كل ما وقع في العالم خلال الاربع والعشرين ساعة السابقة، مع فيض من معلومات المراسلين، وصور المصورين التي تنقل بالراديو في دقائق. ومقالات المعلقين. . الخ.

ثم ظهرت الاذاعة، وصارت كل دولة، مهما كان حجمها وقلة مواردها وبعدها عن مركز الاحداث، لها اذاعة. بل صار وجود الاذاعة احد اهم مقومات وجود اي دولة. وسبقت الاذاعة الصحف في الانباء. فهي غير مضطرة الى الانتظار حتى الصباح التالي، انما هي تقطع البرامج وتذيع النبأ الهام فور حصوله. فاذا اغتيل رئيس جمهورية في امريكا، علم المستمع في الخليج بالنبأ في نفس الوقت الذي يعلم النبأ فيه الامريكي المقيم على بعد أميال من الحادث.

ثم ظهرت اعظم خطوة في تطور وسائل الاعلام: وهي التليفزيون، وظهرت بعده الاقمار الصناعية، وهكذا صار الفرد في اي مكان، لاول مرة، يسمع ويرى بنفسه، على الهواء وفي نفس الوقت مباشرة، ما يحدث على بعد آلاف الاميال منه. . ابتداء من المعارك الحربية، الى المؤتمرات الى مباريات كرةالقدم. . تمام مثل الجالس في الملعب.

لقد قتل جون كنيدي على شاشة التليفزيون ورأى عشرات الملايين الحادث وهو يقع. وقتل بعده روبرت كنيدي امام عدسات التلفزيون كذلك. وقد كنت نزيلا في مستشفى البحرية الامريكية في اشنطن، ورأيت على الشاشة، ساعة بساعة الايام الاخيرة لحرب فيتنام، وسقوط سايجون، وطائرات الهليوكوبتر تنتشل المتصارعين على الهرب من فوق سطح السفارة الامريكية.

كنت في حجرة المستشفى الصغيرة الهادئة، ولكن التليفزيون جعلني اعيش

في قلب فيتنام في اكثر الساعات دراماتيكية .

هذا «الصندوق الصغير الذي نقل العالم الى حجرة النوم» كما يقولون كان ثورة ما بعدها ثورة ، بل انه في تأثيره على حياة العالم أقوى بكثير من أثـر كـل الحروب العالمية التي وقعت .

حقا . لقد غير التليفزيون مفاهيم مئات الملايين من الناس . وعلمهم وفتح عيونهم على العالم من حولهم . وجعل العالم قرية صغيرة . فهم يرون القطب الشمالي كما يرون خط الاستواء . ويرون المناسبات الكبرى كما يرون الحروب . إنه الثورة التي لا يظن ان هناك ثورة بعدها في دنيا الاعلام .

فلولا ان الامريكي العادي رأى حرب فيتنام على الشاشة لما تظاهر وضغط من اجل سحب ابنائه منها وانهاءالحرب . ولولا ان السود في امريكا رأوا خطباء البلاد السوداء يخطبون في الامم المتحدة وعرف ثوراتهم في افريقيا ، لما ثـاروا وطالبوا بحقوقهم في امريكا . ولولا ان المواطن في العالم الثالـث رأى عـلـى الشاشة كيف يعيش ابناء المجتمعات المتقدمة ، لما انفجرت الثورات السيـاسيـة والاجتماعية تطالب بحقها في نيل قدر من مزايا الحياة في المجتمعات المتقدمة .

كل هذا معروف ، ومسلم به . .

ولو شئنا ان نمضي في ذكر الآثار المترتبة على ظهور وسائل الاعلام الحديثة ، لوجدنا لها أثرا في كل جانب من جوانب الحياة .

ونحن نرى ان افقر دولة تستقل ، تهتم بان يكون لها اذاعة وتلفزيون ، ربمـا قبل ان يكون لها جيش وشرطة وادارة .

ونرى كيف ان اي ثورة او انقلاب ، لابد ان تبدأ بالاستيلاء عـلـى الاذاعـة والتلفزيون ، لانها بذلك تستولي على اخطر مراكز التوجيه . وتحتكـر اسـمـاع الناس وابصارهم وعقولهم .

ولكننا نعرض هنا لجانب واحد من جوانب تأثير وسائل الاعلام الحديثـة : هل زادت ـ كما يتوقع ـ من التفاهم بين الشعوب؟

لاشك انها زادت من «معلومات» الشعوب الى حد بعيد . .

ففي الماضي ، كان الناس ينتظرون ربما بالقرون ، حتى يأتي «صحفي» عظيم ، مثل «ابن بطوطة» الذي كان فعلا ومايزال أعظم «صحفي» أو «مـراسـل» فـي

التاريخ العربي كله. فقد جشم نفسه ان يترك بلاده في شمال افريقيا، ويقضي خمسة وعشرين عاما متوالية، سائحا فيها عبر العالم الاسلامي كله، في افريقيا ثم في آسيا، ثم يذهب الى الهند، ثم جزر المحيط الهندي، ثم يصل الى الصين، رغم انعدام سبل المواصلات، الا الدواب والقوارب الصغيرة، ويسجل كل رحلته هذه، مصورا حياة الشعوب من شتى جوانبها، في كتاب يظل هو مرجع الناس عن هذه البلاد قرونا طويلة.

ومع ذلك، فلم تخل كتابات «ابن بطوطة» وامثاله مما يفعله الصحفيون حتى الآن، في البحث عن العجائب والغرائب، من الوقوع في الخطأ نتيجة لذلك.

يروي ابن بطوطة ـ مثلا ـ عن زيارته للجزر الواقعة بين سيلان واندونيسيا فيقول «في بعض تلك الجزر رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها، ولها ابنتان احداهما كمثلها ذات ثدي واحد، والاخرى ذات ثديين، الا ان احدهما كبير فيه اللبن والثاني صغير لا لبن فيه، فعجبت من شأنهن».

لاشك ان ابن بطولة لا يعرف امرأة ذات ثدي واحد. ولكنه اما التبس عليه الامر بسبب ثياب غريبة عنه. واما اعتمد رواية احد الناس، في عصر كانت تنتشر فيه قصص العجائب والخرافات بحرية اكبر.

هكذا كان يعيش العالم ويتلقى معلوماته، ولكن المؤكد ان كتب الرحالة كانت اقرب الى الصدق او حسن النية على الاقل. فالكتابة من هذا النوع كانت عملا فرديا، وغير خاضعة لرقابة! ونادرا ما تكون فيها رغبة مسبقة في التحيز!

ولكن، ماذا حدث مع الاعلام الحديث؟

ان من السهل ملاحظة ان الحروب قد زادت عددا. وان تورط دول كبرى في مأزق بناء على تصورات خاطئة قد تفاقم، والخلافات بين الشعوب اعنف، والمظالم اكثر.

ولاشك ان هذا كله له اسباب عديدة. ولكنني اعتقد ان الاعلام بوسائله الحديثة الجبارة، كان له دور في هذا التفاقم، بدلا من ان يكون مصدرا اكثر للفهم والتفاهم.

ولهذا اسباب كثيرة، ولكن الاسباب الرئيسية، في تقديري التي ادت الى هذه المردودات السلبية هي: المنافسة الشديدة على سرعة نقل الخبر، والمنافسة

التجارية وبالتالي ازدياد الرغبة في الاكثار من الغرائب. ووقوع هذه الوسائل الاعلامية في ايدي «السلطة» بكل انواعها. . سلطة المال، او سلطة الحكم، او سلطة النخبة، ثم اتخاذ هذه الوسائل الاعلامية سلاحا اساسيا من اسلحة الصراع بين الدول.

ان السرعة جزء اساسي من صميم حركة التقدم العلمي، او لعله ليس من الخطأ ان نقول ان السرعة جزء عضوي من حركة التقدم الحديثة في كل الميادين، حتى صار احد عناوين الحضارة الحديثة ومقاييسها ان نرى الناس في الطريق يلهثون. انه السباق في كل شيء. كما انهم يتنافسون في الرياضة على من يكسر رقم السرعة بثوان قليلة، وماذا ينفقون في سبيل هذا من مال وجهد وتدريب. فهو نفس الرمز في كل شيء. المطلوب دائما، وما يقدم لنا على انه أخبار «التقدم» دائما، هو السرعة، سيارات أسرع، طائرات اسرع، حروب اسرع. تحولات اجتماعية اسرع، والاعلام يأتي في المقدمة، تتميز وكالة الانباء عن زميلاتها بانها اذاعت النبأ دقيقة واحدة قبل غيرها.

والسرعة في هذا المجال قد تكون مطلوبة. ولكنها تقترن بالتأكيد بزيادة احتمال الخطأ، وبالتسرع، وبالسطحية.

ذلك ان سباق السرعة بين اجهزة الاعلام ليس في الخبر وحده، انه في الرأي والتحليل والصورة وكل شيء.

وهكذا رأينا المراسل الاجنبي تماما الذي يصل من أمريكا مثلا، وبعد يومين نقرأ رسالة له في جريدته يتحدث فيها عن أعمق قضايا مجتمع لم يعرفه الا لمدة ثلاثين أو أربعين ساعة. والامر هنا يتوقف على انطباعاته السريعة، وعلى مصادفات الناس الذين يراهم بسرعة، وأساسا على أفكاره المسبقة ومع ذلك فان كلماته المطبوعة لها وقع. ويقرأها الملايين على أنها الحقيقة الآتية من ساحة الاحداث مباشرة.

ولو أخذنا آخر مثل عن حدث كبير مثل ثورة ايران، ونرى كيف كتبت الصحف الاجنبية عنها أول الأمر. والزوايا التي التقطت منها الصور، وكيف كان رأيها يتغير كل يوم. وكيف اكتشفوا ان هناك شيئا اسمه الاسلام، ومع ذلك أخذوه بظواهر الامور، لأن المطلوب هو من يكتب أسرع، ولو على

حساب الحقيقة، فكل ما يحدث من اجتهادات انسانية هو عندهم اسلام، وكل صورة لفقراء ايران هي صورة «مسلمين»، وهكذا.

قبل حرب اكتوبر ١٩٧٣ بقليل، جاء الى القاهرة لاول مرة في حياته أحد أكبر المعلقين الامريكيين، هو جوزيف كرافت، وجاء إلى مكتبي قبل مرور ٢٤ ساعة على وصوله. وكان مع ذلك قد كتب وارسل مقالته الاولى عن القاهرة! وسألته ماذا كتب بهذه السرعة قال: لقد وجدت القاهرة تعيش وتضج بالحياة ولا أحد مهتم بالحرب أو بمشكلة احتلال اسرائيل للقناة. قلت له: كيف؟.. قال: انظر دور السينما مكتظة، الاندية وحمامات السباحة ملآنة، المتاجر والمحلات عامرة بالمشترين.

وقاطعته قائلا: وماذا تظن عن أي بلد في حالة حرب؟ هل تتوقف عجلة الحياة فيها؟ هل يقف الناس طوابير مسلحة في الشوارع: ان صاحب الدكان لابد ان يفتح دكانه مع الصباح.

والموظف لابد أن يذهب إلى عمله. والزبائن لابد ان تشتري حوائجها. هل اذا رأيتني مع اطفالي يوم الاجازة في النادي، فمعنى ذلك انني غير مكترث للاحتلال الاسرائيلي؟ ولكنك لو عاشرت المجتمع في مصر وأي بلد عربي، فستجد انه لا يجتمع اثنان او ثلاثة، حتى في كباريه، الا انتهى حديثهم عند مشكلة اسرائيل والاحتلال!

وقال لي انه لم يتح له، بعد الحديث مع مصريين..

وكان مسافرا في اليوم التالي!

ويقترن بعنصر السرعة والسبق، الذي هو جزء من عملية الاعلام، عنصر البحث عن الغرابة، والمفارقة..

فالمنافسة بين وسائل الاعلام شديدة. وكلما كبر حجم مؤسساتها زادت نفقاتها الهائلة، واحتاجت الى مزيد من التوزيع. وهنا نجد قاعدة ان «الجنس والجريمة والعنف والمفارقة» هي دستور وسائل الاعلام الكبرى، التي تسمى «جماهيرية».

كل صحفي يريد ان يجد المرأة ذات الثدي الواحد، فهذا هو الخبر، وهذا هو السبق، حتى ولو كان هذا على حساب الحقيقة!

ويأتي بعد ذلك أهم سبب جعل وسائل الاعلام مصدرا من مصادر «سوء التفاهم» بين الشعوب وليس العكس، وهو: وقوع الاعلام في يد السلطة . .

والسلطة هنا قد تكون سلطة الحكم اي الدولة، وقد تكون سلطة المال، وقد تكون سلطة «النخبة» بأي شكل من الاشكال.

وبالنسبة لحالات تأثر الاعلام بسلطة الحكم والدولة، فانها معروفة وواضحة، وغير محتاجة إلى شرح. فالسلطة بوجه عام وفي كل النظم ادركت الخطورة الكبرى للدور الذي يلعبه الاعلام في تشكيل الرأي العام. والرأي العام هو السيد في بعض الحالات، ولكنه حتى في أضعف حالاته فانه يظل عنصرا مهما لم يعد ممكنا لاي حاكم ان يتجاهله، فهو حتى في أضعف حالاته، تنطبق عليه كلمة «إن ضغط الرأي العام مثل ضغط الهواء: تحسه ولا تراه».

وفي الحالات التي لا تبدو فيها يد السلطة واضحة، أو مباشرة، على الاعلام. . نجد أنها تستعين بوسائل اخرى: اما لقلة أصحاب المال، وإما النخبة أصحاب الخبرة.

فقد صارت أجهزة الاعلام أضخم من أن يقوم بها فرد عادي من الناس أو حتى حزب بأكمله، لانه يتكلف الملايين. بل ومئات الملايين. والثلاث شركات الكبرى للتلفزيون في أمريكا مثلا، كانت أضخم الشركات على الاطلاق. وسطوتها المسلطة على الناس حوالي عشرين ساعة في اليوم سطوة هائلة. والزعيم السياسي إذا اراد أن يتكلم فيها فانه يدفع عشرات آلاف الدولارات للدقيقة الواحدة. وأي شركة صابون أو معجون أسنان اقوى اعلاميا من أي حزب باكمله! ونفس الشيء في الصحافة الكبرى. .

وحين تتجه هذه القوى الى التضليل، فان مفعولها لا يقاوم، الا اذا كشفته أحداث كبرى وبعد سنوات. وسأضرب مثلا على ذلك، من أقوى وأغنى مجتمع، وهو الولايات المتحدة الامريكية. .

لقد مات منذ سنوات قليلة أحد أقوى الرجال الذين عرفتهم الصحافة في العالم.

انه هنري لوس. . وهو الذي أسس وامتلك مجلات «تايم» و«لايف» و «فروتشن».

ومجلة «تايم» ـ حتى الآن ـ يمكن القول بسهولة انها اقوى مجلة على مستوى

العالم كله وليس امريكا فقط . فهي توزع الملايين . وتوزع في انحاء العالم كله . ويقرؤها الجمهور ، كما تقرؤها النخبة من رجال السياسة والمال والاقتصاد ، وكل حاكم أو صاحب سلطة في اتخاذ القرارات في العالم من امريكا . . الى نيبال!

وقد اصدر الكاتب الامريكي المشهور «تيودور هوايت» كتابا عن حياته الصحفية ، وقد بدأها مراسلا لمجلة تايم في الصين في اوائل الاربعينيات ـ سنوات الصراع الاخير بين ماوتسي تونج وشيانج كاي تشيك ـ وصديقا مقربا لهنري لوس حتى وفاته .

ويروي تيودور هوايت استقالته من مجلة «تايم» رغم صداقته لهنري لوس . وكان هنري لوس قد ولد في الصين ، اذ كان ابوه مبشرا للمسيحية هناك ، فتكون لديه رأي ثابت منذ العشرينيات ، رغم تحول الظروف .

يقول تيودور هوايت في وصف دقيق لواحد ممن يسمون «ملوك الصحافة» :

«كان هنري لوس رجلا فذا . انه احد أكبر عمالقة الصحافة الامريكية في تاريخها كله . ولن نفهم شخصية لوس وعقليته الا اذا اخذناه كدراسة عن «القوة» ـ قوة الصحافة . وبالتالي احساسه بالقوة الهائلة المطلقة في التأثير على الاحداث .

«وقد كان لوس مدركا هذه القوة التي في يده . في أيام مجده صنع رجالا وحطم رجالا ، رفع ناسا مجهولين إلى أوج الشهرة ، ودمر مشهورين وحملهم الى زوايا النسيان . كان فهمه للصحافة هو : ان مراسليه في كان مكان عليهم ان يبعثوا اليه بكل ما يعرفون ، بكل ما لديهم من معلومات وآراء وحقائق ، وكان يعرف قيمة ذلك للقارئ . ولكن في مقر قيادته في نيويورك ، كان مديرو التحرير يحولون كل هذه المعلومات الى ما يخدم آراءه واتجاهاته الشخصية . كان يفهم انه صاحب المجلة ورئيسها ، ولا أحد سواه . وبالتالي فقد كان أسخى رجل مع من يرسلون له الأخبار . ولكن المراسل ينتهي دوره عند هذا الحد . وليس من حقه أن يتدخل في طريقة تقديم هذه الاخبار للقارئ .

«من حقه ان يتلقى أحسن «الخامات» ، ومن حقه بعد ذلك أن يطبخها كما يشاء!

«حرية الصحافة عنده: ان مراسله حر في ارسال ما يريد، وهو حر في نشر ما يريد وكما يريد!

«وكانت قصتي مع لوس حول الصين. فبحكم تكوينه وتفكيره قرر للمجلة ان تتبنى شيانج كاي شيك تماما، وكنت انا في الصين ارى ان ما يحدث هو غير ذلك، وارسل الرسائل المسهبة، واجد رسائل منشورة، ولكن بشكل واسلوب واستنتاجات تخالف تماما ما كتبت وما اريده ان يصل للقارئ الامريكي.

«لقد ساهم لوس باكبر قسط في دفع سياسة امريكا في الشرق الاقصى في الاتجاه الخاطئ.. وكانت النتيجة ان احتاجت امريكا الى ثلاثين سنة اخرى، والدخول في عدة حروب، وفقد آلاف الارواح، قبل ان تعرف طريق العودة إلى آسيا، ومن خلال الصين بالذات.».

هذه نظرة، من ثقب الباب، على نوع النفوذ الذي يمارس في أكبر مجلة في العالم، وفي امريكا التي تتباهى بشدة الحرية فيها.

وتلك هي نوع السطوة التي اتحدث عنها. والسلطة التي قد تكون الدولة أو المال أو النخبة.. المهم هو «المؤسسة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية» الحاكمة. وقدرتها على تلوين مشاعر الرأي العام.

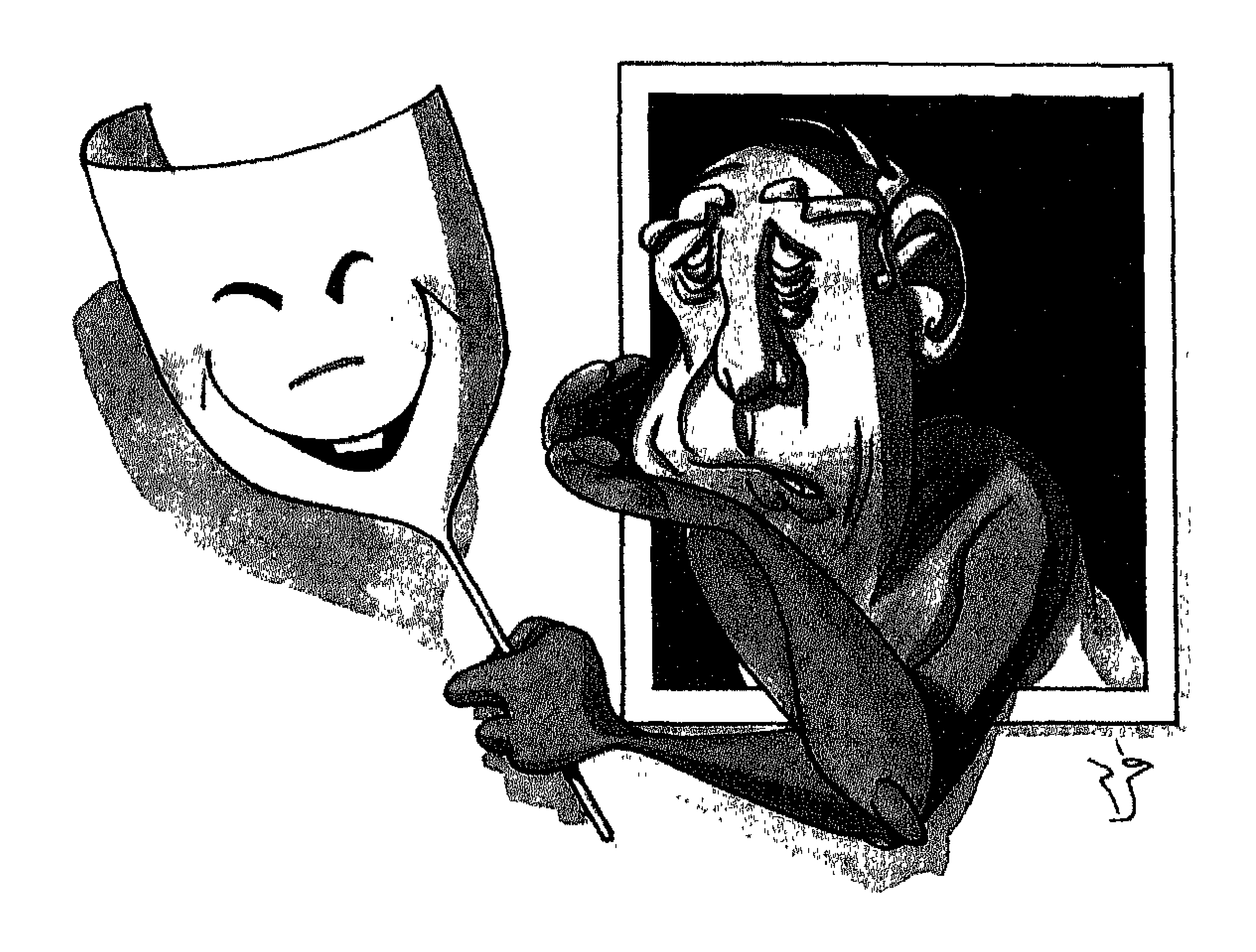
ويأتي في أعقاب ذلك، بالبداهة، ما ذكرته من استخدام الاعلام في المعارك الدولية: فنفس القدرة على تلوين الاتجاهات الداخلية قادرة على تلوين اتجاهات شعب نحو شعوب اخرى، كوسيلة من وسائل الصراع بين السلطة في اكثر من بلد. حتى ولو كانت الشعوب لا مصلحة لها في هذا الصراع.. فالاعلام قادر على خلق موجباته، ومبرراته.

اذن؟

ان قوة الاعلام تزيد، وسوء استخدامه في العصر الحديث يتفاقم. وقد تنبه العالم الى ذلك، ففي الشهور الماضية فقط دعيت الى عدة مؤتمرات - من اليونسكو إلى الامم المتحدة الى الجامعات - تبحث كلها هذه القضية.

ان المطلوب هو ان يكون للاعلام حصانة، وان يكون له ضمير! كيف يكون ذلك؟

تلك قصة اخرى!



عقل جبار..
وضمير قلق..*

سعيد هو المفكر، او الكاتب، الذي يحظى «باليقين»!..

ذلك الذي يستقر عقله بسرعة، عند نظرية او عقيدة ما، وتسكن نفسه في تفسير محدد للحياة: التاريخ والمجتمع والانسان، ومنطق متكامل للماضي والحاضر والمستقبل، سعيد هذا الرجل، فيلسوفا كان أو مفكرا أو كاتبا أو زعيما أو فردا عاديا.

انه كالسفينة التي تجد المرفأ الهادئ.

قد ينال المجد أو يصل إلى اقصى درجات النفوذ، أو يقضي عمره في السجن، او مشردا في العراء، ولكنه، أيا كان موضعه، يكون في سلام كامل مع نفسه، فاعتقاده بأنه يمتلك «الحقيقة» لا يتزعزع. وهذا يعطيه قوة من نوع خاص، وراحة من نوع خاص.

ومن هذه «الخامات» نجد نوعا خاصا من الرجال، زعيما لا يعدل عن طريقه قط ولو دمر قارة بأكملها مثل هتلر، او مفكرا ولو تصارع الناس حول فكره أكثر من مائة سنة مثل كارل ماركس، أو حاكما حديدي الارادة ازاء اكبر الاهوال، قادرا على اتخاذ قرارات فيها حياة الملايين وموت الملايين مثل ستالين.

على ان هناك نسيجا آخر، يصنع منه فرع آخر من الرجال. قد يتمتع احدهم بعبقرية طاغية وقدرة عقلية فائضة. ولكنهم يولدون بأرواح قلقة، وعقول هائمة على وجهها لانهم متقلبون، مترددون، متغيرون. يشقيهم البحث عن الحقيقة وتؤرقهم امواج وشلالات من المعارف والتأملات، بل انهم كلما ازدادوا في

---

* العربي - العدد ٢٥٧ - أبريل ١٩٨٠.

الذكاء والمعرفة والعقل الناقد ازادوا قلقا واضطرابا وارهاقا لانفسهم ولمن يقرأونهم.

هذا النوع من المفكرين، ربما يتركون في حياة العالم آثارا أقل، لانهم لا يتركون وراءهم للناس طرقا محددة مستقيمة، ممهدة، مثل طرق الاسفلت، وهي الطرق التي يفضلها معظم الناس عادة بل يتركون طرقا متعرجة متشعبة وعرة، ولأنهم يطرحون علينا من الاسئلة اكثر مما يتركون لنا من اجوبة حاسمة قاطعة.

ولكنني اعترف بان هذا النوع من المفكرين والكتاب أقرب إلى قلبي. وأحب إلى نفسي لانني - ربما - اشعر بمعاناتهم في البحث عن الحقيقة. واشفق على جحيمهم الداخلي او ربما لانني اراهم اكثر انسانية. أو ربما لأن أجوبتهم ان كانت ناقصة، الا ان اسئلتهم منعشة للعقل، مثيرة للضمير، منشطة القلب.

من هذا النوع الثاني برتراند رسل، الذي عادت الدنيا تنشغل به - مدحا وقدحا - بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته.

ذلك العقل الجبار الذي عاش ما يقرب من قرن كامل «٩٨ سنة بالضبط». فكان شاهد قرن كامل. وناقد قرن كامل. وثائر قرن كامل. واي قرن؟.. قرن ولا كل القرون. قرن حفل بأحداث تفوق كثافتها وسرعتها وتحولاتها عشرة قرون مما سبقها.

والغريب انه - بعقله الجبار - صنع مجده، ووصل إلى القمة الصعبة التي ادخلته التاريخ في سن مبكرة جدا. وفي مجالات بالغة الخصوصية والصعوبة. في ساحة الفلسفة والحساب والرياضيات صعد الى القمة الوعرة بسرعة هائلة. ونال اعتراف العالم كله، وتم تتويجه ما بين سن الخامسة والعشرين وقبل ان بلغ الأربعين من العمر «اهم كتبه الراسخة الى اليوم» «أسس المنطق الرياضي» سنة ١٨٩٧، «مبادئ الرياضة» سنة ١٩٠٣، «مبادئ الرياضيات» سنة ١٩١٠ و«مشاكل الفلسفة» سنة ١٩١١».

وقد كان يمكنه - بل والمفترض بداهة - ان يعتصم بقمته الشامخة. وبعالمية مكانته. ولا يقبل بعد ذلك اكثر من تلقي الأوسمة والجوائز واكاليل الغار وصلوات التلاميذ.

من ناحية «الامن» ولد من سلالة اللوردات لاينقصه مال ولا لقب ولا مكانة اجتماعية . . ومن ناحية الفكر، صكت صورته على الميداليات التذكارية .

ولكنه عاش بعد ذلك اكثر من خمسين سنة . ولم يتردد في النزول عن قمته ليخوض غمار كل شيء يفكر فيه الناس ويشغل الدنيا . فهو يهدر بعشرات الكتب ومئات الدراسات في السياسة والفن والادب والاجتماع والحب والزواج، رائحا غاديا بين اعلى قضايا الفكر المجرد وبين ادق خصوصيات الحياة الانسانية .

ولم يقف عند الفكر والتأليف . بل انه قاد المظاهرات، ودخل السجون . وناقش الشباب بعد ان جاوز التسعين، وخاطب اقوى رجال الدنيا، كما خاطب الجماهير عند نواصي الشوارع وفي الميادين . وتلقي جوائز نوبل وغيرها كما تلقى ضربات رجال البوليس، وكان يوما اعظم الرجال واحبهم، وكان يوما طريد العدالة ومرفوضا من وطنه «انجلترا» .

وقد كانت واء هذا كله، صفتان :

الأولى تلك الروح القلقة . والعقل النافذ إلى اعماق ابعد مما يجب . والنظرة التي لا ترى شجرة واحدة وتعتبرها شجرة الحقيقة الاولى والاخيرة بل ترى الغابة كلها . بأجمل زهورها ولا نهائية احراشها . . بأرق طيورها الملونة واكثر وحوشها وحشية . والحقيقة ليست شجرة واحدة .

والثانية، احساس حقيقي بانتماء الى العصر، والناس، والمصير . تلك الكلمة التي اشتهرت بعد الحرب العالمية الثانية في دنيا الفكر والأدب، وروج لها جان بول سارتر واقرانه، كلمة «الالتزام» . لم تكن كلمة «الالتزام» بالنسبة له وجهة نظر، ولا مدرسة ادبية، أو فكرية ولا ترجمتها عنده مقصورة على ما يكتب، ولو كان في برج مشيد، بل كان الالتزام حقيقة يعيشها ويتنفسها، ويمارسها، ملقيا وراء ظهره لقب العائلة الموروث، وماله الوفير، ووقارها المرسوم، وملقيا وراءظهره ايضا بتيجان الجد العلمي، والشموخ العقلي، سائرا في طرق وعرة، يتعثر فيها، وينكفئ وينهض، وينفضح ويشهر به، وتدمر حياته أكثر من مرة .

عقل جبار وضمير مؤرق، عاش قرنا، وكان شاهد قرن كامل . وثائر قرن

كامل .

. . . ومرآة قرن كامل . . !

لقد ولد برتراند رسل سنة ١٨٧٢ ومات ١٩٧٠ .

ولد واجداده من الأب والأم لوردات انجليز . وولد قبل ان تموت الملكة فيكتوريا بثلاثين سنة . واذا كان العصر الفيكتوري احد قمم مراحل الاستقرار والثبات في العالم ، وانجلترا سيدة الدنيا والتي لا تغرب عن ممتلكاتها الشمس ، واذا كان ابن لوردات ذلك البلد في ذلك العصر في تلك الدنيا ، فقد ولد اذن في امنع قلاع العالم واكثرها شموخا وثباتا واستقرارا ، من العلاقات الدولية ، إلى العلاقات الاجتماعية ، إلى طراز الملابس والاثاث ، عصر التقاليد الراسخة بسطوتها المطلقة ، وقيمها غير القابلة للتحدي .

ولكنه لم يبق في هذه القلعة ، حتى بعد ان صعد إلى اعلى ابراجها على سلم المجد الفكري ، فقد عاش طويلا . عاش ٩٨ سنة كاملة . رأى فيها حربين عالميتين . ورأى فيها انهيار امبراطوريات ، وتغير خريطة العالم عدة مرات ، وعشرات الثورات وبزوغ قوى اخرى تماما . . سواء امريكا أو روسيا ، أو صيحات ملايين العالم الثالث . وعاش اكتشاف اينشتين لنظرية النسبية . وصعود النازية ودمارها في حريق عالمي هائل ، وقيام الشيوعية وتعاظم الرأسمالية . عاش الثورة الصناعية والثورة ما بعد الصناعية والثورة الالكترونية . وعاش ظهور القنبلة الذرية ونزول الانسان على القمر . وكان جزءا من هذا كله ، منفعلا بهذا كله ، فاعلا في هذا كله ، ضائعا في هذا كله .

ومن المستحيل طبعا ، الالمام بمشاغل برتراند رسل ـ كتبه وحدها حوالي ستين كتابا ـ من الرياضيات والفلسفة إلى قضايا الحب والزواج . ولكني يكفي أن نعرض في ايجاز إلى حياته بصدد قضيتين ، هما اللتان اخرجتاه من برجه العاجي ، الارستقراطي ، حسبما ونسبا وعلما وفكرا ، إلى قارعة الطريق .

* قضية الحرب والسلام .

*قضية الجنس ، والحب والزواج . .

بالنسبة لقضية الحرب والسلام ـ مثلا ـ يجمع من كتبوا عن برتراند رسل ان الحرب العالمية الأولى كانت هي نقطة التحول في حياته . هي التي نزعته من

قمته. وكأنه رأى فيها قبل غيره نهاية العالم القديم وبداية عالم جديد ومخاضا رهيبا حافلا بالتدمير والبناء.. من الممالك إلى القيم والاخلاق.

فقد فوجئ الناس بهذا العالم المفكر الجليل، والأستاذ العالمي السمعة في جامعة كمبردج، والذي يكتب مؤلفات لا يفهمها الا مئات.. فوجئوا به يصدر كتيبا صغيرا يعارض فيه الحرب العالمية الأولى. ويعارض الاشتراك فيها.. ويدعو الشباب إلى التمرد!

وكان هذا حدثا لا سابق له.

وثابر على الشغب حتى لم يعد هناك مفر من محاكمته، فقدم للمحاكمة بتهمة شائنة تشبه الخيانة الوطنية، وحكم عليه بالغرامة لمكانته، ولكن كليته في جامعة كمبردج جردته من ألقابه ومنصبه وطردته، فلم يعد إليها الا بعد حرب عالمية اخرى وما يقرب من نصف قرن!

ولم يؤثر هذا في موقفه ولا رفض المجتمع له، وخصوصا بيئته واهله، فاضطرت الدولة لمحاكمته من جديد. وهذه المرة صدر عليه الحكم بالسجن ستة شهور. ودخل اكبر مفكري عصره السجن، ولم يخرج منه الا قبل نهاية الحرب بشهرين.

كانوا يرونه المجنون في عالم عاقل. ولكنه يرى نفسه العاقل في عالم مجنون، يحارب حربا عالمية عقيما يحدث فيها زهرة شباب اوربا ـ مركز الكون ـ بالملايين دون نتيجة تذكر.

ووجد نفسه بلا عمل، متمردا على الفكر والتعليم والذي يقود الدنيا إلى هذه المهالك، فأنشأ مع زوجته مدرسة خاصة كان دستورها «حرية الفكر، حرية التعبير، حرية الحب!». لم تلبث ان صارت في نظر المجتمع الانجليزي مدرسة للخطيئة، ولطخت الصحف سمعته هو وزوجته وكل من التحق بمدرسته، وكظمت الارستقراطية المترفة غيظها حين مات اخوه، فورث هو لقب «الايرل» وصارت زوجته «كونتيس».

ولم يكن ما يدرس في المدرسة فسقا بالطبع، ولكن لانه كان قد اكتشف، مع قضية الحرب قضية الحب، وبنفس شهيته الهائلة للتمرد العام، كان تمرده على نمط العلاقات الخاصة.. فقد اندفع في علاقات غرامية عديدة، وانجبت

زوجته له طفلين، وأنجبت من غيره طفلين غير شرعيين، ثم انجب هو من مربية الاطفال طفلا خامسا. . فكان لابد ان ينعكس هذا الانحلال علـى سمـعـة مدرسته.

على ان المدرسة بقيت، فلم تغلق الا بعد الحرب العالمية الثانية!

وكانت زوجته تلك ـ دورا ـ مشغولة بالمدرسة، اما هو فان شهرته الفكريـة عبرت المحيطات، دون شهرته الاخلاقية، الشخصية، فقضي معظم فتـرة مـا بين الحربين، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، يدعى لتدريس فترات دراسية في جامعات مختلفة في الولايات المتحدة الامريكية، مترددا بين انجلترا وامريكا عبر المحيط.

تكررت الحرب العالمية اذن، ولم يحضر الحرب الثانية في انجلترا اذا كان في امريكا. ولكن الحرب ختمت بوضع غير متوقع، يختلف نوعيا عن نهاية الحرب العالمية الاولى.

لقد اكتشفت القنبلة الذرية والقيت اول قنبلة على هيروشيمـا. وانـتـهـت الحرب بدفن النازية ولكن بظهور صراع اكبر واضخم بين روسيـا وامـريـكـا، فالعالم اذن على ابواب حرب ثالثة ابشع بما لا يقاس مما سبقها.

وعاد صوت برتراند رسل مرتفعا بمغامراته الجديدة. .

دعا الى حكومة عالمية، فوق الامم المتحدة، كحل وحيد لعدم الحرب. واقام الدنيا واقعدها وكان هذا حلا مثاليا جدا. .

ولكن كان كل همه منع الحرب. وكانت القنبلة الذرية مازالت ملكا لامريكا فقط، ولم تتوصل روسيا إلى صنعها بعد، فدعا الى ان احسن حل للـعـالـم ـ واقل ضررا ـ هو ان تلقي امريكا فورا قنابلها الذرية على موسكو وتدمر النظام السوفييتي. بمنطق ان الانتظار حتى تملك روسيا القنبلة الذرية معناه حرب ذرية اما تدميرها قبل ذلك فمعناه منع احتمال حرب ذرية، ولو بعملية فاحـشـة ثـم يعود العالم للتفكير في حكومة عالمية!!

مازلت اذكر انني كنت مازال طالبا اتلمس طريقي الى القراءات المختلفـة، والاسماء الكبيرة، عندما نشر برتراند رسل هذا الرأي، مبرهنا عليه ـ كالعادة ـ بكل حججه العقلية الجبارة. وقلت لنفسي وقتها: هذا الرجل مجنون!. وبدأت

اهتم به، لأحاول معرفة الصلة بين شهرته، وبين مثل هذا القول المندفع من خلال البحث عن كتاباته الاخرى.

ولكن السنين لم تمهل برتراند رسل كثيرا، رغم الضجة الهائلة التي احدثها هذا القول من رجل في قيمته ووزنه، فقد اعلنت روسيا بعد سنوات انها صارت تملك القنبلة الذرية بدورها. وبدأ السباق الذري المعروف.. وعلى الفور، كان لبرتراند رسل موقف آخر..

لقد سقط موقفه الأول بتملك الطرف الآخر للسلاح الجهنمي. وصار المهم الآن هو محاولة منع وقوع حرب بين القوتين الجبارتين، بأي ثمن..

وصار برتراند رسل فورا على رأس حركات السلام، وحركات نزع السلاح..

وإلى جانب نشاطات الكتابة، والخطابة، واللجان والمؤتمرات.. احدث برتراند رسل ضجة واسعة، مرتين. مرة في سنة ١٩٥٧، في احدى لحظات التوتر الدولي حين وجه خطابا مفتوحا الى كل من خروشوف رئيس الاتحاد السوفييتي وايزنهاور رئيس الولايات المتحدة، هاويا بمطرقته القوية على سياساتهما التي تجر العالم الى حافة الهاوية.

وبحكم قيمته المعنوية الكبيرة، كان غير متوقع وغير مألوف. ان يرد عليه خروشوف لأول مرة في موقف من هذا النوع، برسالة طويلة للنشر..

وتردد ايزنهاور. ثم وجد انه سيخسر معركة الرأي العام، فكلف وزير خارجيته جون فوستر دالاس بكتابة رسالة يرد بها على برتراند رسل..

ولعله المقال الوحيد لكاتب في جريدة، الذي جعل رئيسي اكبر دولتين يشعران بالحاجة إلى الرد عليه علنا..

ثم كرر برتراند رسل ذلك سنة ١٩٦٢.. موجها رسالته هذه المرة إلى بريجنيف في موسكو، وجون كينيدي في واشنطن، وهارولد ماكميلان رئيس وزراء انجلترا في لندن.

وفي خلال ذلك كله كان انهماكه في قضايا الحب والزواج والعلاقات الجنسية، يلاحقه ويطارده. ويضعه في أحرج المواقف، التي كانت كفيلة بالقضاء على غيره.

كان مايزال يعيش رائحا غاديا بين انجلترا، وامريكا، يلقي دروسه في شتى جامعات امريكا كاستاذ الفلسفة الأول.

وكان ينشر الكتب في شتى القضايا، وكان من بينها كتاب احدث ضجة كبرى عن «الزواج والاخلاق» لما فيه من تصادم عنيف مع الاخلاقيات المتعارف عليها.

فلما ذهب مرة لينفذ عقدا مع جامعة نيويورك لالقاء دروس.. رفعت امرأة لها بنت في الجامعة قضية تطلب منعه من التدريس فيها لان له كتابات وآراء اجتماعية تدمر الاخلاق.

وواجه برتراند رسل في نيويورك محاكمة اخلاقية. وكما طرد من جامعة كمبردج في انجلترا، طرد من جامعة نيويورك. وتظاهر ضده الكاثوليك المتدينون.

ووجد برتراند نفسه ـ ابن العصر الفكتوري، واستاذ المنطق الاول، وسليل اللوردات ـ وقد بلغ السبعين من العمر، مسؤولا عن اعالة زوجتين سابقتين، وثلاثة اطفال، وهو مفلس وبلا عمل! وان كان في قمة الشهرة!

والغريب انه في هذه المرحلة اصدر كتابا بعنوان «تاريخ الفلسفة الاوربية» صار فورا هو اهم مرجع في موضوعه، وقراءته ضرورية لكل طالب فلسفة في جامعات اوربا وامريكا على السواء ومايزال حتى الآن!

وكأن هذه العواصف كانت لا تؤثر فيه.. فقد رأس في انجلترا لجنة نزع السلاح وعمل على نشر الحركة في العالم، ولم يكفه نشاط اللجان، فابتكر «مسيرات» طويلة بين مدن انجلترا يتجمع حولها الآلاف، واتخذ من ميدان «الطرف الاغر» اكبر ميادين لندن، منبرا له يخطب من فوقه، ورأس اول محكمة دولية من نوعها ـ محكمة من اشهر رجال العالم ـ لمحاكمة امريكا على حرب فيتنام. وقاد المظاهرات. وتزوج مرة ثالثة. ونشر كتبا عن حياته في صراحة مذهلة. واضطرت لجنة جوائز نوبل لاعطائه جائزة نوبل.. ومزق بطاقة حزب العمال بعد خمسين سنة من عضويته احتجاجا على موقف الحكومة من حرب فيتنام» واجتمع حزب العمال خصيصا ليصدر قرارا بفصله.

كل هذا وهو يقود حركات الجلوس في الشارع احتجاجا على الحرب

والتسلح . وكان فوق التسعين من عمره حين داسته ارجل الخيل التي يمتطيها البوليس الانجليزي في لندن، وألقي القبض عليه، ووضع مع شباب المدارس في لوريات الشرطة .

هل اجرى بسرعة على احداث يحتاج كل منها إلى مقال؟

نعم . .

ولكن كيف يمكن سرد مائة سنة تقريبا من حياة هذا العقل الجبار والضمير المرهق المعذب والقلب الحائر في اكثر عصور التاريخ اضطرابا، واهتزازا، حتى في علاقات الزوج بزوجته؟

ولا اجد ما اختم به هذا المقال الذي لابد ان يختم، خيرا من كلمات ختم بها برتراند رسل الجزء الثالث من كتابه عن حياته اذ يقول :

«ان الشعور الداخلي بالفشل» قد يكون امرا تافها بالنسبة للعالم الخارجي، ولكنه جعل حياتي النفسية حربا مستمرة، لقد بدأت حياتي بايمان شبه ديني في عالم افلاطوني خالد، يقترن فيه علم المنطق الرياضي بفن الجمال، ولكنني اختم حياتي باكتشاف ان العالم تافه، وان المنطق الرياضي هو مجرد فن قول نفس الاشياء بطريقة ابهى، بدأت حياتي معتقدا ان الحب الحر الشجاع يمكنه ان يغزو العالم دون حرب، وانتهيت إلى خوض حرب لا نهاية لها .

«ولكن تحت وطأة كل هذا الشعور بالفشل، فانني اشعر بشيء آخر أجد فيه مذاق الانتصار، لعلني استوعبت الحقيقة النظرية خطأ، ولكنني لم اكن مخطئا في الاعتقاد بان ثمة شيئا اسمه الحقيقة، وانها تستحق الانتماء لها . ربما اخطأت في تصوري ان هناك طريقا إلى عالم حر وانسان سعيد اقصر مما وجدت، ولكنني لم اكن مخطئا في اعتقادي ان اقامة مثل هذا العالم امر ممكن، وان العمل من اجل تحقيقه يستحق كل هذا العناء، وهذا هو اليقين الوحيد الذي لم يهتز عندي قط .

***



حرية الرأي والعقيدة كانت المفتاح السحري في يد العرب*

الصراع العربي الإسرائيلي، له أبعاد مثيرة ومتعددة. ساعة تبدو عناصره الاساسية بسيطة واضحة، وساعة تبدو معقدة التركيب إلى آخر الحدود.

ولسنا نعني هنا، فضلا عن اننا لا نقوى - في مجلة شهرية - على ملاحقة التطورات المتسارعة لهذا الصراع. ولكن من الممكن أو من الضروري التعرض للخطوط الكبرى والاهداف العامة لقضيتنا العربية ازاء اسرائيل، خصوصا اذا كانت معها خلفية فكرية أو ثقافية.

الحرب والسلم، او اللاحرب واللا سلم، علاقات تتوالى بين الدول، أو الشعوب، أو القوميات أو النظم.

وتتراوح حظوظ الاطراف يوما عن يوم، تبعا لعلاقات القوة في فترة ما، وللظروف المحلية، والظروف الدولية، وغيرها.. خصوصا ونحن في عالم يزداد تقاربا وتأثرا متبادلا، فلم تعد هناك أزمة او مشكلة أو قضية، يمكن عزلها عن ظروف العالم الذي نعيش فيه، وتفاعلاته المتغيرة.

من هذا المنطلق، كنت ولا ازال لا اتصور للصراع العربي الاسرائيلي إلا نهاية بعيدة. قد تتوالى الفصول وتتعدد الوقفات والنهايات الوقتية. ولكن نهاية «طبيعية» حقيقية، لا سياسية فحسب، لن تكون الا بوجود مجتمع يهودي، مهما كان الاسم السياسي الذي سوف يحمله، يعيش تحت ظل وارف من وجود مجتمع عربي واسع كاليم، له قيمه الحضارية والانسانية التي تتسع لهذا الوجود وامثاله في البحر العربي الفسيح.

---

* العربي - العدد ٢٥٢ - نوفمبر ١٩٧٩.

بمنعى آخر: مجتمع يهودي يرضى عنه العرب، بل ويكونون هم حفاظ عليه. . وليس «قوة كبرى محلية»، روابطها وشخصيتها اجنبية تماما، تمارس دور الارهاب والفرض والاقتناص من هذا العالم العربي الفسيح.

والتاريخ لا يكرر نفسه، على الاقل لا يكرر نفسه بنفس الاسلوب. ولكن هذا لا ينزع عن الشهادة التاريخية قيمتها تماما. ذلك ان التاريخ لا تتكون احداثه من فراغ، ولكن وقائعه تنشأ من ظروف معينة. فهو يتشابه ولو بوسائل شتى بتشابه الظروف.

والظرف المتشابه الذي ينطلق منه تفكيرنا، هو وجود حضارة عربية قوية متجددة، يمتزج فيها أحسن ما في ماضيها بأحسن ما يمكن ان نحققه في حاضرها ومستقبلها.

لو قام هذا الظرف ـ وما أظن الا انه يوما سيقوم ـ فلا يمكن تصور اي صيغة اخرى للعلاقة العربية الاسرائيلية . . اوغيرها من العلاقات في المنطقة.

وقبل ان نخوض في المراجع الاسرائيلية، من حقنا ان نعود إلى مؤلفات المؤرخ العربي الكبير النزيه عبدالله عنان، اهم من ارخ للاندلس في العصور الحديثة.

ينقل الاستاذ عبدالله عنان عن «ابن خلدون» قوله: ان شمال إفريقيا الغربي كانت توجد فيه قبل الفتح الاسلامي قبائل يهودية، تلقت تعاليمها الدينية من بني اسرائيل في المشرق. ولكن تلك الاقطار كانت تحت حكم الامبراطورية قبل الاسلام. وكانت تتعرض لغزوات «الوندال» من شواطىء فرنسا واسبانيا. وكانت الامبراطورية الرومانية تعمل على تنصير الاهالي بالقوة. فمنهم من تنصر ومنهم من تعرض لعذاب شديد.

«وكان يهود الجزيرة «شبه جزيرة ايبيريا التي هي حاليا اسبانيا والبرتغال» كتلة كبيرة عاملة، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل، يعانون اشنع الوان الجور والاضطهاد. وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود، وتتوسل الى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة. ففي عهد الملك سيزبوت فرض التنصر على اليهود أو النفي أو المصادرة، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء «سنة ٦١٦ ميلادية». ثم توالت عليهم بعد ذلك صنوف الاضطهاد والمحن، حتى ركنوا مرة إلى التآمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع يهود

المغرب على المؤازرة والتعاون. ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها «٦٩٤ ميلادية»، وكان ذلك في عهد الملك راجيكا، فقرر ان يشتد في معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الاحبار في طليطلة للنظر في ذلك. واجاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يتآمرون على سلامتها، ولانهم ارتدوا عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل. وقرر ان ينزع املاكهم في سائر الولايات الاسبانية وان تحول إلى جانب العرش، وان يشردوا ويقضى عليهم بالرق الابدي للنصارى. وان يهبهم الملك عبيدا لمن يشاء، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية، وان ينزع ابناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية. والا يتزوج عبد يهودي إلا بنصرانية، ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني. وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود ايما عصف. فكانوا قبيل الفتح الاسلامي ضحية ظلم لا يطاق وكانوا يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر، ويرون في اولئك الفاتحين الذين يتركون للناس حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة، ملائكه منقذين».

كانت هذه الصورة للواقع اليهودي في المغرب والاندلس بين سنتي ٦١٦ و٦٩٤ ميلادية تقابل ـ في المشرق ـ الفترة الواقعة بين الهجرة النبوية تقريبا وخلافة عمر وفتح الشام وفارس ومصر والعراق، وخلافة علي. وقيام الدولة الاموية، ثم اول اصطدامات ضد البيزنطيين في ديارهم ذاتها، واول حصار للقسطنطينية سنة ٦٧٩ ميلادية. ولم يتأخر فتح الاندلس «٧١١» كثيرا.

ولاشك ان كسر العرب لشوكة الامبراطورية الرومانية في عقر دارها، كان أكبر عامل لسكان شمال افريقيا واسبانيا على الثورة، واكبر امل لهم في الخلاص.

ولذلك لم يكن غريبا، حين عبر طارق بن زياد بجيوشه إلى اسبانيا، ان «اليهود كانوا يعاونون المسلمين في تلك الفتوح. . وعندما وصل طارق بن زياد بجيوشه إلى طليطلة مخترقا هضاب الاندلس. . كان القوط قد فروا، ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فاستولى طارق عليها، وابقى على من بقى من سكانها، وترك لاهلها الكنائس، وترك لاحبارها حرية اقامة الشعائر الدينية.

يقول المؤرخ الامريكي سكوت «. . كان دفع الجزية يضمن الحماية لاقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب ان يزاول شعائره دون تدخل، كما يسمح

للملحد ان يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة، والاحبار يزاولون شئونهم في سلام!».

حرية الرأي والدين والعقيدة، كانت مفتاح الحضارة العربية الذي فتحت به الابواب على ظلام العصور الوسطى في اوربا نفسها. ومازالت ولا تزال في كل مكان مفتاح كل تقدم.

يقول المستشرق الاسباني جاينجوس «لقد سطعت في اسبانيا اول اشعة لتلك المدنية التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الامم النصرانية، وفي مدارس قرطبة وطليطلة العربية، جمعت الجذوات الاخيرة للعلوم اليونانية بعد ان أشرفت على الانطفاء. وإلى حكمة العرب، وذكائهم يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها».

ويقول المؤرخ لين بول «انشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت اعجوبة العصور الوسطى! بينما كانت اوربا تتخبط في ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من اقام بها منائر العلم والمدنية».

ويعود الاستاذ عبدالله عنان، وقد استقرت الاندلس وازدهرت فيقول في سياق حديثه «اما اليهود فقد كانت منهم اقليات في معظم المدن الأندلسية تتمتع بحماية الحكومات الاسلامية ورعايتها. وقد ازدهرت هذه الاقليات اليهودية فيما بعد، وظهر منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة في الدولة، وغلب نفوذها في بعض المناطق، كما حدث في مملكة غرناطة، وظهرت كذلك في ميدان العلوم والآداب، ونبغ عنها علماء نابهون مثل ابن ميمون وغيره».

وفي سياق آخر من تاريخ عبدالله عنان الضخم عن الاندلس، يروى ان الاندلس كانت اول بلد في أوربا تشيع فيه القراءة والكتابة بين الناس، بينما كانت في بقية اوربا مقصورة تقريبا على رجال الدين. وفي عصر «الحكم المستنصر» الذي انشأ المكتبة الاموية الكبرى، شاع اقتناء الكتب واقتناء المكتبات الخاصة «وكانت سوق الكتب في قرطبة من اشهر الاسواق واحفلها بالحركة، وسرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود» بعد ان شاعت اللغة العربية بينهم «وكان كثيرون منهم يتذوقون ثمرات التفكير العربي من ادب وشعر وفلسفة وغيرها، وكان من اشهر هؤلاء الطبيب اليهودي حسداي، طبيب الحكم

الخاص، وفي ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية، وألفوا بها مختلف الكتب. وكان من اشهر المكتبات الخاصة فيما بعد، مكتبة يوسف بن اسماعيل ابن نغرالة اليهودي، وزير باديس أمير غرناطة».

ومن اكثر الفقرات دلالة، قوله «ويجب اخيرا ألا ننسى الاقلية اليهودية. فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية، وازدهرت اعمالهم التجارية والصناعية في ظل ذلك التسامح الإسلامي المأثور. ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة إلى ذروة النفوذ والرخاء. وفي ايام الناصر تولى احدهم، وهو العلامة حسداي بن شبروت، الاشراف على الخزانة العامة، وكان قبل ذلك قد حظي برعاية الناصر لخدماته الدبلوماسية، وترجمته لكتاب ديستوريدس عن الاعشاب الطبية، من اليونانية إلى العربية، وهو الكتاب الذي اهدى قيصر منه نسخة إلى الناصر. وفي ظل هذه الرعاية، وفد كثير من العلماء والادباء اليهود إلى قرطبة، ايام الناصر وولده الحكم، وقامت في ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية، ومؤسسها الرابي بن حنوش، وازدهرت في ظلها البحوث التلمودية، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث. واستمرت الخلافة الاخوية، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الاقلية اليهودية وتشجيعها. وكان يهود قرطبة يرتدون الزي العربي، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة».

وفي بحث حديث جدا، منشور منذ شهور قليلة، للكاتب الاسرائيلي «الفريد مورابيا» عنوانه «الثقافة اليهودية في اسبانيا الإسلامية»، نجده يعطينا تقريبا نفس الصورة التي رسمها المؤرخ العربي الكبير. ومن اخذ عنهم من المؤرخين الاسبان.

ويستهل «الفريد مورابيا» دراسته بكلمة للاستاذ ج. فاجولا، يقول فيها «لم يحدث طيلة العصور الاولى وحتى آخر القرون الوسطى ان حققت اليهودية المبعثرة ذاتها في بيئة غير يهودية، كما فعلت في اسبانيا». يقصد بذلك العصر الاندلسي الاسلامي هناك.

ومعظم هذا البحث، يقدم لنا ما يشبه القائمة الطويلة لاسماء اهم اليهود الذين ترعرعوا في ظل الدولة الاسلامية في الاندلس وتأثروا بها وتركوا لليهود اهم تراثهم.

وهو يركز ـ من باب الاختصار ـ اختياره في مجالات أربعة هي : الديـن ، واللغة ، والشعر ، والفلسفة .

والقائمة طويلة جدا . .

ولكن ، يكفي تسجيل بعض الملاحظات عليها :

اولا ـ ان القائمة ، التي هي على سبيل المثال لا الحصر ، طويلة جدا وغزيرة . وان أبحاث هؤلاء العلماء لم تتناول فقط علوم الحياة كالطب والهندسة . ولكن الكثير منها تخصص اما في تعميق وايجاد اسس للغة العبرية ، واما لتـعـمـيـق وتحليل وشرح اسس الديانة اليهودية .

والدين واللغة امران من أهم الامور التي تحفظ استمرار اي شعب . والتسامح الاسلامي في هذا المجال بالذات يلفت النظر وله اهمية خاصة . لانه يدل على اتساع الحضارة الاسلامية العربية لهذه الاعمال التي اصبحت اهم مراجع التراث اليهودي . في حين كان الشائع في غير ذلك العصر ، تشجيع اصحاب الاديان الاخرى فقط على الامور الدنيوية من طب وهندسة ، لانها تفيد الجميع .

ومؤرخون يهود ـ مثل ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق ـ يحاولون اذا ذكروا فضيلة التسامح ان يبرروا بروز اليهود بأبحاثهم الدنيوية فقط ، أو كفاءتهم في الطب مثلا . وسنعود لذلك بعد قليل .

ولكن دلالة التسامح والتشجيع في صدد دراسات تستكمل وضع قـواعـد اللغة العبرية والديانة اليهودية ، اكبر واعمق ، فهي تدل فوق استنارة السلـطـة الحاكمة وتسامحها في حرية العقيدة ، على ثقة هائلة بالنفس .

ثانيا ـ ان معظم هذا التراث اليهودي ، في تلك المواضيع وغيرها مكـتـوب باللغة العربية التي كان يتعلمها ويتقنها هؤلاء . وابا ايبان نفسه يعترف في احد كتبه بأن حوالي ٦٠ في المائة من التراث اليهودي مازال غير مترجم الى العبرية بعد .

ثالثا ـ ان هؤلاء المؤلفين ، لم يكن عملهم مقصورا على انتاجهـم هـذا فـي الاندلس الاسلامية فقط . انما نجد الكثير منهم جابوا آفاق العالم الاسلامي العربي في ذلك الوقت من بغداد شرقا إلى طليطلة غربا . بعضهم طلبا للعلم . وبعضهم لينشر افكاره عن اليهودية بين يهود العالم العربي في شتى اماكنهم ، كما يقول المؤلف الإسرائيلي الفريد مورابيا في بحثه هذا الذي نعرض له ! كان التسامـح

اذن يشملهم في كل العالم العربي الاسلامي، بينما كانوا لا يجسرون على الحركة في نصف العالم الآخر في ذلك الوقت: كل ما هو شمال البحر الابيض من دول أوربية مسيحية، فنجد مثلا:

اسحق الفاسي، الذي ولد في «قلعة حماد» بالقرب من قسنطينة «الجزائر الآن» واستمد اسمه من فاس التي عاش فيها معظم عمره، وتلقى دروسه في القيروان. وعاش حتى الخامسة والسبعين من عمره بين المغرب والاندلس. يقول المؤلف الإسرائيلي انه من اهم من فسروا التلمود، ونشر تعاليمه بين تلاميذه مثل يوسف بن ميجاش ويهوذا هالفي، وافرايم الحمادي «نسبة لقلعة بن حماد» وباروخ بن الباليه، وكان يرسلهم الى انحاء العالم الاسلامي حيثما وُجد مجتمع يهودي لنشر تعاليمه.

ـ مناحم ابن ساروق، صاحب اهم قاموس عبري تلمودي إلى الآن.. والوحيد الذي كتب قاموسا حتى ذلك الوقت بالعبرية مباشرة، اذ كان معظم الكتاب اليهود يكتبون بالعربية، ثم تترجم بعض اعمالهم إلى العبرية.

ـ دوناش بن الابرط. الذي ولد في بغداد، وتتلمذ على يد «سعيد بن جاعون» ثم جاب العالم العربي حتى استقر في فاس. وكان لغويا وشاعرا.

ـ يهودا بن داود الذي يعتبر مؤسس قواعد اللغة العبرية إلى الآن، وقد ولد في فاس. وكتب مؤلفاته في تأصيل قواعد اللغة العبرية باللغة العربية، وترجمت بعد ذلك. واستعان بكثير من قواعد اللغة العربية في وضع قواعد جديدة للغة العبرية.

ـ موسى بن عزرا: احد اهم الشعراء العبرانيين. واهم مؤلفاته اسمه بالعربية «كتاب المحاضرة والمذاكرة».

ـ يهودا الحريزي الذي وصفه المؤلف بأنه كان يسافر كثيرا بين الاندلس، ومصر، وفلسطين، سوريا، وما بين النهرين «اي العراق» يقدم اعماله الفنية والفكرية لكل مجتمع يهودي. وهو اول من اخذ شعر «المقامات» من العرب واستخدمها باللغة العبرية.

ـ وفي مجال الفلسفة يقول الباحث الاسرائيلي إن الاندلس الاسلامية كما اعطت للعالم ابن طفيل وابن رشد وغيرهما، فقد تربى ونشأ في اعقابهم اهم فلاسفة اليهودية مثل «باهي باقودة» الذي الف احد اهم كتب الفلسفة اليهودية

بعنوان «كتاب الهداية إلى فرائض القلوب ولم يترجم كتابه إلى العبرية الا بعد مائة سنة من تأليفه.

. . إلى آخره . . إلى آخره . .

واذا عدنا بعد ذلك إلى «ابا ايبان» «المورخ والسياسي قبل ان يكون استاذ تاريخ، نجده لا ينكر شيئا من هذا في الاساس . .

بل يقول في كتابه «قصة اليهود» ان اليهود لم يعرفوا درجة من الازدهار وتحقيق الذات طوال التاريخ كله الا مرتين: مرة في الولايات المتحدة الامريكية اليوم، ومرة في الاندلس الاسلامية منذ قرون!

ونقول له ان هناك مع ذلك فارقا: فما وصلوا اليه في الولايات المتحدة جاء بعد العصر الحديث وانتشار التنوير في العالم كله . . في حين انهم وصلوا إلى ذلك في الاندلس، في العصور الوسطى . ووسط ظلامها، وفي اوج التعصب والاضطهاد الديني في اوربا!

ثم ان ابا ايبان ـ كما سبق وذكرت ـ يركز على الذين برزوا في ظل العالم العربي في تلك الحقبة بمهاراتهم الشخصية في الطب أو المال أو الهندسة او الترجمة . ومن الطبيعي ألا يبرز ولا يوضع في كتب التاريخ الا اسماء الاكفاء والمشهورين . . ولكن اليس هذا البروز بحاجة، فوق الكفاءة، الى شيء آخر . . وهو جو التسامح واحترام حرية العقيدة؟

ان النابهين لا يبرزون فجأة في عصر دون عصر . ولا في قطر دون قطر . انما يبرزهم عنصر أساسي يسمح للموهبة أن تتفتح إلى أقصى قدراتها . وذلك هو جو احترام حرية العقيدة .

والغريب ان ابا ايبان يقول في احدى صفحات كتابه عن «قصة اليهود» ان سبب بروزهم قام على اتقانهم اللغات المختلفة، بحكم وجودهم في اقطار مختلفة . وبالتالي كانوا ضروريين للنقل والترجمة بين تلك الاقطار . وبين عالم العرب وعالم اوربا مثلا في تلك الحقبة التي نتحدث عنها . وهو من حيث لا يشعر يحاول ان يجعل هذا دورا خالدا لليهود، يميزهم عن سائر الدنيا، ويجعلهم ضروريين لتسيير هذه الدنيا .

وهو بهذا يهزم قضيته من وجوه كثيرة دون ان يدري .

صحيح انهم قاموا طويلا بدور المبعوثين والمترجمين بين الدول . .

ولكن هذا يفترض دوام وجودهم في «الشتات»، بعكس العقيدة الصهيونية التي تريد جمعهم في وطن واحد .

ثم ان هذا كان مفهوما في عالم كانت القراءة والكتابة ودراسة اللغات كلها مقصورة على القلة النادرة، لضرورات الفكر والاطلاع أو لضرورات العامل التجاري والسياسي . وكانت مقصورة تقريبا على رجال الدين .

اما الآن، وقد اصبح التعليم ومعرفة اللغات شيئا شائعا وأساسيا بل ومفترضا وجوده في اي مجتمع انساني . . فان هذه الوظيفة الخاصة قد انتهى دورها . ولم يعد دور اليهودي العالمي مطلوبا!

والواقع ان الإسرائيلي حين يكتب يحتار دائما بين اختيار دور المواطن الصهيوني وبين دور المواطن العالمي . وهما نظرتان مختلفتان .

ولنا عودة إلى كتابات ابا ايبان، فهي آلاف من الصفحات .

وبعده . .

فلم يكن موضوع هذا الحديث كل العلاقة العربية الاسلامية اليهودية، والا لطال الحديث . ولذكرنا آلاف الأدلة على أن ازدهار العرب وتحضرهم وقوتهم كانت تلقائيا تعطي اليهود فرصة اكبر .

وانه ليكفي ان نذكر ان عمر بن الخطاب هو الذي اعادهم اول مرة الى القدس بعد ان حرم الرومان عليهم سكنى المدينة .

وان صلاح الدين الايوبي هو الذي اعادهم مرة ثانية بعد ان هزم الصليبيين، الذين حرموا اليهود بدورهم من مجرد الاقتراب من القدس .

ولكن الحديث انصرف اساسا الى تجربة واحدة، هي التجربة الاندلسية، التي لم يتسع المجال مع ذلك الا لمجرد سرد لمحات خاطفة منها . . تثبت صواب ما ذهبنا اليه في اول هذا الحديث على المدى التاريخي .

ان النظرة التاريخية المفصلة، تثبت قول بعض الباحثين اليهود انفسهم، من: ان عصر التنوير العربي في اوج الامبراطورية الاسلامية وحضاراتها، هو الذي لعب اكبر دور في حفظ استمرارية اليهود كبشر، وكتراث، وتاريخ، ومعتقدات . فلم يكن لهم طول التاريخ مكان آخر يتنفسون فيه .



محاولات «صد» الغزو الحضاري! *

صحيح هناك غزو حضاري تتعرض الأمة العربية له. ولكن الحديث عن «صد» هذا الغزو أمر غير وارد وغير ممكن. وانما المطلوب شيء آخر تماما.

لست أدري بالضبط أي «غزو حضاري» تحدث عنه وزراء الثقافة العرب، في أول اجتماع لهم في الاردن، وتنادوا للحديث عنه، وللبحث ـ بالتأكيد ـ في وسائل التصدي له، ودرء مخاطره، عن الأمة العربية.

لست ادري بالضبط، لأن الصحف ووسائل الاعلام مع الأسف لم تعطنا صورة كاملة عنه.

وبالتالي، فمع الترحيب الشديد بأن نفكر لأول مرة ـ في ايجاد تنسيق ثقافي بين البلاد العربية، فانني لا أريد أن أظلم وزراء الثقافة بأن أنسب اليهم، ربما ما لم يقولوه أو يفكروا فيه. ولكن لأن الأمر مهم جدا على أي حال، فهو يحتاج إلى هذه الوقفة، ويحتاج إلى كل الفكر العربي في بحثه، وليس إلى وزراء الثقافة العرب وحدهم.

وأغلب الظن أنهم بحثوا موضوع «الغزو الحضاري» من زاويته الثقافية أو الفكرية فحسب. ولعل هذا هو اختصاصهم. ولكن «الغزو الحضاري» أوسع من ذلك بكثير جدا. وقبل ان نسميه «غزوا»، ونتأثر بالمعنى المباشر للكلمة، ونشرع فورا في اقامة المتاريس من حولنا لصد هذا «الغزو»، علينا ان نفهم بالضبط.. حتى نعرف كيف يمكننا ليس «صده»، والصد وحده أمر سلبي،

* العربي ـ العدد ٢١٩ ـ فبراير ١٩٧٧.

ولكن كيف يمكننا «مواجهته» و«التعامل معه».

في البدء يجب أن نتذكر أن الغزو الحضاري ـ وفي صورة مخففة التأثير الحضاري ـ أمر عرفته الإنسانية خلال عصورها جميعا. الجماعة الإنسانية المتقدمة تؤثر على الجماعات الاقل منها تقدما بصورة أو بأخرى.

ان لم يكن في الفكر والثقافة ففي القانون وطرق الحكم. أو في عادات الملبس والمأكل. أو في أسلوب من أساليب الحياة، بل وحتى عندما تنتصر أمة ما، بالقوة العسكرية، على أمة أعرق منها تقدما، تتأثر الأمة المنتصرة بالامة المهزومة عسكريا، ولو في أشياء أخرى بالغة الاهمية.

لقد حطمت الامبراطورية الرومانية، مثلا، حضارة الاغريق، ولكن تأثر روما بحضارة الاغريق، كان عميقا لدرجة ان حضارة روما صارت إلى حد كبير امتدادا لحضارة اليونان القديمة.

ولو نظرنا إلى قصة نزول الاسلام ثم انتشاره السريع المذهل، لوجدنا ظاهرة مشابهة ومختلفة. فقد خرج أهل الجزيرة العربية غير مزودين بأي شيء إلا بايمانهم، وطلبهم للجهاد والاستشهاد في سبيل الله، والمبادئ الإنسانية التي جاء بها الاسلام. وبهذا وحده هزموا وحطموا امبراطوريات عريقة، مثل امبراطورية الفرس وامبراطورية بيزنطة، ثم لم تلبث الحضارة الاسلامية ان تأثرت بالكثير من أنماط حياة الذين هزمتهم. في الثياب. في الطعام. في أساليب تنظيم الدولة وادارة الحكم. أثرت وتأثرت. وكان عصر قوتها الكبرى أيام الخليفة المأمون هو اعظم عصور الترجمة في الفلسفة والعلوم والآداب عن الحضارات الاخرى. كانت قد صارت من القوة الحضارية ومن الثقة بنفسها بحيث لم تخش هذه الترجمة، بل اقبلت عليها في نهم شديد، لانها كانت قادرة على استيعابها وتزودها، وليس الاستسلام لها او الخضوع امامها. فالحضارة الاسلامية لم تصبح امتدادا لحضارات فارس وبيزنطة كما حدث لروما مع اليونان القديمة. ولكنها كانت حضارة جديدة تماما، كانت هي صاحبة التأثير الاكبر، ومصدر «الغزو الحضاري»، وان كانت قد تأثرت ودرست واستوعبت ما سبقها من حضارات.

ولكننا الآن ـ في هذا المجال ـ أمام وضع يختلف تماما عن كل ما سبقه في

مجال الغزو الحضاري .

وضع جديد تماما ، يختلف في امرين اساسيين :

الأمر الأول : ان ساحة التأثر أو التعرض للغزو الحضاري هذه المرة هي العالم بأكمله . الكرة الارضية كلها . بسبب ما نعرفه من تقدم وسائل الاتصال والانتقال . حتى صار العالم كما قال «مارشال ماكلوهان» : قرية كبيرة واحدة .

الأمر الثاني : ان الحضارة الاوربية «وامريكا وروسيا على السواء استمرار لها» ، وهي الحضارة الغازية ، لا تقدم للعالم دينا سماويا ، ولا رسالة روحية سامية ، ولكنها تقدم حضارة وقيما مادية في الدرجة الاولى ، مهما صاحبها من افكار وفلسفات ونظم ، مازالت محل نزاع ، لتنظيم هذه الحضارة المادية .

حين خرج المسلم من صحرائه الى الدنيا الواسعة لم يكن يحمل الا القرآن وسيفه !

الآن تهجم الحضارة الحديثة بأسلحتها ، وأفكارها ـ حسب جهة الغزو ـ وأنماط حياتها وطعامها وعلاقاتها . تهجم بطائرات لابد أن نركبها وبضائع لابد ان نشتريها . وأفلام لابد أن نراها على شاشات السينما والتليفزيون . تصل بهجومها حتى حجرة نوم الفرد في أبعد مكان ، تطل باغراءاتها عليه من شاشة التليفزيون الملون ، فتؤثر فيه من حيث لا يشعر ، في كل نواحي حياته ، توحي له بما يأكل وما يشرب وما يحب ، وما يكره ، وترسم له طموحاته وتحدد له أحلامه التي يجب أن يسعى اليها ، وتشرح علاقاته بزوجته وبناته وأولاده .

فالهجوم الحضاري المعاصر ، هجوم ساحق ماحق ، تهب رياحه من كل اتجاه ، وتتسرب ذرات ترابه من خلال اكثر النوافذ والابواب اغلاقا واحكاما . تحمله الى انحاء الدنيا الكتب والصحف والسفن والطائرات . . وتحمله أمواج الاثير ، التي لا يمكن منعها ولا الحيلولة دون ان يلتقطها اي انسان ، في اي مكان ، بجهاز «ترانزيستور» صغير ، لا يتجاوز حجم الكف الواحدة .

وهناك من يتصورون ان «صدى هذا الغزو الحضاري» ممكن . وهناك من ينادون بذلك ، مكتفين في حديثهم هذا عادة بالعموميات ، والعبارات الانشائية ، دون ان يقولوا لنا : كيف؟

ولو نظرنا إلى الواقع ، ولم ندفن رءوسنا في الرمال ، فاننا نجد أن «صد» هذا الغزو الحضاري ، والاحتماء منه ، مستحيل . . لأنه كما قلت يدخل من

الف باب وباب، ويتسلل مع الريح، ويطير على امواج الاثير.

لقد «احتمت» دولة اليمن، مثلا، في فترة من الفترات من هذه الحضارة بالعزلة الكاملة. ويروي المؤرخ الفيلسوف الراحل ارنولد توينبي في احد كتبه، انه ناقش، قبل ثلاثين سنة، احد حكام اليمن في ذلك الوقت عن هذا الموقف، فقال له: انه لا يريد من حضارة الغرب شيئا يعدي بلاده.. «لا الويسكي ولا البرلمانات»!.. فهو رأى الحضارة الحديثة بكل حسناتها وشرورها، ووجد انه لابد من المنع الشامل.. وكانت النتيجة ما نعرف.

واليوم لا يوجد احد في منجاة عن «الغزو الحضاري» الا بعض قبائل العرايا في وسط افريقيا، وقبائل «البابوا» في جزر جنوب شرق آسيا، وحتى هؤلاء، اكتشف العالم وجودهم. وثارت مناقشة منذ سنوات، طريفة وأليمة، بين من رأوا ضرورة تمدينهم بالتدريج، ومن رأوا الابقاء عليهم كما هي، نموذجا حيا مستمرا لانسان العصور الأولى.. أي كالاحتفاظ بأنواع بعض الحيوانات وحمايتها من الانقراض!

بعد ذلك، لنأخذ نموذج أي بلد، كائنا ما كان، على الكرة الارضية، يريد ان يحيا بشكل أو بآخر.

أنه بالتأكيد سوف يحتاج - مهما ضيق على نفسه - إلى اشياء اساسية من العالم الصناعي المتقدم. طائرات مدنية. سيارات. معدات لرصف طرقه. درجة من التصنيع والآلات. مطبعة وورق وجريدة.. مواد بناء، اجهزة راديو تلتقط انباء العالم كله.. الى آخر السلسلة حسب درجة رخاء كل بلد.

ومع هذا كله سوف يرى الناس ويسمعون وسوف تقوم مدن. والمدن - حتى لو سكنها أهلها فقط - غير الريف والبادية. بمعنى أنها تغير انماط الحياة. عادات الاكل والملبس تتغير. المدارس تفتح. تعرض الأبناء لمؤثرات غير البيت، بل وغير المدرسة، يحدث أثره في عقلياتهم وطريقة تفكيرهم ونوع تطلعاتهم. ولكن مع هذا كله يأتي الاجانب كخبراء لا مفر منهم، ولا مفر من تأثيرهم فيمن يحتكون بهم، والدولة ذاتها لابد أن ترسل أبناءها إلى الخارج لكي يتعلموا ادارة هذه الامور في شتى مناحي الحياة.. وبالتالي يتعرضون لكل الغبار الذري المتساقط من جو الحضارات السائدة في البلاد التي يذهبون اليها. ويعودون الى

بلادهم مشبعين بدرجات متفاوتة بهذا الغبار، ناشرين له من حولهم.

هذا تصوير بسيط ومتواضع لحظ اقل البلاد شأنا وابعدها موقعا، من وجوه التعرض للغزو الحضاري المعاصر. وقد ذكرت بعض الاولويات التي لا مفر منها. ولم اذكر ما يحدث فعلا من اضعاف اضعاف ذلك. فأين المفر من هذا الغزو؟ وكيف يمكن «صده»، بمعنى احكام الابواب والنوافذ دونه؟ وما بالنا اذا كنا نحن العرب بالذات لسنا شعبا بدائيا، ولا نقع على هامش الدنيا، بل اننا امة تتوسط العالم جغرافيا واستراتيجيا، ووثيقة الصلة بمصالح عالمية كبرى، ولها اكثر من ماض واكثر من تراث. ولها سابق عهد بأنوار الحضارة والمعرفة والاحتكاك بالعالم والنصر والهزيمة والاحتكاك بالحضارات الاخرى وتحديها؟

هل يمكن ـ كما يظن البعض ـ ان الحضارة الغازية، يمكن «تعقيمها» عند الحدود، كالشخص الذي يجب ان يحمل شهادة تطعيم ضد الكوليرا، بحيث تدخل الحضارة دون «أمراضها». . ؟

هناك طبعا اشياء يمكن ايقافها عند الحدود بهذا المعنى. ولكن هناك ما يعتبر جزءا لا يتجزأ منها بحيث لا يمكن معالجتها بأي مصل كان. كأثر الانتقال إلى المدن الكبرى في تكوين العلاقات الأسرية، أو كأثر برامج الاذاعة الملتقطة عبر موجات الاثير.

اذن، فما العمل؟ . . .

ان الانغلاق مستحيل، لأن معناه ان ندير ظهورنا للحياة، ونعتزلها تماما. ثم انه حتى لو اردنا فهو غير ممكن لاننا اذا اعتزلنا الحياة فان مع غزونا حضاريا كثيرة. فهي اما ـ عقائديا ـ تريد ان تنشر بيننا مذاهبها، واما ـ تجاريا ـ تريد ان تبيع في اسواقنا بضائعها. واما ـ اقتصادية ـ فهي تستورد او تشتري او تحصل على ما لدينا من خامات تريدها.

اذن، فما العمل؟ . .

يجب في البداية ان نستبعد من لغة القول عندنا عبارة «صد الغزو» الحضاري، لما توحي به من معنى سلبي، انغلاقي، وغير ممكن تحقيقه. وانما من الانسب ان نستخدم في هذا العنوان «مواجهة التحدي الحضاري والتعامل معه».

وليس الامر طبعا تغيير جملة بجملة، او عنوان بعنوان. واهمية العنوان

ليست الا في ان يعطينا ـ نفسيا وذهنيا ووجدانيا ـ المؤشر الصحيح ، الى الاتجاه الصحيح .

مواجهة التحدي الحضاري والتعامل معه معناه :

* ان نفتح عقولنا تماما للتحديات الحضارية بكل صورها . يجب ان نقرأ كل شيء ، ونسمع كل شيء ، ونناقش كل شيء . ويجب ـ في الجانب المادي ـ ان نتعلم وندرس كل فروع المعرفة الحديثة ، واستخداماتها التطبيقية ، العملية ، ابتداء من السلاح العسكري وانتهاء الى السلع التي تسهل حياة المواطن في العصر الحديث .

في الجانب المادي ، لا يكفي ان نكون «مشترين» فقط . انما يجب ان نتقن الفنون والعلوم المتصلة بجوانب الحضارة المادية ، وهو الجانب الطاغي ، حتى نطوعها لارادتنا ، ونشارك في التحكم فيها . واننا لنرى امامنا كيف اقبلت اسرائيل مثلا على جانب العلوم الالكترونية ، علوم المستقبل بالذات . فركزت عليها ، حتى استطاعت ان تكون منتجة لاجهزة التحكم والتصويب المطلوبة الآن في كل قطاع . . وبالتالي استطاعت ان تصنع الطائرات الحربية ، والصواريخ الصغيرة ، والزوارق البحرية ، وبعض انواع الطوربيد . وعلى نطاق اوسع ، رأينا كيف عكفت اليابان على دراسة كل علوم الحضارة ، ثم لم تلبث ان تفوقت ، وسبقت .

وفي الجانب الفكري ، لا يجوز ان يكون هناك امام مراكز البحث والجامعات والمعاهد جدار ، ولا أن يكون هناك ممنوع .

واذا اتفقنا على هذا المبدأ الاولي العام ، فانه بعد ذلك يظل لنا دائما حق الانتقاء ، في مختلف المجالات ، فقد تضطر دولة ازاء ظروفها الاقتصادية ان تحظر استيراد سلع كمالية معينة مثلا . . ولكن السلع هي نتاج العلم وليست العلم ذاته . . وحظر استيراد السلعة او تحديده لا يعني حظر استيراد العلم نفسه او تحديده .

* ولكن اذا فتحنا صدرنا وفكرنا للحضارة الحديثة ، فمن أين يأتي عنصر المقاومة لما هو ضار منها أو غير مناسب لنا ، ومن أين تأتي الحصانة؟

هذا يقودنا إلى الركن الثاني اللازم والضروري من اركان «مواجهة التحدي الحضاري والتعامل معه» .

هذا الركن الثاني قد تفتقده بلاد نامية غيرنا ، ليس لها تراث ، ولكن في

حالتنا بالذات، فان لنا في ارضنا جذورا ضاربة إلى اعماق بعيدة جدا، من الدين، والتراث، والتاريخ، والعادات والتقاليد.

ان عملية احياء هذه الجذور، هي هذا الركن الثاني. هي سلاحنا الحقيقي في مواجهة «تحديات الحضارة». السلاح الاعمق والاقوى من سلاح الانغلاق بجدرانه الواهية التي لا تمنع شيئا.

هذه الجذور الضاربة إلى اعماق بعيدة في ارضنا، قد طال بها الجفاف. لم تشرق عليها الشمس ولم يرو عطشها الماء منذ أزمان وأزمان.

لاشيء يجعل هذا كله يورق من جديد، الا تعريضه لضوء البحث والمناقشة والاجتهاد. فيتجدد شباب الشجرة الوارفة كلها. تسقط منها الأوراق الميتة التي علقت بجوهر تراثنا في عصور الاضمحلال والظلام. وتزهر الغصون والأوراق الاصيلة، المليئة بالحياة.

هذا الاحياء المستنير المتفتح الواعي، هو الذي سيجعل الحصانة من بعض امراض الحضارة كامنا في كل نفس، وجزءا من تكوين مجتمعنا الذهني والنفسي. حصانة لا تقاس إليها ابدا حصانة مصطنعة من الابواب والنوافذ المغلقة، ودفن الرءوس في الرمال، في عصر تتسرب فيه ذرات الحضارة ـ كما قلنا ـ على موجات غير مرئية من الاثير.

ولكي ننتقل من مجال التعميم الى مجال التصميم والتحديد. خصوصا وان الحديث قد بدأ باجتماع وزراء الثقافة العرب، وفي رعاية المنظمة العربية للثقافة والفنون والعلوم، فان هناك مثلين محددين، ارى ان من الضروري ان يرى كلاهما النور، وهما يعبران ـ كمجرد نماذج ـ عما اقصد اليه.

في مجال الاحاطة بكل عناصر المعرفة الحديثة، ماذا نجد؟

نجد انه ليس لدينا الا دور للنشر، قامت اساسا كعمل تجاري، وهذا حقها. فهي تختار الكتب التي تتوقع رواجها. والتي لا تكلفها كثيرا، فتقبل عليها تترجمها وتطرحها في الاسواق. وهناك حكومات تنافس دور النشر الفردية في هذا الاسلوب.

ولكن المطلوب في مجال الترجمة، امر آخر تماما، لو يتم فانه لن يقل قيمة عن فتح عشر جامعات ضخمة بأكملها.

ان الشاب في انجلترا ـ مثلا ـ يشب فيجد كل أمهات الكتب ، كتب النصوص الاساسية ، موجودة ميسرة له في لغته حتى ولو كانت مكتوبة في اصلها بالالمانية أو الفرنسية أو الروسية . . ولغات اخرى كثيرة ، انه سيجد فكتور هيجو بالانجليزية مثل شكسبير تماما ، وفلسفة شوبنهاور وكانت الالمانية بالانجليزية . مثل فرانسيس بيكون . ودستويفسكي الروسي في لغة شارلز ديكنز . ولا استطيع ان اضرب امثلة بكتب سائر العلوم . المهم انه لا يجد ان اللغة عقبة في طريق توغله في العلم الذي يختاره وفي سن مبكرة . هذا يجده الطالب والباحث الامريكي والانجليزي والفرنسي والالماني والروسي . ومنذ سنوات كانت اليابان قد ارسلت شابا الى القاهرة يقضي سنوات لتعلم اللغة العربية بهدف اساسي هو : ترجمة «ابن خلدون» الى اللغة اليابانية .

في بلادنا العربية لا نجد هذا . لا يحيط بهذا الا احد اثنين . اما ذلك الذي تفوق وارسلته بلده الى بعثة في الخارج ، وهو نوع نادر في عدده . او ذلك الشديد الاصرار ، الذي يقضي سنوات لاتقان لغة اجنبية واحدة ليعرف كنوزها وفكرها ، عن طريق مباشر .

وقد ناديت كثيرا بان هناك ألف كتاب أساسي ـ مثلا ـ في شتى العلوم والفنون ، يجب أن يجدها الشاب العربي في لغته . وترجمة هذه الكتب تكلف كثيرا . نعم . ولكنها حتى على المستوى التجاري ستكسب . لانها هي الكتب التي ستقرؤها الاجيال مئات السنين . وهي مع ذلك تكلف اقل من مباني كلية جامعية واحدة! ولكن أثرها ـ كما قلت ـ يفوق اقامة عشر جامعات جديدة .

ولو فعلت وزارات الثقافة أو التربية العربية ـ مجتمعة ـ هذا الجهد ، لحققت قفزة هائلة في استيعاب شبابنا لجوهر الحضارة ، في سن مبكرة ، سن التشبع وما قبل الابداع وقبل بلوغهم سن التعب والعقم .

انتقاء الترجمة حاليا ـ مما يغرق الاسواق ـ يتم اما لاغراض تجارية ، او سياسية ، او غيرهما . لان هذا الجهد المطلوب ، نقل الحضارة الحديثة الى اللغة العربية مرة واحدة والى الابد ، يحتاج الى جهد آخر ، ودافع آخر ، وأسلوب آخر في الانتقاء .

وبالمقابل ، في باب احياء التراث . .

مرة اخرى، نجد احيانا بعض جهود مشكورة. ولكنا نجد على الاغلب ان نشر التراث أخذ طابع التجارة. أو طابع عدم التمييز. فكل كتاب مرت عليه السنون وعلاه التراب، فهو تراث، يعاد تحقيقه ونشره على الناس. في حين ان هذه عملية يجب ان تتم من خلال انتقاء شديد، يفرق بين السمين والغث، بين فكر عصور النهضة وبين فكر عصور التخلف، فتاوى عهود العدل وفتاوى عهود الزلفى والملق والانتفاع، فالى جانب الواجب الاصلي وهو أن نفهم ديننا وتراثنا على وجهه الصحيح، فانن نريده غذاء نفسيا وعقليا قويا، يواجه به شبابنا رياح «الغزو الحضاري» يستوعبونها ويستخدمونها، فلا تجرفهم ولا تستخدمهم.

يبقى الركن الثالث الذي لا يتجزأ في ضرورته، عن الركنين السابقين معا.. وهو، ضرورة البحث عن اجابة ما، لسؤال مهم، وهو: أي صيغة حضارية نريد الوصول اليها، ونراها مناسبة لنا، ونساهم بها في الحضارة الحديثة الانسانية بوجه عام؟

سؤال ليس من السهل الاجابة عليه، وبالتالي لا نتوقع أن يجيب عنه اجتماع وزراء، أو مؤتمر مفكرين، ولكن الاجابة قد تأتي اذا طرحنا أولا السؤال على الذهن العربي العام، واذا نجحنا في أن نجعله يشغل بال كل القيادات في بلادنا.. بالمعنى الواسع للقيادات.. اي القيادات السياسية والفكرية والعلمية والفنية.

وهو سؤال حاولنا ان نطرحه في مجلة «العربي» في اعداد كثيرة من زوايا مختلفة.. اقتصادية او اجتماعية.. ولابد أن نمضي في طرحه، والالحاح عليه، وفتح باب المناقشة فيه.

فمن ناحية، لاشك ان للحضارة الحديثة امراضها، التي ظهرت في المجتمعات المتقدمة والتي يبحث فيها اصحابها أنفسهم ويبحثون لها عن علاج.

فقيام المدن الضخمة المزدحمة، خلق ظروف الحياة غير الصحية، ونشر أنواعا جديدة من العنف والجريمة، وقيام الصناعات بلا تخطيط جنى على البيئة ولوثها.. وترك وسائل الاعلام لعنصر الربح أفسح المجال للاباحية ولاشكال عديدة من الانحلال. فمن واجبنا اذن ألا نبدأ كما بدأوا وننتهي تماما الى ما انتهوا إليه. انما علينا ان نفيد من الدروس.

ومن ناحية اخرى، فان عددا كبيرا من العلماء يطرحون سؤالا مهما: هل التنمية المادية كما حدثت في الغرب هي المعنى الوحيد «للتقدم». وهل على دول العالم الثالث ان تسلك نفس الطريق، وتخضع نفسها لنفس الضرورات، حتى تصبح متقدمة، أم ان هناك ترجمات اخرى لمعني التقدم، وأنماطا اخرى للحياة؟

مناقشة لن أتوسع فيها هنا. فالمقصود فقط مجرد الاشارة اليها، في مجال الحديث عن كيفية «مواجهة التحديات الحضارية» بأكثر من سلبية تعبير «صد الغزوالحضاري» الذي يوحي بسياسة انغلاق، وبنفسية الحياة في مدينة محاصرة، في حماية أسوار عالية، وهي حتى بهذه السلبية لن تقوى على صد أي غزو حضاري.

منذ سنوات بعيدة، كنت في رحلة إلى اليابان. .

والتقيت هناك بشاب صحفي فلسطيني اسمه الاستاذ عمر طه. كانت قد أرسلته جريدة «الأنوار» اللبنانية إلى طوكيو، في مهمة صحفية. ولكن الحياة هناك راقت له. وقال لي انه قرر البقاء في اليابان. وتزوج فتاة يابانية. وكان لي خلال اقامتي نعم الرفيق، بحكم معرفته ـ المبدئية في ذلك الوقت ـ بالبلد، ولغتها، وعاداتها.

ومرت سنوات طويلة. .

ومنذ بضعة شهور تلقيت منه رسالة من اليابان، مكتوبة على آلة كاتبة باللغة العربية، ومعها كتاب اعلامي بالغ الاناقة عن اليابان، مطبوع باللغة العربية أيضا.

وفي الرسالة يذكرني بلقائنا القديم في طوكيو، ثم يقول: « . . لقد أمضيت حتى الآن عشرين سنة في اليابان بالتمام والكمال. واعمل حاليا رئيسا لتحرير دار نشر وطباعة باللغة العربية هي الوحيدة في اليابان. والكتاب المرفق واحد من مطبوعاتنا. وقد تستغرب اذا ما علمت ان منضدي الحروف لدينا لا يعرفون شيئا من لغتنا. ومع ذلك ليس هناك ما يعتبر مستحيلا في دنيا العلم والطباعة بالعقل الالكتروني. فقد حولنا الساعة الى أحرف عربية، وكذلك فعلنا بالنسبة للحاسبة الصغيرة والكبيرة. وأخيرا وليس آخرا بالمبرقة الاولى باللغة العربية. .

واذا أتيت فسوف تعجبك أمور أهم وأكثر مدعاة للدراسة والتقييم. بل ان

السكرتيرة التي تطبع هذه الرسالة لا تعرف لغتنا العربية!

ثم ان الآلة الكاتبة هذه من صنع ياباني، فتأمل! والله الموفق، مع اطيب التمنيات ومزيد من النجاح».

مطابع باللغة العربية يعمل عليها عمال يابانيون لا يعرفون اللغة؟

آلة كاتبة عربية تعمل عليها سكرتيرة يابانية لا تعرف اللغة. وهذا وذاك في طباعة أنيقة ليس فيها غلطة واحدة؟

اولا: كيف يكون ذلك؟ انني اعترف ان معلوماتي ـ او فلأقل خيالي ـ العلمي المحدود لم يفهم من هذه السطور شيئا. وقد وجدت ان خيالي هذا يستوعب هبوط مركبة فضائية على المريخ ولا يستوعب قيام عمال يابانيين بطباعة كتب بلغة عربية لا يعرفونها! وانني لأتمنى على الأستاذ عمر طه ان يرسل لي وللقراء مزيدا من الشرح للعملية. أو فليفعل ذلك احد مهندسي الطباعة عندنا الذين اعتقد ان فيهم بالتأكيد من يعرف شيئا عن ذلك!

ثانيا: ماذا أبقى العلم الحديث للإنسان؟

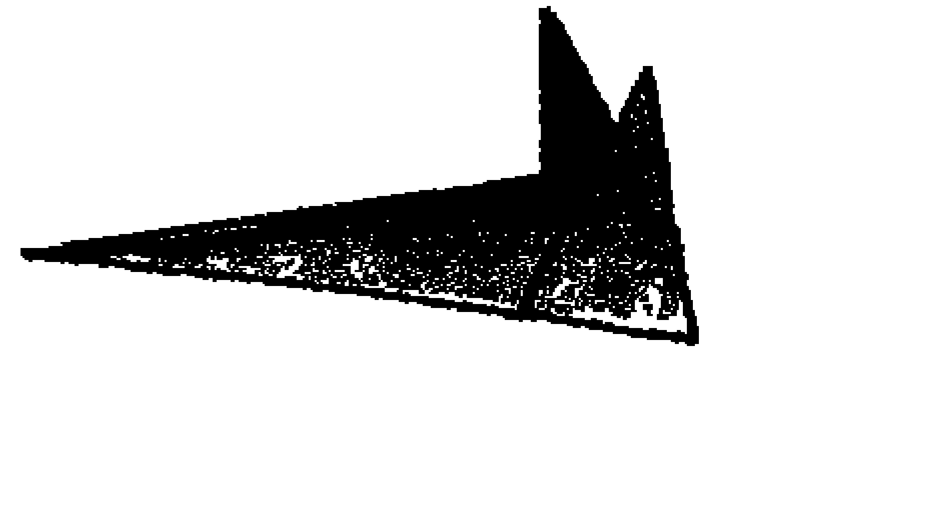
إذا كانت مراكز العلم والتكنولوجيا المتقدمة في العالم، قد سيطرت ـ وتزداد سيطرة ـ على سكان هذا العالم في ثيابهم وطعامهم، والاذاعات التي يسمعون، والافلام التي يرون، وسيطرت على ما يركبونه من سيارات أو طائرات، وما يستخدمونه من اجهزة اتصال، او سلاح، وحتى انتاج المواد الغذائية. في أي ارض، وفي اي طقس.. فقد كان باقيا لكل شعب من خصوصياته شيء اساسي على الأقل، هو: لغته القومية!

فالكتاب العربي مثلا لابد أن يطبع في بلد عربي، أو إذا طبع في بلد اجنبي فبأيد عربية، أو أيد درس أصحابها اللغة العربية. المهم، ان اصحاب أي لغة تظل لهم ميزة على غيرهم ولو في هذا المجال.

ولكن، ها هو العلم يقتحم حتى هذه الخصوصية ويطوعها له. أي صار ممكنا أن نجد بلدا اجنبيا يتفوق علينا ويسبقنا في طباعة مؤلفاتنا، وأفكارنا، وتراثنا، ويصدرها إلينا، دون أن يكون في حاجة إلى أن يعرف شيئا عن لغتنا!

أليس هذا وحده كافيا لأن يشعرنا «بصدمة تاريخية» عنيفة؟ أليس كافيا لان يشعرنا بالعصر الذي نعيش فيه؟ وبتفاهة ما نضيع فيه وقتنا، ومواهبنا، واموالنا؟







المستقبل .. وصل !*

الرحلة الأوربية السنوية، جاءت هذه المرة، في الخريف . .

وحصيلتها كالعادة منوعة، اقرب إلى الخواطر المتداعية، لأن بعض موضوعاتها يحتاج إلى ان يكتب عنه بمفرده، في مناسباته . .

الرحلة بالنسبة للكاتب هي الفترة التي يستنشق فيها الهواء المتجدد، خارج جدران مكتبه، وهي عادة ـ طبقا للاهتمامات الاساسية لكل كاتب ـ قد تتركز على التعرف على احدث الكتب . او لمراجعة القديم والجديد من المكتبات والمتاحف ومراكز الفكر، أو زيارة الجامعات ومعاهد الأبحاث أو للمقابلة والحوار من الكتاب أوالساسة أو المفكرين في عواصم اخرى . . لتأمل القضايا ذات الاهتمام الانساني العام . . او للتعرف على كيف نراهم وكيف يروننا .

ولكن الرحلة ـ فوق اهدافها ذات الاولوية ـ هي بالنسبة للكاتب عمل ذهني مستمر .

* اذا احتاج الكاتب إلى علاج، لا يمكنه أن يتجنب سؤال مثل : هل الأفضل أن يسافر ناسنا واهلنا بهذه الاعداد الهائلة للعلاج، أم الافضل ان نواكب التقدم الطبي في بلادنا، وان نحضر أكبر الاطباء والعلماء إلى بلادنا . . يعالجون، ويعلمون، وينمون خبرتهم، فنصبح بالتدريج شركاء في موجة التقدم العام . . وتضيق المسافة بيننا وبين العالم المتقدم، ولا تتسع؟

* وإذا جلس الكاتب يوما يشاهد التليفزيون، فانه مهما استغرق في البرنامج أو الدوائر التي يراها لا يملك نفسه من أن يتساءل : لماذا لا تشتري تليفزيوناتنا

---

* العربي ـ العدد ٢٨٣ ـ يونيو ١٩٨٢ .

برامج الثقافة الراقية الجذابة، الممتعة، للارتقاء بالذوق العام وبنوع المتعة ومستواها، إلى جانب الاف حلقات «الكابوي» التي لا تنتهي؟

ولا ينسى الكاتب ان يتساءل كيف تخصص بلد كانجلترا ما يبلغ عشر ساعات يوميا على قنواتها للبرامج التعليمية و«للجامعة المفتوحة» وللتدريب على اكتساب مهارات جديدة؟ في حين لا يحدث ذلك في بلادنا، وفيها نسب عالية من الامية، ونسب عالية من الايدي العاملة غير المدربة؟

اننا نعيش في عصر تسوده نظرية «التعليم المستمر» فالتطور العلمي، يتسارع بصورة «انقلابية» كل يوم . . ومن العلوم الإنسانية إلى الدراسات العلمية والعملية والتكنولوجية . . إلى آخره . . الكل يتأثر بهذا التغير العلمي الانقلابي، لا التطوري فحسب وبالتالي فمن الميكانيكي إلى المهندس إلى عالم الاجتماع . . الكل محتاج إلى أن يتعلم باستمرار، والتليفزيون يلعب دورا مهما في هذا كله: فمن آلة الحدادة والنجارة البسيطة التي يستخدمها العامل . . إلى الكمبيوتر، يظهر كل يوم جديد، وبالتالي فالتليفزيون يشرح هذا للملايين، بالصوت والصورة في مواعيد خاصة . الأمر الذي يجعل المجتمع كله في حالة «تعليم مستمر» .

في بلادنا . . من المحيط إلى الخليج . . مازال اهم برنامج تعليمي . واحيانا الوحيد ـ هو ركن الاسرة ـ تحت اسماء مختلفة ـ الذي يعلم ربة البيت طريقة طهي الملوخية والشركسية!

* وإذا شهد المرء ندوات سياسية مفتوحة للاحزاب، يجد النقاش على اشده، وتعدد الآراء يأخذ اقصى مداه، مهما كانت الظروف القائمة .

فانجلترا ـ مثلا ـ تراها ذاهبة إلى الحرب . . وإن بدت القضية لنا تافهة او تتعلق بجزر فوكلاند . . ولكن الحرب اخطر ما تمر به بلد على أي حال . . لأنها ارواح ستقضى وأموال طائلة ستنفق وشرف الأمة كلها معلق بالميزان . . ولكن رغم التيار العارم، يعبر القلة القليلة عن رأيهم دون أن يرجموا بالحجارة . الاسطول يخرج إلى البحر . . والناس في غمرة حماس هائل . . والحكومة مهددة بالسقوط . . ولكن إذا اجتمع مائة وساروا في قلب المدينة يحملون اعلاما ورايات ضد الحرب، فهم يسيرون في حماية البوليس . وهم من جانبهم لم

يخرجوا لقلب الحكومة ولا لتحطيم الفوانيس.

وفي فرنسا تمر قوانين التأميم بصعوبات برلمانية وشعبية ودستورية شديدة.. ولكن الحكم في اخر المناقشات والضغوط لسلطات ومؤسسات الدولة الدستورية الشرعية. وقد تفقد الحكومة شعبيتها وتهبط نسبة تأييدها بين الناس طبقا لاستقصاءات الرأي العام ـ ولكن من جهة ـ فان من حقها ان تنفذ ارادتها طيلة مدتها الدستورية، ومن جهة اخرى فانها تستمع وتتأثر بشدة الى تغيرات ترمومتر الرأي العام هذا الذي تسجله الاستقصاءات.

ويعجب المرء كيف يصل عدد المتعطلين عن العمل من فرنسا وانجلترا إلى ثلاثة ملايين عاطل.. دون ان تحدث ثورة، فالرقم هائل لم يحدث منذ الحرب العالمية.. والناس هناك تعودوا مستوى من المعيشة يصعب النزول عنه.. والثورة لا تحدث لأن التعديات التي استوعبها النظام الرأسمالي بعد الحرب العالمية جعلت الضمانات والتأمينات الاجتماعية تخفف وطأة البطالة وهو ثمن يدفعه المجتمع كله طبعا.. ولان مناقشة ارقام البطالة وحقائقها واسبابها تدور علينا وباستمرار، ولا مجال فيها للسرية، ولا محاولة للتزوير.

ان الديموقراطية ليست حرية كتابة مقالات، ان الديمقراطية اساسا هي حق معرفة المعلومات: الدولة تنشر الرقم الرسمي لعدد المتعطلين رسميا. وتضيف متوقعة زيادتها وتذيع نسبة ارتفاع التضخم والغلاء ونسبة زيادة الصادرات على الواردات أو العكس. وهكذا.

لا يخطر على البال كتم المعلومات الدقيقة عن الناس، وابعد عن البال والخيال ان تكذب الحكومة في رقم من الارقام. ولو طلبت الحكومة ـ السياسية ـ من اجهزة الدولة ان تغير رقما لما اطاعها احد. لأنها مسئولية أجسم واخطر من أن يتحملها الا الراغب في الانتحار الأدبي والمعنوي. وهذه الدرجة من النضج السياسي والاجتماعي «والمؤسسي» هي التي تجعل الصراع مهما كانت عنيفا يدور في قنوات شرعية، رغم ان الموضوع يمس اخطر موضوع في حياة مجتمع.

ذلك ان هذا النضج، والانفتاح على الحقائق والمشاركة، ذلك كله يجعل المسئولية حقا مشتركة، وان كل حزب وكل تيار كان شريكا في كل وقت بحيث

لا يمكن لوم فريق اكثر من فريق . . ولكن لا يمكن «تجريم» فريق بالكامل . لأن احدا لم يكن غائبا عن الساحة . . انما قال كل كلمته واتخذ الشعب قراره . . يخطئ ويصيب . . ولكنه خطأ وصواب المجموع العام وهناك المخطئ طبعا دائما . ولكن ليس هناك المذنب الملعون .

وحين . . وحين . . وحين . .

فالكاتب يأكل ويشرب ويتنفس لحساب سن القلم الصغير الذي يحمله في جيبه أو في قلبه اينما ذهب لا يستطيع أن ينسى همومه وشواغله ويسلم نفسه خالصة ، إلى ساعة راحة مع رواية ، أو متعة أمام مسرحية ، او استنشاق هواء طبيعي نما في غابة شاسعة فانقى الهواء يختلط في رئتيه بغبار حياة بلاده وقضاياها وهمومها وطموحاتها .

فما بالنا بالوقفات الكبيرة ، التي يذهب الكاتب قاصدا اياها ، متعمدا الوقوف عندها؟

* رحلة التي لابد منها ، في باريس ، إلى «سان ميشيل» ، وما حول السوربون ، في مكتبات .

بعد جولة في أول مكتبة استهلكت ما لدي من طاقة ، جلست على أول مقهى ، مع زميلي في الجولة ، الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي ، وقلت له :

ـ مستحيل ! هذا عصر غير عصرنا ! اي شيء نقرأ واي شيء نترك؟ . . ان ضخامة المكتبات وغزارة الكتب وتجددها اليومي ، ليس جديدا ولا غريبا . . ورد الفعل السنوي المبهج الشارح للصدر المحرك للعقل ، الشاحن للمهمة . . لم يتغير منذ لقيت هذا المنظر لأول مرة قبل ربع قرن . . صحيح ان الإنسان يتقدم في السن ، وتغلبه سنة الايام على امره . . فيقل نهمة ، وتضعف شهيته ، وتقل قوة معدته . . ويصبح كمن اصابته الامراض فصار يقف امام المائدة الشهية الحافلة ، ولكنه لا يقوى على الاكل ، انما ربما على التذوق فقط .

ولكن المسألة اكثر من ذلك ، فالعالم عندما انكمش حجمه صار صغيرا بحكم وسائل الاتصال انعكس هذا على الثقافة كما انعكس على كل شيء .

قلت مستطردا للشاعر احمد عبدالمعطي حجازي ، وقد وضعت خدي على يدي : اساتذتنا الكبار ، عندما جاءوا يدرسون في باريس . كان إذا اراد احدهم

ان يتخصص في الشعر مثلا . لا يحتاج إلى اكثر من معرفة عشرين شاعرا فرنسيا وانجليزيا والمانيا . . الان، صار العالم كله واقفا على المسرح . . واجهزة الترجمة ذات الكفاءةالعالية والسرعة الهائلة في عاصمة النور صارت تضع امامك الف شاعر. من الياباني إلى الهندي إلى الإفريقي إلى الأمريكي اللاتيني . . اليس هذا ما رأيناه في قسم الشعر فقط في هذه المكتبة وحدها؟ كم شاعرا اذن عليك أن تدرسه وتكون على صلة بحركة الشعر وتياراته؟

ونفس الشيء . . ألم نجده في قسم القصة والرواية؟ وفي قسم العلوم السياسية والاقتصادية وفي قسم الفلسفة؟ وكل هذا تحت سقف دكان كتب واحد؟!

الا ترى، يا صديقي ان مهمة السابقين كانت أهون بكثير من مهمتنا؟ والا ترى ان مهمة الذين أتوا وسوف يأتون بعدنا أصعب بكثير؟ أو لعلها تكون شبه مستحيلة؟

كيف يكون فلان استاذا في فن الشعر، وانا اختار اقل الفروع انتاجا لخصوصيتها؟ ستقول لي: التخصص يزداد. فسيكون الواحد مثلا استاذا في شعر امريكا اللاتينية فقط مثلا . . ولكن هذا ليس ردا شافيا . . لانه مهما . . ركز على نقطة فهو لن يكتسب عمق التجربة وقدرة الحكم دون إلمام بفن الشعر بوجه عام . . فما بالنا بسائر الفروع؟ في الآداب والفنون والعلوم وغيرها؟

«الثورة المعلوماتية» ـ حتى في جانب الآداب والفنون والفكر ـ جعلت العالم كله واقفا على مسرح واحد . . في متناول يدك، ايا كان اختصاصك، لا عذر لك في عدم المعرفة، والمجهود المطلوب هائل . . !

أممكن هذا؟ أم اننا على عتبات عالم جديد، سيجد حلولا جديدة لمشاكله الجديدة؟ واننا نرى نهاية «عالمنا»؟

هل ـ يا تري ـ المسئولون فينا مدركون ذلك؟ . . المسئولون عن اجيالنا الجديدة، التي قد تخرج وتنشأ في «عالمنا» ولكنها تجد نفسها، بعد قليل في عالم جديد . . غير مهيأة له؟

وقلت لأحمد عبدالمعطي حجازي، ونحن نغادر المقهى: قم بنا ليس امامنا الا أن نستكمل رحلتنا . . وان نبذل جهدنا . . في أن نبقي على سطح الموج

الهائل . . بقدر ما تسمح لنا قدرتنا على السباحة .

*الزيارات المقصودة مسبقا ايضا ، لبعض مراكز الدراسات في الجامعة ، او معاهد الابحاث . . المهتمة اساسا بشئون العالم العربي بشكل أو بآخر ، سياسيا ، او اقتصاديا او ثقافيا .

في العالم العربي ، اشعر احيانا اننا في كلامنا وتصرفاتنا نبالغ في اهميتنا في العالم خارج العالم العربي ، وخصوصا في مثل هذه المراكز المتخصصة ، يشعر المرء بالعكس : اننا لا نشعر بالدرجة الكافية بأهمية وطننا العربي بالنسبة للعالم .

فالعدد الهائل من المطبوعات والدراسات المتخصصة ، والندوات ، وحلقات البحث عن كل شيء عن العالم العربي . . امر لا سابق له بالنسبة لي ، وهو امر لا يدعو الى الفخر ولكنه يدعو الى الاحساس بالمسئولية الثقيلة .

*البترول : زاد انتاجه أو نقص ، ارتفعت اسعاره أو انخفضت ، فاض أوشح انه قصة محورية للخمسين سنة المقبلة لا مهرب منها ، وبالتالي لا مهرب «منا» ولا مفر من الاهتمام «بنا» .

*فوائض المالية العربية ، والأرصدة المالية المركزة بشكل غير مسبوق في ايد وبلاد محدودة ، بالنسبة للعالم الكبير : وضع بالنسبة لهم اعقد من ذنب الضب . يصالحونه؟ يحاربونه؟ يستوعبونه؟ يشاركونه؟ . . امكانات من الكر والفر ، وافكار من الطيب إلى الخبيب إلى المدمر الخطير . . تدور في العقول ، وتدخل الآلات الحاسبة وتخرج منها ، وتراقب وتتابع كما يراقب الموضوع في غرفة العناية المركزة «لا تغفل عنه العين . .

*ثم الصحوة الاسلامية ، والمد الجديد بين الشباب . . يلقي بهم في غياهب جديدة ويلقون كل ما تعلموه عنا وفهمونا من خلاله خلال قرون الاستعمار الماضية : من هم هؤلاء العرب اهل واصحاب وسكان هذه المنطقة الحيوية من العالم؟ اي تفاعلات يمكن التنبؤ بها؟ ما هي ابعادها واعماقها؟ عرفنا من اي آبار يخرج البترول ، فمن أي آبار تخرج الموجات الجديدة؟ . وتدور ندوات وحلقات التحليل والتنقيب والتأليف . . هل هي موجة سياسية محلية متدثرة بشعار الدين؟ . . هل هي مقدمات مواجهة اسلامية غربية تتجدد فيها

سيناريوهات الحروب الصليبية؟ . . هل يحمل هذا العداء والاحتياط الشك كما يقول البعض؟ . . هل الفرصة في الرشيد وشارلمان . . ولا ـ كما يرى امثال» روجيه جارودي و«جاك بيرك» ـ لما وقعت الحروب الصليبية . . ولما وقعت اوربا قبل ذلك في ظلام العصور الوسطى الطويل . . ومحاكم التفتيش . . الامر الذي فوت فرصة انتقال الحضارة «سلميا» من العرب إلى اوربا . . كما استفاد العرب قبل من حضارة الاغريق . . دون العقد التي اخرت هذه الاستفادة قرونا . . ودونتها الحضارة العالمية كلها .

يفحصوننا تاريخيا واجتماعيا ونفسيا وفلسفيا بالمجهر وبكل وسائل التحليل، محاولين النفاذ إلى اعماق تكويننا النفسي . . واثر لقائنا بالحضارة الحديثة . . وردود الفعل والتقلصات الممكنة، وأيها آلام المرض القديم؟ وأيها آلام المخاض الجديد؟

لا يكفي ان نكلم انفسنا هنا . .

علينا ان نكون هناك : للمعرفة، للتصحيح، وللمشاركة، وللاستفادة . . وعيون الآخرين . ترى احيانا ما يراه الإنسان في نفسه .

لقرن مضى، كان اي باحث لابد ان يرجع إلى المراجع الاجنبية ليعرف مكاننا من العالم . . هل لابد ان يتكرر هذا، لقرن آخر مقبل؟

*على أن القارئ قد يدهش، اذا قلت له ان وقفتي الاساسية، لساعات طوال طيلة ايام الرحلة كانت على موضوع علمي تكنولجي، لعلي اشرت إليه من قبل في هذا المكان اكثر من مرة، وهو : الثورة المعلوماتية . . والصناعات المعلوماتية . . إلى آخره .

لقد اخذت معي قائمة طويلة بالكلمات الجديدة التي اتابعها بالقراءة، واسأل فيها من اعرفهم من العلميين، لأحاول دراستها على الطبيعة . . بعد ان فرضت نفسها على اهتماماتي ـ منذ سنوات . . كلمات مثل : الميكروكومبيوتر، الميكروشيب، والبيوتكنولوجي، الميكروبروسيسور . . إلى آخره .

ولعل غيري يستطيع أن يركز على شرح هذه الاشياء في حد ذاتها . . وغيرها كثير . .

ولكن وقفتي طبعا لم تكن عند الناحية العلمية المحضة . . ولـكـن كـانـت لتعقب الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية الخطيرة التي بدأت تتركها في العلم المتقدم، وسوف تنعكس على حياتنا بأسرع مما نتصور، وباخطر مما نتصور . .

العالم الثالث ببساطة مرشح لأن يكون . . العالم العاشر!!

ويكفي أن نرى بلادا كانجلترا وفرنسا تحارب بأيديها واسنانها . . حتى تضمن اللحاق باليابان والولايات المتحدة في هذا المجال . . وإلا فإنها سوف تسـقـط إلى درجة أقل من مستوى شعوب ودول العالم الأول . . ويفوتها القطار .

ان حكومة تاتشر التي تقتطع من الميزانية كل شيء ممكن . . من لبن الأطفال في المدارس إلى اغلاق بعض الكليات . . لم تخفض الميزانية مليما واحدا فـي مجال وحيد هو : البحث العلمي .

وقد انشأت لأول مرة وزارة للصناعات المعلوماتية .

واكبر انجاز حدث في انجلترا هو قرار أعلنته الحكومة، أو تعهد اخذته على نفسها : انه في خلال سنة سيكون في كل مدرسة انجليزية «ميكروكومبيوتـر» . لأن الثورة هنا نوعية لا كمية .

ولما لم يشب الشباب من سن الصبا، على ألفة ومعرفة وتعود على التعامل مع أوليات العالم الجديد، فلن يلحقوا بهذا العالم ابدا .

وقد قدرت استثمارات انجلترا ـ وعائداتها ـ في هذه الصناعات في السنوات الخمس المقبلة بانها ستكون اكبر واهم من نفط بحر الشمال .

وقد اخذت عنوان هذا الحديث من برنامج يومي في التليفزيون الانجليـزي عنوانه «المستقـبـل وصـل The Future is Here»، يهز اعصاب الإنجليـز وينبههم إلى أن قصص الخيال العلمي صارت متخلفة . وان المستـقـبـل صـار موجودا في بعض المدن في أمريكا واليابان .

هذه الثورة ببساطة ستغير الانتاج الصناعي . وستلغي وتقلب مشاكل اليـد العاملة، وستجعل الفرد قادرا على معرفة كل ما يهمه في العلم في ثوان . وهو في بيته أو وهو في مكتبه وستتغير صورة الصحافة تماما . وستختفي كثيـر مـن وسائل الاتصال الاخرى . حتى الزوجة في بيتها لديها تلك الشاشة الصغيـرة

التي تدير بها شئون بيتها، وتتصل بالمحلات، وتختار مشترياتها وتدفع ثمنها، دون أن تترك مقعدها.

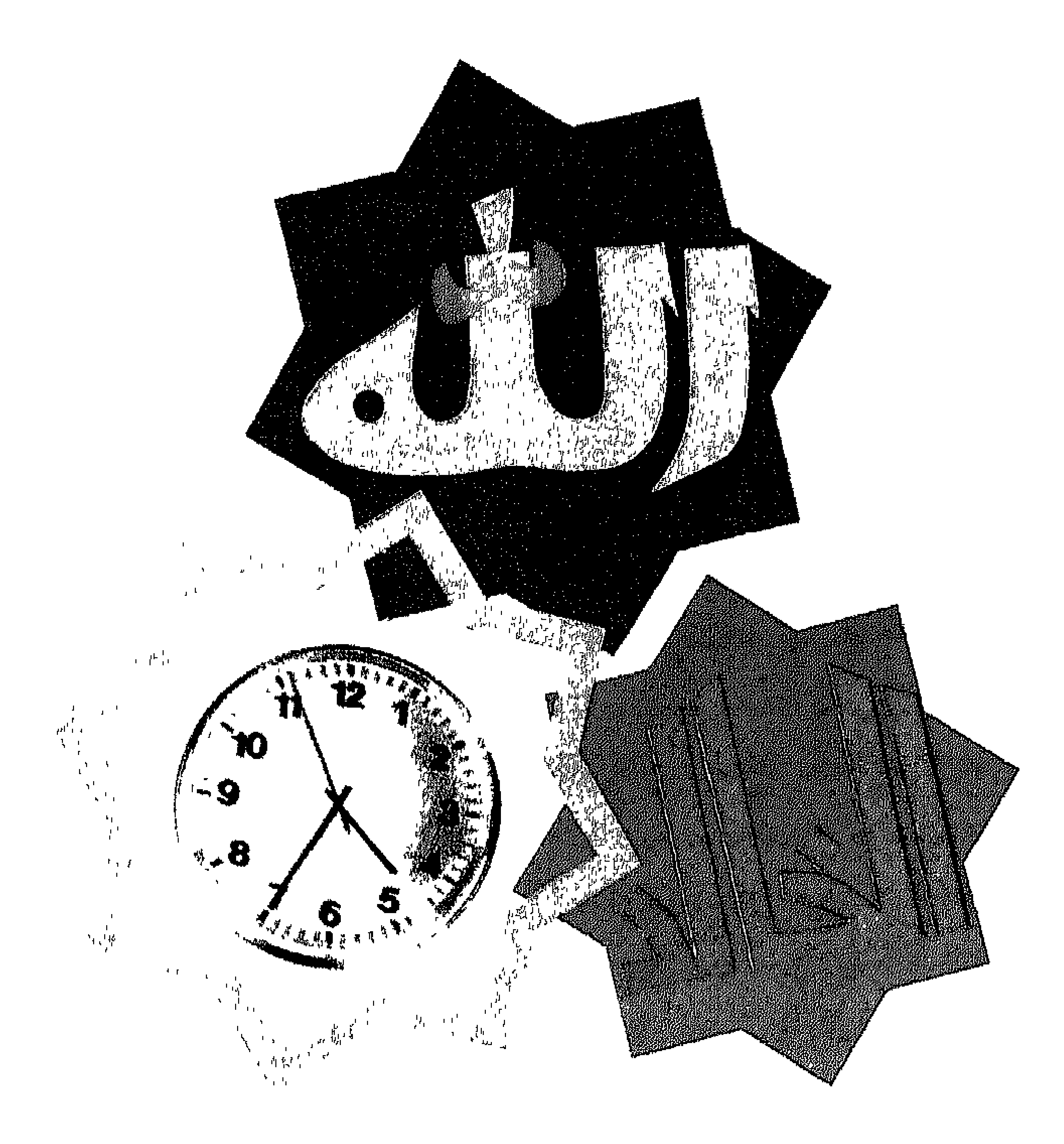
وهذا مثل تبسيطي . .

ولكن الدراسات التنبئية هائلة . . والأبحاث المستقبلة لا آخر لها.

كمثال آخر اهم قليلا : هناك دراسة اقتصادية تقول : ان كل الصناعات التي هاجرت إلى العالم الثالث بحثا عن الأيدي الرخيصة ـ البرازيل إلى كوريا وهونج كونج والهند . . . الخ مهددة بان تعود إلى أوربا وأمريكا، إذا تم تخفيض عدد الأيدي العاملة إلى واحد على مائة من المطلوب حاليا. فلا تعود للأيدي العاملة الرخيصة ميزة، وبالتالي يعود العالم الثالث خطوات خطيرة إلى الوراء.

ولكن تلك قضايا كبيرة، تخرج عن مجال هذا العرض السريع رحلة الخريف.

***



.. عيد بأية حال عدت يا عيد *

كل عام وأنتم بخير . . .

فمع أول هذا الشهر ، ينتهي عيد الفطر المبارك ، بعد أن سبقه شهر رمضان الكريم . وشهر رمضان ، وعيد الفطر ، من المناسبات التي تذكر المسلمين في كل انحاء الأرض بما يجمع بينهم لا بما يفرقهم . وتذكر العرب أيضا وبالذات بما يجمع بينهم ، لا بما يفرقهم . .

فالدين الإسلامي ، حين نزل على هذه الأمة ، واتخذ لغتها لغة لقرآنه ، كان يهدف إلى حكمة أسمى من أن لا نأخذ من الدين الحنيف إلا طقوسه وحدها . وبهذا المنطق فانه ليس يكفي في هذه الأمة أن نصوم رمضان ، ونحتفل بعده بعيد الفطر .

فالطقوس دائما تخدم هدفا . وحين يصوم المسلمون جميعا في شهر واحد ، ويفطرون في موعد واحد . . فلاشك أنه من صفات هذه الحكمة ، أن يتذكر المسلمون ما يجمع بينهم ، لا ما يفرقهم . .

ولكننا رأينا الأمة العربية ـ وأغلبيتها الساحقة من المسلمين ، وحتى غيرهم من أهل الكتاب قد صهرهم التراث الإسلامي ـ اقول رأينا الأمة العربية تمر بالشهر المعظم والصراعات بين الدول التي قامت في هذه الأمة على أشدها ، والخلافات بينها مستحكمة ، والقطيعة بين أوصالها تفاجئنا كل يوم في مكان مختلف من بين أرجائها .

. . ونردد قول شاعرنا المتنبي : عيد بأية حال عدت يا عيد !

فلاشك أن العيد إذا كان حمل إلينا ـ أو إلى بعضنا ـ بهجة خاصة ، ومسرات

---

* العربي ـ العدد ٢١٥ ـ أكتوبر ١٩٧٦ .

شخصية، إلا أنه لم يحمل إلينا، أو إلى الذين يتأملون أمور أمتهم، أي شيء يحمل على البهجة، أو لا يدعو إلى الحزن والأسى.

وفي أكتوبر هذا، ترد مناسبة اخرى من نوع آخر، مناسبة دنيوية، ولكنها أيضا تذكرنا أو يجب أن تذكرنا نحن العرب بما يجمع بيننا، لا بما يفرقنا.

إنها مناسبة يوم ٦ أكتوبر، وحرب أكتوبر..

إننا نذكر من ٦ أكتوبر المعارك الباسلة، والانتصارات العسكرية العربية، والهزيمة الإسرائيلية لأول مرة منذ بدأ التخطيط للوطن الصهيوني قبل ثلاثة أرباع القرن. نذكر جيوش مصر وسوريا تحارب في القناة والجولان. ونذكر قوات عربية هرعت إلى خطوط النار من العراق والكويت والسودان والمغرب والجزائر وغيرها. ونذكر امدادات السلاح. وامدادات المواد الاستراتيجية والغذائية. ونذكر القرار الضخم بحظر تصدير البترول وحرمان كل من وقف مع الاعداء منه. ونذكر.. ونذكر..

ولكن حين نلخص هذا كله، فاننا نقول: انه كان لحظة من لحظات التاريخ التي اجتمعت فيها كلمة العرب، وتوحدت ارادتهم.

قد تختلف الأسلحة، وتتراوح السبل والامكانيات، ولكن العبرة الكبرى كانت في وحدة الكلمة، ووحدة الارادة.

يومها اهتز العالم بأكمله. وبدا وكأنه يستيقظ من سبات عميق على حقيقة جديدة: ان ما يتشدق به العرب من وحدة يمكن أن يكون جدا، وأن ما يوحد ارادتهم يمكن أن يصبح حقيقة.

وبدأ العالم كله يعيد حساباته معنا، ويتأمل صورتنا في ضوء جديد، سواء من اراد بنا خيرا أو من أراد بنا شرا، سواء من كان رد فعله أن يكون صديقا لنا، أو من كان رد فعله أن يكون عدوا، متربصا بنا.

في كتابات بن جوريون، مؤسس إسرائيل، إنه منذ بدأ نضاله لتأسيس إسرائيل، ورغم أن العرب كانوا ممزقين محتلين خاضعين، إلا أن هاجسه المستمر كان: ماذا لو قام فيهم من يشبه كمال أتاتورك الذي وحد صفوف الاتراك المنهزمين، يلم شعث العرب ويوحدهم وراءه؟ ماذا يبقى لإسرائيل؟

ولكن هذا كله، كان في عمر الزمن لحظة.

لحظة مرت علينا كالحلم المجيد، وعلى اعدائنا كالكابوس الثقيل، وها هو ٦ اكتوبر يعود بعد ثلاث سنوات فقط، وقد عادت خلافات العرب أشد مما كانت، وتمزقاتهم أعنف، وأدمى . .

ونقول أيضا مع المتنبي . . عيد، بأية حال عدت يا عيد!

في علم التاريخ الحديث، توجد نظرتان مختلفتان إلى تاريخ الأمة العربية . .

هناك من يرى أن تاريخ الأمة العربية خلال ١٤٠٠ سنة، أي منذ وحد الإسلام دينها وتراثها ولغتها وقيمها، الأصل فيه ـ في هذا التاريخ الطويل ـ هو التوحد لا التعدد، والتوافق لا التنافر . بدليل تلك المئات الطويلة من السنين، التي كانت الأمة العربية فيها تدعو في كل عواصمها لخليفة واحد، سواء كان أمويا أو عباسيا أو فاطميا أو عثمانيا .

وهناك من يرى العكس تماما . ويقول هذا الفريق من المؤرخين، إن الأصل في تاريخ الأمة العربية هو التعدد لا التوحد، وهو التنافر لا التوافق .

فمعظم فترات الخلافة الواحدة كانت سلطة الخلافة فيها شكلية، معنوية، في حين كانت الدول تقوم وتسقط في مختلف أطراف العالم العربي، والامارات والولايات تتحارب . وكثيرا ما كان التناحر بينهم اقوى من التناحر مع خصم مشترك لهم، كملوك الطوائف الذين فقدوا الأندلس عن هذا الطريق، وكالتصدعات التي حدثت في قلب المشرق العربي أبان الحروب الصليبية، فكنا نرى من يحارب أخاه العربي المسلم ولو متحالفا مع الغزاة القادمين من أوربا .

وفي احد مؤلفاته، نجد أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل السابق، وهو استاذ تاريخ بحكم مهنته الأصلية، يضغط على منطق هذه النظرة الثانية حتى النهاية .

فالشرق الأوسط في نظره ـ لأنه يفضل استخدام الاسم الجغرافي السياسي للمنطقة لا الاسم القومي ـ هذا الشرق الأوسط، الذي هو شرقنا العربي، تاريخه تاريخ تعدد وتنوع في كل شيء . أي «موازييك» بالتعبير الانجليزي والفرنسي، وهو ذلك النوع من الحجر المتعدد ألوانه .

تعدد في الأديان . . فكل دين من هذه الأديان انقسم عبر التاريخ إلى مذاهب كثيرة، طالما قامت بينها الخلافات والحروب . حتى أن كنيسة القيامة ـ مثلا ـ فيها مكان للحجاج المسيحيين الكاثوليك، وآخر للبروتستنت . وثالث للارثوذكس . .

في عدد قليل من الأمتار المربعة .

وتعدد في الأجناس . . فهي منطقة متوسطة من العالم ، وزاد من اهميتها قديما انها كانت مهد الأديان ، فتدفقت عليها دائما موجات الغزو وموجات الهجرة على حد سواء . . ففيها القبائل العربية الأصل ، وفيها بقايا الصليبيين الأوربيين ، وفيها من جاءوا من اطراف آسيا ، ومن وفدوا من المغرب الأقصى . . إلى آخره .

وأبا ايبان بالطبع ، كسياسي هنا وليس كأستاذ تاريخ ، يستخلص من ذلك ان قيام دولة يهودية ليس بالأمر الغريب . وليس بالجسم الطارئ على المنطقة ، وليس بالحادثة التاريخية العابرة التي ليس لها سوابق .

ولست من الذين يحبون تملق عواطف القارئ . ولا أرى من المفيد ان نتجاهل الحقائق إذا كانت لا تعجبنا .

ولكن ، مع ذلك ، فان هذا المنطق فيه مغالطة واضحة . .

فالفرق شاسع جدا ، بين التعدد والتنوع ، بالمعنى الذي اعتادته المنطقة كثيرا ، وربما عبر صراعات مضنية راح أوانها ، أي تعدد وتنوع التعايش والتسامح بين الأديان وبين المذاهب وبين الأصول العرقية القديمة التي تذوب مع الزمن في بوتقة حضارية منسجمة ، وبين تعدد بمعنى قيام دولة على اساس الغزو ، وطرد شعب من أرضه ، واستئصاله ، بل ومحاولة ابادته . دولة تقوم فوق ذلك على اساس اسطورة هي وحدة العنصر اليهودي ونقائه ، يستوي في ذلك يهود اليمن ويهود المغرب ويهود بولندا ورومانيا والاتحاد السوفييتي .

دولة إسرائيل ، لا تطرح على المنطقة النوع المألوف فيها من التعدد والتنوع .

فرق بين فئات يهودية كانت تتعايش مع العرب في شتى أقطارهم ، أو حتى كانت تأتي لتعيش بالقرب من أراض مقدسة لديها ، شأنها شأن سائر الاديان والملل والنحل . . وبين «دولة »عنصرية ، مغتصبة ، مغلقة على وهم عنصري وديني ، تعتمد سياسة التوسع والغزو والاستئصال وتريد أن تظل منتمية إلى تراث بعيد جدا عن المنطقة ، آت من أوربا أو أمريكا أو روسيا . بهذا المعنى ستبقى غريبة ، ملفوظة من جسد المنطقة ، حتى ولو عاشت قرونا ، غير صالحة لأن تدخل حتى في منطق التعدد والتنوع الخاص بالمنطقة ، لأنها في الحقيقة رأس حربة غازية ، كما حدث للدويلات اللاتينية التي أقامتها الحروب الصليبية ، حقبة طويلة من الزمان .

أما وقد استبعدنا فكرة التعدد والتنوع في حياة المنطقة العربية، بالمعنى الذي يريد أن يثبته أبا ايبان، وكثيرون غيره من المستشرقين الذين لا يرون العالم العربي الا من منظار معين خاص بهم، فإننا نعود إلى طرق فكرة التعدد والتنوع في ذاتها.. بعيدا عن التزييفات الإسرائيلية والاستشراقية.

إذا كنا نقول بأن الدين الإسلامي، هو أكبر عنصر ساهم في تكوين الأمة العربية، وبناء تراثها، وتشكيل مجموعة القيم الأساسية التي توجه حياتها.. فاننا نلاحظ بعد ذلك أن الدين الإسلامي، جاء ليتجه لا إلى شعب معين أو جنس خاص، بل انه اتجه إلى «الناس كافة».. أي انه افترض قيام التعدد والتنوع من الاساس.. في الذين دخلوا أو سيدخلون في دين الله افواجا.

وفي التعاليم الاسلامية ـ في هذا المجال ـ امران أساسيان، يكمل احدهما الآخر..

المبدأ الأول: هو قال به القرآن الكريم «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا».. وهو ما يؤكد ما سبق ذكره من افتراض تعدد الشعوب، أو الاجناس، أو الجنسيات، أو القوميات.. مهما كان التعبير الشائع في هذا العصر أو ذاك.

والمبدأ الثاني: هو قول القرآن الكريم ايضا «ان اكرمكم عند الله اتقاكم»، وقول النبي صلى الله عليه وسلم «لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى». اي ان تعدد القوميات أو الشعوب، اقلية كانت أو اغلبية، لا يخل بمبدأ المساواة بينها.

معنى هذا ان الاسلام وضع في صميم تراث الأمة العربية القبول بفكرة التعدد والتنوع من ناحية، وعدم اخلال ذلك بحق المساواة بين الفئات المتعددة من ناحية اخرى.

بهذا المعنى، نجد بالفعل، ان تاريخ العالم العربي، هو تاريخ تعدد وتنوع.. فالهجرات متوالية، وحركة السكان على نطاق واسع لم تنقطع عبر العصور بين شتى ارجاء الارض العربية، ففي الشام والعراق نجد قبائل جاءت من الجزيرة العربية واندمجت في سكان البلاد الأصليين، وفي مصر نجد قبائل عربية جاءت حتى قبل الإسلام، وجاء إليها الفاطميون من المغرب، والأيوبيون من آسيا، والمماليك من جبال جورجيا وغيرها.. عناصر صهرتها كلها مصر.

وبقيت في كثير من البلاد العربية اقليات دينية أو عنصرية، بقيت لها

«خصوصيتها» في اشياء كثيرة، ولكنها تكلمت كلها اللغة العربية، وتأثرت كلها بالتراث العربي المشترك، فكان التعدد هنا عنصر اثراء لحياة الأمة وعاداتها وتقاليدها، وليس عنصر اضعاف.

وهذا هو المهم . .

فالذين يحاولون التأكيد على الفوارق في الأصول الضاربة في التاريخ ويحاولون ان يجعلوا هذه الفوارق مبررا لعمليات التقسيم والتجزئة في الأمة العربية، هم الذين يسيرون ضد حركة التاريخ. وهم الذين يريدون بهذه الأمة وبهذه المنطقة شرا. هذا معنى ما يدعو اليه ابا ايبان حين يقول ان تاريخ المنطقة تاريخ تعدد وتنوع، وما قصد اليه بعض مفكري الانعزاليين في احداث لبنان، حين حاولوا استرجاع صفات فينيقية أو غيرها، مما تراكمت فوقه عبر العصور طبقات فوق طبقات من التغيرات السياسية والاجتماعية، حتى صارت «بالتعبير الجيولوجي» اشبه بحفريات قديمة مدفونة في باطن الأرض.

والدعوة الصهيونية، في جوهرها، هي هذه الدعوة، وهدفها من تفتيت الأمة العربية هو هذا الهدف.

كذلك، فان الذين يتجاهلون وجود هذا التعدد والتنوع، ويرفضونه، إنما يتجاهلون الواقع.

اما السبيل الذي نراه صحيحا لهذه الأمة . . فهو القائل بأن وجود التعدد والتنوع، الاغلبيات والاقليات، في شتى انحاء الأمة العربية، امر موجود، ومصدر غنى واثراء لأمتنا . . ولكننا في نفس الوقت لا نعمل على تعميق هذه الفوارق، ولكن نعمل ايجابيا ـ وانطلاقا من روح المساواة التي جاء بها القرآن ـ على تفاعل هذا التعدد وانصهاره، بشكل صحي، وتلقائي، في اطار من حرية العقيدة، وحرية الرأي، وان الافضل بيننا هو الأتقى.

لقد تأسست الصناعة الحربية العربية من مساهمة عدة دول عربية مؤسسة للصناعات الحربية العربية.

وحتى الآن لا نعرف عن نشاط هذه المؤسسة شيئا . . وليس من المفروض ان نعرف الا بعد مضي وقت كاف، يسمح بظهور النتائج.

ولكن هذا الموضوع اتذكره دائما، حين اقرأ عن انجازات اسرائيل وبالذات في

هذا المجال .

فاسرائيل ، في شعورها السوداوي ، بأنه مهما كان لها من اصدقاء ، فانها عرضة لان تقف يوما بمفردها دون صديق ، انطلقت من يوم قيامها ، في البدء بانشاء صناعات حربية خاصة بها ، مهما كانت صغيرة ، أو تكميلية .

فهي تسبقنا ، زمنيا ، في هذا المجال ، بما يقرب من عشرين سنة .

ولكن العبرة المهمة ، هي ان اسرائيل ركزت في هذا الجانب العسكري ، على تصنيع الاجهزة الدقيقة المستقبلية ، التي ستكون هي التي تحدد قيمة السلاح وفعاليته ، في المستقبل .

وإلى جانب الهدف العسكري ، وهو الاساس ، كانت تحرص على أن تقيم صناعاتها العسكرية ، قدر الامكان ، على أسس اقتصادية سليمة ايضا . . حتى لا يكون ما تنفقه مجرد مال يتبدد في الهواء .

ركزت أولا على السلاح العادي الخفيف ، اداة كل جندي مهما كان ، فانتجت رشاش «عوزي» واتقنت صناعته حتى صارت دول اوربية كثيرة ـ فضلا عن دول من العالم الثالث ـ تشتريه لجيوشها .

ولعلنا لم ننس بعد ، يوم انطلقت رصاصة طائشة من رشاش احد جنود الحراسة ، في طائرة كيسنجر خلال رحلاته المكوكية بين عواصم الشرق الأوسط ، فقد ظهر انه رشاش عوزي . . ودهش الناس حين علموا انه حتى اجهزة الحراسة الامريكية السرية تستخدم هذا الرشاش .

وركزت إسرائيل دائما على اجهزة التوجيه والتصويب وغيرها من الأجهزة الالكترونية الشديدة التعقيد ، والتي هي مجال التنافس الحقيقي بين الدول صانعة السلاح اليوم ، لأنها الأساس في فعالية اي سلاح من الدبابة إلى المدفع إلى الطائرة والصاروخ .

ومنذ قامت إسرائيل ركزت على صناعة الطيران ، بوصفه اخطر واهم اسلحة المستقبل . وركزت صفوة علمائها فيها ، وفيما يلحق بها مما ذكرناه من اجهزة الكترونية ، حتى صار هذا النوع من الصناعات هو اكبر صناعة في إسرائل كلها ، من حيث المال الموظف فيه ، ومن حيث عدد العاملين ، وايضا من حيث قيمته في التصدير .

فقد تمكنت إسرائيل أولا من صنع الطائرة «آرافا» . . طائرة نقل عسكرية صغيرة، لا تحتاج لمطارات كبيرة، ويمكن ان تستخدم في النقل المدني، كما يمكن ان تستخدم في عمليات اخرى مثل رش المبيدات على الحقول المزروعة، وكانت عينها في هذا على امكانية تصديرها إلى كثير من البلاد الجديدة في اسيا وافريقيا، حيث تنعدم وسائل النقل البري، وحيث يهتمون برش الأدوية والمبيدات.

ومنذ اسابيع اعلن عن انتاج إسرائيل لقاذفة مقاتلة عسكرية هي الطائرة «كفير». وهذه الطائرة هي التي ارتكبوا بسببها حادث سرقة رسوم واسرار طائرة الميراج الفرنسية، عن طريق سويسرا، حيث جرت المحاكمة المشهورة حول هذا الموضوع. وقد بدأت اسرائيل في بيع هذه الطائرة لدولة جنوب افريقيا العنصرية، التي يضيق من حولها حبل المقاطعة الاقتصادية والعسكرية يوما بعد يوم.

صحيح ان اسرائيل تستعين في هذا التقدم بسرقة ادق اسرار الصناعة الحديثة من الخبراء اليهود المنتشرين في انحاء العالم، ورسميا، وسريا، من دول غربية كثيرة، وصحيح أيضا ان لديها نسبة عالية من العلماء والعمال الفنيين.

ولكن المؤكد ان البلاد العربية لديها من الخبراء العلميين في هذه المجالات من لا يقلون عددا ولا نوعا عما لدى اسرائيل. ولكن المسألة هي مسألة «تنظيم علمي» للعمل، ووضع جدول اولويات سليم يطابق حاجات الدول العربية بالذات، والربط بين الخبراء العسكريين والخبراء المدنيين في هذا المجال واعطائهم نفس درجة الثقة. فقد فشلت محاولات سابقة أو تعثرت في بلاد عربية لا لسبب الا لانعدام هذا التخطيط، وهذا التنظيم العلمي للعمل، المنزه عن الهوى، الذي يتمكن من الافادة من كل طاقة في مكانها الصحيح.

قدرت الدوائر المالية الغربية مجموع ما انفقته الدول العربية على شراء الاسلحة بمبلغ ثمانية الاف مليون دولار في سنة واحدة.

وهذا الرقم طبعا، يمثل ما اشترته الدول العربية من الاسواق الأوربية والأمريكية للسلاح. ولا يدخل فيه قيمة ما اشترته هذه الدول من الاتحاد السوفييتي أو المعسكر الشرقي. وان كان ليس من الاسراف ان نقدر ما انفق في هذا السوق بما لا يقل عن نصف ما انفق في السوق الغربية، اي اربعة الاف مليون دولار اخرى.

ومعنى ذلك ان ما انفقته الدول العربية من اموال على شراء الاسلحة بلغ ١٢

ألف مليون دولار خلال سنة واحدة.

أي الف مليون دولار في الشهر!

ونحن طبعا نعيش في عالم حافل بالاخطار! ومن جيران العرب من يتسلحون حتى الأسنان! وفي قلب عالم العرب اسرائيل المدججة بالسلاح، والتي مازالت تحتل اراضي اكثر من دولة عربية!

ومع ذلك، لا يملك المواطن العربي نفسه من التساؤل: كم من هذه الأموال انفق على اسلحة ليس لها ضرورة عملية، وانما تمت تحت وطأة سعي الغرب إلى أن يأخذ منا بالشمال ما نأخذه منه ثمنا للبترول باليمين؟ وكم من هذه الأموال انفق في اطار من «التكامل والتنسيق» العسكري العربي، ولو بدرجة معقولة، وكم منها اهدر لعدم وجود هذا التنسيق، وبالتالي عدم انعكاس بعض هذا السلاح على «مجمل» القوة العربية المسلحة؟ وكم من هذا السلاح ذهب حيث يدفع الاذى عن وطن، او يواجه تهديد عدو خارجي، وكم منه ذهب في التناحر العربي الداخلي؟

لهم في كل انتخابات صفقة كبيرة.. يخرجون بها!

اولئك هم الصهيونيون.. والانتخابات هي انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة.

والأمثلة طبعا اكثر من العد والحصر..

ولكن آخر الأمثلة:

موقف جونسون في التواطؤ ضد العرب في حرب ١٩٦٧، وتعهده المسبق لاسرائيل بأن أي قرار لوقف اطلاق النار من مجلس الأمن، لن يصدر مصحوبا بالعبارة التقليدية وهي «عودة القوات المتحاربة إلى خطوطها السابقة».. مثل هذا في ظل انتخابات آخر سنة ٦٨، قبل ان ينسحب، تحت وطأة فشله في فيتنام.

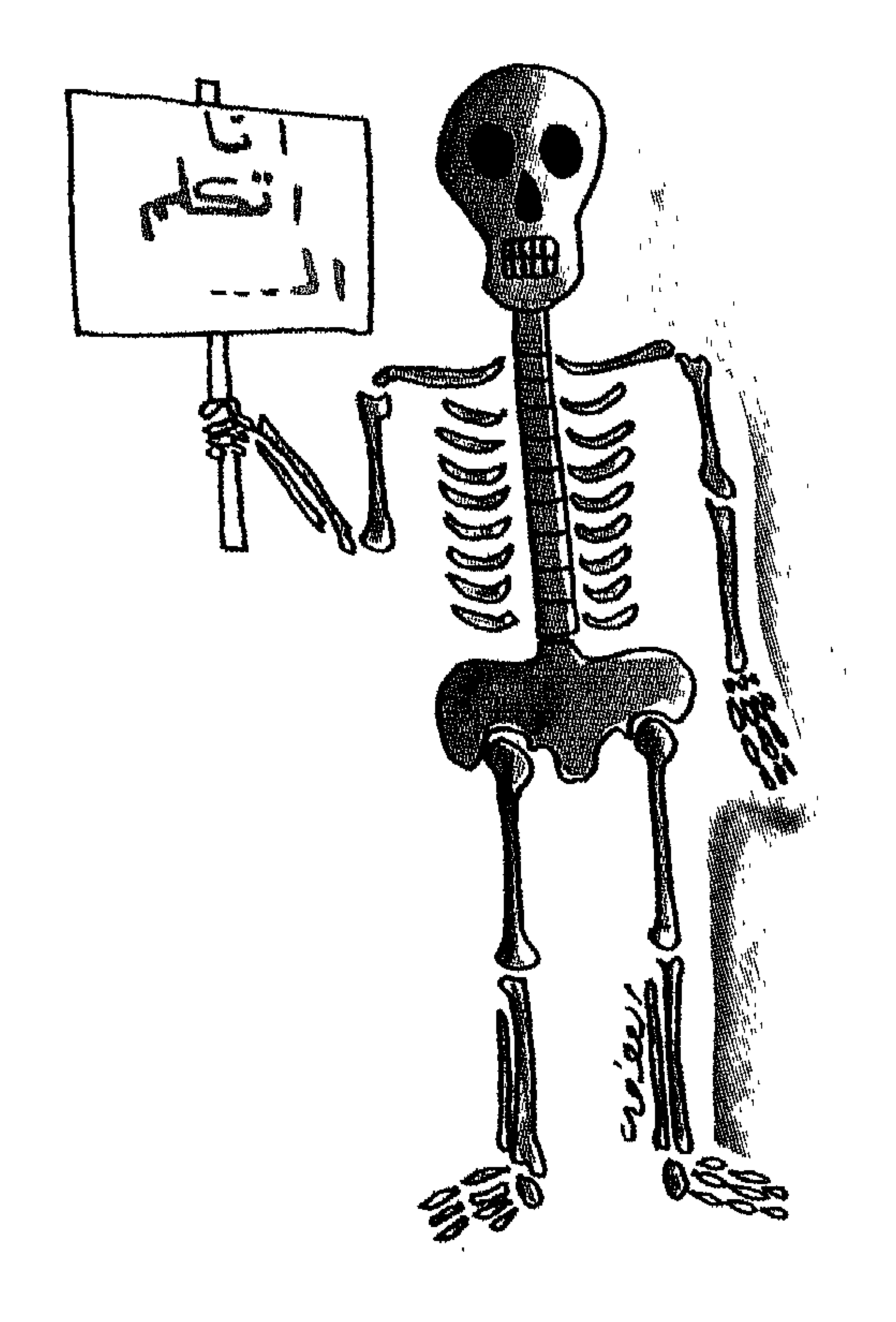
موقف نيكسون في انتخابات سنة ١٩٧٢، حين غير درجة التسليح الأمريكي لإسرائيل تغييرا «نوعيا» فوق التغيير «الكمي» إلى درجة لم يسبق لها مثيل.

الآن وجيرالد فورد في خضم انتخابات ١٩٧٦، يواجهونه بقرارات من الكونجرس تحاول كسر طوق المقاطعة الاقتصادية العربية لإسرائيل.. وعلى موقفه من هذه القرارات، يتوقف موقفهم منه في انتخابات يدخلها مستضعفا!

***

الفصل الثاني

حضارة اللغة


انا
اتكلم
الـ...

اللغة العربية:
سياسة وحضارة واستراتيجية معاً!*

هذا الموضوع يلح على خاطري كثيراً . . .

ولعلي كتبت عنه قبل ذلك، ولكن أحداثاً كثيرة متنوعة تسوقه دائماً إلى ذهني.

ذلك أنه موضوع تعليمي، ثقافي، سياسي، حضاري، فكثير من الأحداث أو الأنباء التي تقع، على اختلافها وعلى تباعدها الشديد، في موضوعاتها وفي مظاهرها، تزيد هذه القضية التي اعتبرها «استراتيجية» في ذهني اشتعالاً.

ولا أملك إلا أن أسأل نفسي: هل مازال العالم العربي، بتمزقاته، وصراعاته، وانشغاله بتوافه يومه، قادراً على أن يخصص من عقله وماله ورجاله، جزءاً يعمل للقضايا ذات الحجم الاستراتيجي الضخم؟ أم أن ما سيقوله أي كاتب في مثل هذه الأمور يعتبر «ترفا» لا نقوى - ونحن مشغولون بما نحن فيه - على التفكير والتدبير والعمل؟ بل مجرد إدراك أهميته؟

إن الموضوع عنوانه «اللغة العربية» ولكن ليس جوهره هنا النحو والصرف والإعراب، ولكن جوهره «اللغة» كسلاح، أو كعنصر استراتيجي، يحيي الأمم ويميتها، ويقيم الحضارات ويهدمها، ويشكل الجغرافيا البشرية والسياسية للعالم.

مثلاً . . . .

تتفاقم قصة الصراع في القرن الأفريقي، فيخطر على بالي، من بين عواملها الكثيرة، قضية اللغة العربية!

أو . . يصدر في دولة باكستان قانون يجعل دراسة اللغة العربية إلزامية كلغة

---

* العربي - العدد ٢٣٣ - أبريل ١٩٧٨

ثانية في كل المدارس، فأتذكر القضية.

أو.. تبدأ الصراعات الدولية في الوصول إلى الحزام الأفريقي، في منطقة «التداخل والتماس» بين العالم العربي والعالم الزنجي، مثل تشاد وغيرها، فأتذكر القضية.

أو.. أتابع تطورات حل مشكلة جنوبي السودان.

أو.. أتلقى دراسة مفصلة، من لندن، عن فرقة «إنجليزية» تخصصت في ترجمة المسرحيات العربية الحديثة - لكاتب مثل الفرد فرج - وتقديمها للجمهور الانجليزي، مشفوعة باقتراح خلاصته «إذا كان العرب يشترون العمارات والفنادق والشركات في إنجلترا وغيرها، فلماذا لا يشترون مسرحاً في لندن؟» تقدم عليه هذه المسرحيات على نطاق واسع، وتعرض عليه الفرق العربية لمليون عربي تقريباً في لندن وما حولها؟ وتفاصيل تبدو أول الأمر طريفة ولكن تأملها يكشف عن جديّتها وأهميتها!

أو.. أتلقى التقرير السنوي للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو العربية) ومحاولتها وضع استراتيجية للثقافة العربية، وما لديها ملاليم، إذا قيس إلى «ما يمكن» أن يكون لديها من ملايين، لو تأملنا الأمر من زاوية أخرى.

هكذا، من صراع عالمي معقد رهيب في القرن الأفريقي، إلى فكرة فردية خلاقة عن مسرح عربي في لندن، حيثما اتجه أو أتابع، أجد هذه القضية تفرض وجودها، قضية اللغة، مرة أخرى، ليس لمجرد أنها لغة نعتز بها، بل بوصف أن اللغة لها تلك الآثار الحياتية في تشكيل العالم، التي أسلفت ذكر بعضها.

إننا نعرف أن القوميات لها مقومات عديدة، من وحدة التراث، ووحدة التكوين النفسي، والتلاحم الجغرافي، إلى آخره، ولكن لعل أستاذنا المرحول ساطع الحصري كان أهم من أبرز إن عنصر وحدة اللغة يلعب الدور الأكبر بين هذه العناصر كلها في توحيد أمة ما.

ذلك أن اللغة الواحدة هي - من ناحية - عنصر أساسي في حد ذاته، وهذا الأمر لا يحتاج إلى تدليل، ولكنها - من ناحية أخرى - هي المفتاح الأكبر لسائر العناصر. فوحدة التراث والتاريخ - مثلاً - تكون بالتأكيد أقوى وأمنع وأقدر

على مقارعة القرون إذا كانت محفوظة في وعاء لغة واحدة.

والتكوين النفسي الواحد ماذا يصنعه؟ ربما جغرافية واحدة، وبيئة واحدة، وربما أصول تاريخية واحدة، وعقائد واحدة، أو متشابهة، ولكن المؤكد أن عنصر الأدب الواحد والفن الواحد - في أصوله - وأدوات التعبير الواحدة تلعب الدور الأساسي، وهي لا تتوافر إلا بلغة واحدة.

ونحن هنا لا نتحدث عن اللغة فيما يتعلق بالقومية العربية، فلا توجد هنا مشكلة تقريباً، والإحساس بها بديهي، فما كانت الجزائر - مثلاً - لتعود عربية حقاً إلا ببرنامج التعريب الجبار فيها، حتى تجتث جذور مائة وخمسين سنة من محاولات الفرنسة، وطمس اللغة العربية.

ولكننا نتحدث في أوسع من الحدود القومية.

وهنا نجد أن اللغة الواحدة، لا تصنع بالضرورة قومية واحدة.

فإنجلترا - مثلاً - والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا وغيرها لغتها هي الانجليزية. ولكنها ليست قومية واحدة، رغم أنها تكاد تكون من أصل عرقي واحد، ومع ذلك، وهذه هي قضيتنا هنا، لاشك أن وحدة اللغة أوجدت «علاقة خاصة» و «روابط خاصة» بين هذه البلاد على تباعدها الجغرافي الهائل.

ولم أذكر كندا لأنها نموذج أكثر دلالة، فلأن كندا فيها لغتان - إنجليزية وفرنسية - واحتفظت بازدواجية اللغة، ورغم أن كل ظروف العقل والمنطق والمصلحة تقتضي أن تظل كندا بلداً واحداً، إلا أننا نجد الآن، وفي أواخر القرن العشرين، حركة انفصالية عنيفة، من مقاطعة «كويبك» ضد سائر كندا، لأنها المقاطعة الفرنسية اللغة.

مرة أخرى، لأن اللغة ليست مجرد وسيلة تخاطب، اللغة هي وعاء الفكر ووعاء العاطفة معاً، فالفرد الكندي في كويبك لا يتحدث بالفرنسية فقط، إنه «يفكر» بالفرنسية و «يشعر» بالفرنسية، حتى صارت روابط كويبك الثقافية والتعليمية مع فرنسا، عبر المحيط الأطلنطي، أقوى من روابطها مع عاصمة دولتها «أوتاوا».

والأمة العربية تتميز بوضع خاص وفذ.

ذلك أن القرآن - الكتاب المقدس لأغلبيتها الساحقة - نزل باللغة العربية.

وقد امتد الإسلام إلى أمم وشعوب وقوميات أخرى، صحيح أنها لا تتكلم اللغة العربية، ولكن الإسلام حمل إليها بالتأكيد روائح اللغة العربية، ولقحها بها. وجعل لهذه اللغة حتى عند غير أهلها «مكانة» خاصة، وأحياناً «قداسة» خاصة، لأنها لغة كتابهم المقدس.

ونحن نرى، إلى أي حد حاربت دول لتفرض لغتها بالقوة، وأنفقت المال لتفرض لغتها بالإغراء وجاهدت القرون لقلب اللسان المحلي إلى لسان أوربي، ولم يكن هذا حماقة ولا عبثاً، فانتشار اللغة من أقوى أسلحة انتشار النفوذ المعنوي، والمشاركة الوجدانية، والتأثر العقلي.

وحين استقلت أفريقيا مثلاً، صرنا نرى ما يسمى بكتلة أفريقيا الفرنسية، وكتلة أفريقيا الإنجليزية. ليس على أي أساس سوى نوع المستعمر الذي فرض لغته على البلاد التي كان يحتلها. وآثار هذا النفوذ موجودة إلى الآن في التجارة والسياحة والتعليم والنظرة إلى الغد.. إلى آخره.

وما هو الشيء الذي يجعل جريدة إنجليزية، أو وسيلة إعلام غربية كما نقول، لها هذا النفوذ الهائل؟ إنه انتشار لغتها، ووجود من يقرأ بها، في أي عاصمة من عواصم العالم بأجمعه.

والأمة العربية – ليست ككيان سياسي فقط، بل ككيان حضاري أيضاً – لديها فرصة نادرة، لأن تكون لغتها سلاحاً من أمضى أسلحتها في كل معاركها، ووسيلة خلاقة للمساهمة في صراع الحضارات العالمية الراهن.. أو «الحوار بين الحضارات»، إذا شئنا أن نختار التعبير المهذب للمفكر الفرنسي روجيه جارودي.

ولا أريد أن أدخل في بحث لغوي تاريخي معقد عن العائلة التي تنتسب إليها اللغة العربية، ولا عن تأثيرها وتأثرها. فليس هذا ميداني، وهو أمر له أصحابه وأهل العلم فيه، ولكن يمكن القول ببساطة ودون الوقوع في خطأ، إن الشعوب الإسلامية، المتأثرة بالتالي باللغة العربية، تنقسم إلى قسمين.

*شعوب لها قوميات قديمة، ولغة حضارة حية، يتكلم بها عدد كاف من الناس، مثل إيران.

*وشعوب لها لغات مشتتة، أحياناً غير مكتوبة أو مستوعبة للغة الحضارة، كشأن الكثير من مناطق آسيا وأفريقيا المبعثرة، التي كانت إلى وقت قريب قبائل

وليست دولاً ولا شعوباً بالمعنى الكامل.

ولنتأمل، على سبيل المثال، الحرب القائمة في القرن الأفريقي، والتي وصل المشتركون فيها من روسيا شرقاً إلى كوبا غرباً، أو المال الأمريكي والسلاح الأمريكي من قبل ومن بعد، وفي منطقة حساسة جداً بالنسبة لما نسميه «العالم العربي».

«لقد احتلت إيطاليا الصومال وأثيوبيا وأريتريا معاً زمناً طويلاً، انتهى بانتهاء الحرب العالمية الثانية.

وفي الصومال، استقرت اللغة الإيطالية، وأريد لها أن تمحو اللغة العربية تماماً، كما حاولت فرنسا في الجزائر، إدراكاً من تلك الدول الأوربية أن إقامة حاجز اللغة هو إقامة الساتر الحديدي الطبيعي وصومالاً فرنسياً وصومالاً إنجليزياً وصومالاً أثيوبياً هو مقاطعة أوجادين.

وبعد الحرب الثانية، أضيف لأثيوبيا - فوق الأوجادين - أريتريا.

وعادت فرنسا إلى الصومال الفرنسي «جيبوتي»، ووضع الصومال الرئيسي - الإيطالي - تحت وصاية الأمم المتحدة لفترة يعقبه الاستقلال.

ومثلت الأمم المتحدة بلجنة ثلاثية: مصري وإيطالي وإنجليزي.

وأهم معركة دارت خلال وصاية الأمم المتحدة كانت حول اللغة. فتقرير نوع اللغة التي سيتحدث ويتعلم بها الشعب هو من تقرير هويته واتجاهه الحضاري وتكوينه النفسي.

وكان همّ الغرب أن يختار الصوماليون اللغة الإيطالية، فهي لغة أوربية على أي حال، وبصماتها بعد الاحتلال كانت قوية، وكل شباب الصومال كانوا لا يتعلمون إلا في جامعات إيطاليا، ولكن الرغبة الشعبية العارمة كانت اختيار اللغة العربية، ولأن مندوب مصر في لجنة الوصاية الدولية كشف كل المناورات، قتل اغتيالاً، ومات السفير كمال الدين صلاح شهيداً لهذه القضية، وأقام الشعب له تمثالاً في عاصمة الصومال.

وكانت مطاردة اللغة العربية هدفاً أهم، فأوجد الغرب من يدعون إلى اللغة السواحلية، تحت ستار إثارة نعرة إقليمية، ورغم أن الاستفتاء دل على تفضيل الشعب للغة العربية، فقد آثر الغرب تقرير اللغة السواحلية، أملاً في انقراض العربية هناك ذات يوم.

وحين دخلت الصومال، جامعة الدول العربية، كان يجب أن يطلب منها الارتباط ببرنامج تعريب، لأنها جامعة دول «عربية».

ولأن أثيوبيا لم تنتبه إلى أهمية القضية كأوربا، فقد عاشت اللغة العربية - مع السواحلية - في الأوجادين خمسين سنة، والصورة نفسها، مع اختلاف في طول الفترة، في أريتريا.

ومن اتصل بهذه الحركات، وقابل زعاماتها، وشبابها المثقف، يعرف أن اللغة العربية كانت بالنسبة لهم أحد أقوى الروابط والوشائج وحوافز الأمل في التحرر واسترداد شخصيتهم.

وإنني لأسمح لنفسي أن أروي، أنني منذ سنوات، وقبل قيام هذه الصراعات بأشكالها الحالية، حين كان السودان على وشك الانقسام في الحرب في الجنوب، في تلك السنوات، قلت لبعض زعماء وحكام الدول العربية، الذين لديهم الإمكانات الهائلة: إن هناك خدمة بسيطة جداً، ولكن أثرها الاستراتيجي بالنسبة للأمة العربية، والأمن العربي، لا يقدّر بثمن، وهو الاتفاق، والنضال، من أجل نشر اللغة العربية، على طول الحزام الاسلامي في أفريقيا، وحيث لا توجد لغات محلية متكاملة.

السنغال.. مالي.. وسط أفريقيا.. تشاد.. غينيا... شمالي غانا ونيجيريا، جنوبي السودان المسيحي، الصومال بفروعه المبعثرة.

هذا الحزام، كان من حظي أن أذهب إلى بعض مناطقه، في أول أيام استقلال تلك المناطق، وانهدام الحاجز الذي كان يمنعنا منعاً من الذهاب إليه، ورأيت لهفة الناس إلى اللغة العربية، لغة كتابهم المقدس، لغة عباداتهم وصلواتهم، وأحياناً لغة جيرانهم الأقدمين وشركائهم في التجارة عبر طرق القوافل التي شقها العرب قديماً.

هذه اللغة أقرب إليهم، وأسهل لهم، ولم تفرض يوماً بالقوة عليهم، إنها ليست الإنجليزية ولا الفرنسية ولا الإيطالية ولا الألمانية مما تعاقب عليهم.

وقد حاولت بعض الدول العربية محاولات محدودة في هذا المجال، ولكن وجه الخطأ كان في أنها ركّزت على تدريس اللغة فقط، أو تدريس الدين فقط.

ولكن من زار هذه البلاد - ميدانياً - يجد أن هذه الشعوب على درجة من

التخلف تجعل الناس فيها محتاجين أشد الحاجة إلى ما يغير حياتهم، ومن هذه الزاوية، دخلت إسرائيل في تلك الأيام بسهولة ويسر: كانت تعلم الناس حرفاً يدوية تلائم البيئة، أو طرقاً حديثة مبسطة لزراعة الأرض بالغة الخصوبة، فيتغير مستوى الفرد ودخله ووضعه، بينما من تعلم اللغة فقط وترك كما هو في الغابة لم يستفد شيئاً.

ثم إنها، على أي حال، كانت مجهودات قليلة وتجريبية تقريباً.

ومن هنا، فيما أذكر، نشأت فكرة تطوير الأزهر في مصر، ليخرج منه رجل الدين واللغة والعلم معاً: الطب مثلاً ليعالج أو الهندسة الزراعية ليعلم، إلى جانب تلبية حاجات الناس الروحية المعنوية المتعطشين إليها تعطشاً شديداً، ولكن الأمر في تطوير الأزهر خرج عن فكرته الأولى، وتحوّل إلى جامعة أخرى بين الجامعات العديدة. ولكن الآن، وقد توفر للعرب المال الهائل، وقد افتتحت أفريقيا وآسيا أمامهم، وأقبلت عليهم، فلا يعود لنا عذر في هذا المجال.

وأن المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة تبحث حقاً في هذا، وتتلمس وضع استراتيجية لها، ولكن بملاليم؟

إن نصف الملايين التي تنفق في شراء السلع حتى الأسلحة القديمة، لا تحقق الفوائد الاستراتيجية التي يحققها استخدام سلاح اللغة العربية في آسيا وأفريقيا إلى أقصى مداه.

لا يكفي أن نستصدر قرارات من الأمم المتحدة ومنظماتها باعتماد اللغة العربية لغة رسمية من اللغات العالمية.

المهم أن نجعل هذا واقعاً أقوى، وأقوى، كل يوم.

من بنجلاديش شرقاً، إلى الشاطئ الأفريقي غرباً، أرض وشعوب أخصب ما تكون لتلقي اللغة العربية وتحويلها إلى لغة أصلية لها مع الزمن.

وهذا نضال وكفاح لا يقل شرفاً عن أي نضال آخر، في صراع الحضارات الراهن والمستقبل أو، مرة أخرى، في حوار الحضارات كما يحب أن يقول روجيه جارودي.

وهذا كله وجه واحد من وجوه سلاح اللغة، هو واجب، وهو مسئولية أيضاً، وهو عمل حضاري فوق كل شيء، وللأمر وجوه أخرى كثيرة.



اللغة العربية حين نريدها سلاحاً سياسياً واستراتيجياً وحضارياً ! *

هذا موضوع أحب أن أعود إليه من حين إلى آخر، إحساساً مني بقيمته العميقة، وأنه في تقديري نوع من الأعمال الكبرى التي تحول مجرى التاريخ، كالمعجزات الكبرى، وتحويل مجاري الأنهار، وزوال حضارات وقيام حضارات.

ولا بأس من التكرار في بعض القضايا المهمة، فالتكرار هو وسيلة أي دعوة على أي حال، بدءاً من الدعوة إلى مذهب سياسي، وانتهاء بـ«الدعاية» لماركة من ماركات السيارات أو التلفزيون.

ورغم أن الموضوع خاص باللغة العربية، إلا أنه ليس موضوعاً لغوياً ولا أدبياً، ولكنه موضوع سياسي وحضاري، وما اللغة فيه إلا أداة.

واللغة على أي حال - في شتى العصور واللغات - هي دائماً أداة، إنها وسيلة لا غاية، حتى إذا نظرنا إليها من منطق أهل البلاغة والفصاحة - قبل أن يغضب أحدهم - فإن البلاغة في اللغة أداة لحسن التعبير، وإتقان توصيل الفكرة أو العقيدة، وهذه هي بلاغة عصور النهضة، في حين كانت البلاغة، تصبح هدفاً في حد ذاتها، في عصور الانحطاط، فحين يتبارى الناس في اللغة من أجل اللغة، معناه إفلاس في الفكر والعلم اللذين خلقت اللغة كأداة لتوصيلهما.

تماماً كالذي يركب السيارة - مثلاً - للوصول إلى هدف، والذي يركب

---

* العربي - العدد ٢٧٨ - يناير ١٩٨٢

سيارة لمجرد إظهار قدراته البهلوانية على القيادة لا غير.

وأحياناً لا يشعر الناس بالشيء القريب، الميسّر، المعمول به يومياً، حتى ولو كان أهم وأخطر شيء، كالهواء الذي نستنشقه ونعتبره بالتالي أبسط الأشياء رغم أنه مادة الحياة.

وفي هذا المجال، نجد أن اللغة أبرز هذا النوع من الأشياء في صنع الحياة والحضارة، ولكن لأننا نتعلمها بالولادة والنمو، ونستعلمها يومياً في كل شيء، لا نلتفت أحياناً إلى أن اللغة هي أحد أهم الأشياء التي شكلت تاريخ الحضارة الإنسانية، ورسمت مجرى التاريخ: أكثر مائة مرة مما ساهمت به الجيوش، والأسلحة الباهظة، والحروب الكبرى.

فاللغة كانت أداة الرسالات السماوية، والمذاهب الدنيوية، والمعاملات الإنسانية حتى شتى درجاتها ومستوياتها، إنها «العملة» الأبدية الأزلية المتداولة بين الناس جميعاً، وإذا كانت الآية الكريمة تقول «وجعلنا من الماء كل شيء حي»، فاللغة خلقت من الحضارات والفنون والعلوم كل شيء حي. اللغة أقامت حضارات وماتت مع حضارات، وملأت صفحات، سعتها بالقرون.

وعندما نقول إن القومية الواحدة عمادها عادة تاريخ واحد، وتراث واحد، وجغرافيا متصلة، ولغة واحدة، أذكر دائماً كيف كان المرحوم ساطع الحصري - أبو القومية العربية الحديثة - يتعصب بشدة لعنصر اللغة بالذات، ويعتبر أنه الأول والأهم بين كل العناصر الأخرى في كيان أي قومية.

وهذا صحيح بالتأكيد، ولكن ليس هذا هو الموضوع الذي نريد أن نخوض في تفاصيله، وإن كان التسليم بهذه الحقيقة هو حجر الزاوية في هذا الحديث.

وقد كان من حظ الأمة العربية أن نزل فيها القرآن باللغة العربية المبينة، فخلق اللغة خلقاً وجددها تجديداً وغير منطق الفصاحة والبلاغة والتأثير نهائياً، ثم نزل القرآن نصوصاً محفوظة وتم تدوينها في وقت مبكر، فاكتسبت اللغة العربية بالذات قداسة ليست لأي لغة، واستمرارية ليست لأي لغة، وهذا ليس ضد التجديد الضروري في اللغة، ولا ضد حقيقة هبوط

مستوى تعبير العرب باللغة هبوطاً وارتفاعاً تبعاً لنهوضهم وتخلفهم، فقد كانت اللغة المستعملة تصل أحياناً إلى أدنى درجات الركاكة، ولكن لم تتحلل تحت كل الظروف الباهظة إلى لغات مندثرة «متباينة» حيث ظل القرآن دائماً حافظاً وعاصماً لها ينتظر لحظة العودة إليه.

ولو استعرضنا ما مرّ على الأمة العربية من امبراطوريات ومن استبداد ومن اضمحلال ومن تمزق ومن عصور مظلمة، لتأكد لنا أنه لولا هذه اللغة، وأساسها الذي صار مقدّساً لا يمس، لما كانت هناك أمة عربية الآن على الإطلاق، وبهذا الإتساع، وبهذه القابلية التي لا حدّ لها لاستيعاب أهم ما فاتنا، وأحدث ما يفوتنا، من علوم الحضارة.

والذي يعيدني إلى هذا الموضوع اليوم، ومن زاوية محددة واحدة سوف أصل إليها بعد قليل - المؤتمر الذي ساهمت بالحضور فيه أو الذي انعقد منذ أسابيع قليلة في تونس، في إطار نشاطات «المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة» المنبثقة عن جامعة الدول العربية، أي «اليونسكو» العربية.

وقد كان اجتماعاً تأسيسياً، حضره عدة مئات من المثقفين العرب، تحت عنوان واسع كبير هو «تخطيط التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية».

ولن أغرق القارئ في تفاصيل هذا العنوان الذي كتبت فيه المنظمة مجلدات، وامتلأت حقائبنا بما قدمته من وثائق ودراسات، ذلك أن الدكتور محيي الدين صابر - رئيس المنظمة - ومساعديه يكافحون منذ سنوات لعمل شيء متكامل في هذا الموضوع، يكفي أن نذكر أن العمل لعقد المؤتمر بدأ سنة ١٩٧٦، ولكن عجلة عمل الأجهزة العربية المشتركة - بعشرين دولة وعشرين رأي وعشرين ألف اعتبار - عجلة بطيئة، والدول لا تعطي في هذه المجالات تفويضات حاسمة لمنظماتها المشتركة.

لن أغرق القارئ في تفاصيل هذا العنوان الواسع الكبير، والبرامج المتشابكة فيه، فقد اعترضت على ذلك في المؤتمر نفسه، لأنني أوثر عادة أسلوب اختيار مهمات قليلة محددة، لاجتماعات سريعة محددة، كأسلوب واقعي للإنجاز.

ولكنني سأقف بالقارئ فقط عند نقطة واحدة، لا لأنني أثرتها في المؤتمر بشيء من العنف المرتجل غير المقصود، ولكن لأنني حدثت القارئ عنها قبل ذلك طويلاً، ولأنها تدخل فيما ذكرت عن فكرة «التصويب على هدف استراتيجي واحد عميق التأثير»، إلى جانب الانتشار على ساحة واسعة من المهمات، ولأنها - كما قلت في أول الحديث - ليست قضية لغة، ولكن قضية سياسة وحضارة وانعكاس حاد على مقادير الأمة العربية على المدى الطويل.

فمن المعروف أن اللغة العربية خرجت من موطنها الأصلي، رافعة أعجوبتها القرآنية، إلى أنحاء مترامية من العالم، تحت راية الإسلام.

وبعض الشعوب قبلت الإسلام، وثبت فيها، ولكن دون أن تثبت فيها معه اللغة العربية، وبعض الشعوب قبلت الإسلام، وقبلت معه اللغة العربية، وثبت الاثنان فيها، ومن هذه الشعوب التي ثبت فيها الاثنان، تتكون ما نسميه الأمة العربية.

ولا اعتراض على هذا، فالإسلام دين وبالتالي فهو للناس كافة، والعربية لغة وبالتالي فهي ليست بالضرورة للناس كافة.

ولكن المؤكد أن المناطق التي ثبتت فيها اللغة العربية، حتى بمن فيها من غير المسلمين، الذين صارت العربية لغتهم، هي التي صارت الأمة العربية بأديانها المتعددة، وهي التي صارت في الوقت نفسه البذرة الصلبة للوجود الإسلامي ذاته.

فالعروبة فضلاً عن أهميتها في حفظ أمة العرب بكل ما فيها ومن فيها، فهي أيضاً كانت المعقل الأساسي للإسلام في مدّه وجزره.

لذلك، لم تكن حرب الاستعمار على اللغة العربية هيّنة ولا متساهلة، فقد طوردت الثقافة العربية - ووسيلتها الأولى اللغة - مطاردة عنيفة، أحياناً من بعض الامبراطوريات الإسلامية ذاتها التي لم تفطن إلى دور اللغة العربية الحاسم، كالامبراطورية التركية مثلاً، ولكن في معظم الأحيان من الإمبراطوريات التي لا هي عربية ولا مسلمة.

والخطوة التي أدعو إليها الآن وأرى كل الظروف مواتية لها، بل موجبة

لها، ليست «تعريب» العالم الإسلامي كله من الصين إلى روسيا إلى آخر الأرض.

ولكن فقط، أن «نسترد» إلى العروبة، الشعوب التي قبلت الإسلام واللغة العربية معاً، والتي فقدت بعد ذلك لغتها العربية لا طواعية واختياراً، ولكن بالقهر والعنف والمطاردة وأعواد المشانق.

وقد حدث هذا في أفريقيا بالتحديد.

فالإسلام - والعروبة - بعد أن غطى الساحل الأفريقي الشمالي كله على البحر الأبيض المتوسط، وغطى الساحل الأفريقي الشرقي كله على البحر الأحمر حتى آخره، استطاع أن يقاوم في تلك المناطق بحكم أن البلاد المطلة على البحار عادة بلاد حضارات قديمة، وبالتالي تكون لها عادة مناعة وقوة مقاومة أكثر من غيرها من البلاد المغلقة داخل أرضية مغلقة من كل جانب.

فشاطئ البحر الأبيض المتوسط، كان دائماً حيّاً عبر آلاف السنين رغم مواجهته لأوربا بأسرها، وشاطئ البحر الأحمر الأفريقي، كان يحميه إلى حد كبير أن الشاطئ الآخر عربي مسلم، فالبحر الأحمر في الواقع بحر عربي كامل من كل جوانبه.

ولكن سائر أفريقيا، المفتوحة على المحيط الأطلنطي، الخاضعة أمواجه للغرب منذ مئات السنين، هوجمت من هذا الشاطئ المفتوح، وعبر بلاد ليس لها مقومات الكيانات الاجتماعية الراسخة العريقة، ثم نفذت الغزوات إلى ما وراء ذلك من قلب القارة المغلق إلا أمام طريق القوافل القديمة البدائية، فتآكلت فيه اللغة العربية.

وعندما تمت لأوربا - في عصر النهضة ثم البخار وسيادة البخار.. إلخ، - السيطرة على أفريقيا، حاربت عروبة هذه الشعوب التي كانت قد تعرّبت بالفعل وأخذت تجتث اللغة العربية اجتثاثاً من الأرض، صاعدة بذلك إلى الشمال، حتى حاولت ذلك على شاطئ البحر الأبيض نفسه، فحاولت «فرنسة» الجزائر - مثلاً - حتى كادت تقضي على اللغة العربية فيها تماماً، لولا اصطدامها بمقاومة عنيفة كانت قمتها ثورة هائلة خالدة جبّارة دامت سبع سنوات، ومات فيها مليون شهيد، قبل أن تستقل الجزائر وتبدأ بنفسها رحلة

التعريب من جديد.

وأذكر أنني عندما زرت تونس لأول مرة - بعد استقلالها مباشرة - أنني زرت منطقة السوق القديم جداً - «القصبة المغطاة الموجودة في كل بلد عربي قديم» - وهناك دخلت مباني قديمة جداً، وأنزلوني إلى سراديب تحت الأرض فيها، كانت تخزّن فيها الكتب العربية القديمة سراً عن المحتلين وكأنها قنابل، وتعطى فيها دروس اللغة العربية وكأنها عمليات انقلابية، إذ لم يكن ممكناً أن يتعاطى الشعب لغته، ويعلّمها أبناءه تحت سمع وبصر المحتلين.

وقد تراجعت موجة الغزو هذه أمام حركات الاستقلال العربية الحديثة، وعاد الشاطئ الأفريقي كله إلى لغته العربية.

تحت هذا الشاطئ، الصحاري الكبرى وما يسمى جنوب الصحراء، يوجد حزام أفريقي هائل يمتد من السنغال غرباً على المحيط الأطلنطي، إلى الصومال شرقاً على المحيط الهندي.

هذا الحزام الأفريقي الضخم كان مسلماً وعربياً، وقد ظل معظمه مسلماً ولكنه فقد عروبته، فقد عروبته لأنه فقد لغته العربية، وكان عليه عبر القرون إما أن يعود إلى اللهجات القبائلية غير المكتوبة والتي لا تصلح لأن تكون لغة حضارة، وإما أن يتعلم الإنجليزية أو الفرنسية، أو الإيطالية، في حالة الصومال، وصار اسمها في القواميس «أفريقيا الإنجليزية وأفريقيا الفرنسية»، ومازال هذا هو حال معظمها إلى الآن، حتى بعد الاستقلال.

ما الاقتراح ببساطة؟

تركيز الجهود العربية، والمال العربي المطلوب، لإعادة تعليم هذه الشعوب اللغة العربية فقط لا غير لاسترداد هذه الشعوب لعروبتها بوسائل حضارية، لا حربية ولا انقلابية!

ما معنى هذا لو تم؟

سياسياً، واستراتيجياً: سوف يمتد العمق العربي، أتوماتيكياً من الشريط الضيق المحصور بين الشاطئ والصحراء، إلى أكثر من نصف القارة الأفريقية كلها.

ولن أقول إن هذه ستكون إضافة هائلة إلى العالم العربي، حتى لا يكون

القول وكأنه محاولة ضم لدول قد تكون لها اتجاهات أخرى، ولكن سأقول إنه في أقل القليل سيكون حزاماً واقياً ضخماً، عربياً، يحيط بجنوب الأمة العربية مهما كانت توجهات تلك الدول السياسية.

فعودة تلك الشعوب إلى اللغة العربية فحسب، سيجعلها أتوماتيكياً وواقعياً تقرأ الصحف العربية، والكتب العربية، وتسمع الإذاعات العربية، وترسل خريجيها إلى الجامعات العربية.

هذا نشاط ثقافي مشروع ومقبول ولن يعترض عليه أحد، ولكنه في الوقت نفسه هدف سياسي استراتيجي ضخم، يعيد رسم مجرى الأحداث لقرون مقبلة، في غير مجرياتها المنحرفة لقرون ماضية.

وما لا ندركه تماماً بعد أن العمل السياسي ليس فقط السياسة بمعناها المباشر.

ولكن خلق حقائق ثقافية واجتماعية ومادية جديدة، هي أيضاً عمل سياسي، غير مباشر، نعم، ولكنه هو الذي يقوم بتشكيل السياسة بعد ذلك تلقائياً.

فهو بالتالي عمل سياسي بالمعنى الاستراتيجي بعيد المدى، حاسم الأثر، العميق في النتيجة، الذي يسمى في لغة العصر بـ «الاستراتيجية العليا».

لقد انكمشت إنجلترا إلى جزيرتها الصغيرة والخمسة والخمسين مليون إنجليزي.

ولكن أهم ما بقي من الإمبراطورية أن اللغة الإنجليزية صارت اللغة الأولى في العالم، واللغة الأساسية لشعوب غير إنجليزية على الإطلاق، كالهند حيث يفهم الهنود كلهم لغة واحدة مشتركة هي اللغة الإنجليزية، ونصف أفريقيا السوداء.

وبالتالي بقيت المدارس الإنجليزية، والصحف الإنجليزية هي الأقوى تأثيراً في العالم، وإذاعة الـB.B.C الإنجليزية هي أكثر ما يرهف لها العالم سمعه. إلى آخره.

والآثار السياسية والاقتصادية والحضارية لهذا لا تحتاج إلى بيان.

بعكس اللغة الألمانية مثلاً - التي تساويها كلغة حضارة وتتفوق عليها

كلغة فلسفة - ولكن ليس لها هذا الوجود.

وعندما كان الإنجليز في أوج امبراطوريتهم يقولون «لو اختارت إنجلترا بين الهند وشكسبير لاختارت شكسبير!»، لم يكن هذا كلاماً إنشائياً، كان حقيقة ومازال حقيقة، ضاعت الهند ولم يضع شكسبير، انسحبت الجيوش وشجبت الأساطيل ولم ينسحب شكسبير ولم يشجب.

نسأل العربي في أي مكان من الأرض: مَن شاعرك المفضل؟

فيرد عليك مثلاً: المتنبي! لا يفكر لحظة واحدة إذا كان المتنبي قد عاش في حلب أو جاء من أي قطر، وهذه حقيقة ليست أدبية، بل سياسية أيضاً.

وحين نضيف إلى هؤلاء مئات ملايين الأفريقيين الذين يقولون يوماً: شاعرنا هو المتنبي، أو شوقي، أو امرؤ القيس، فهذا تحوّل سياسي حضاري تاريخي خطير.

وقد كان من حظي أنني زرت كثيراً من هذه البلاد، وعرفت الناس فيها، من الزعماء الكبار والحكام، إلى باعة الفاكهة في الأسواق الفقيرة، ووصلت إلى «تومبوكتو!».

وعرفت معرفة شخصية، الأشواق الهائلة لدى هذه الشعوب إلى اللغة العربية، وإلى العروبة، وإلى معرفة لغة دينهم.

كنت أسير في الأسواق، فإذا عرف العامة أنني عربي قادم من مدينة الجامع الأزهر، أحاطوا بي، لا حفاوة فقط، بل تبرّكاً، يمسحون ثيابي ثم يمسحون وجوههم، فاللغة العربية - لأنها لغة دينهم - مقدسة، ومن يتكلمها كأنه من الأولياء الذين يتبرّكون بهم.

كنت أحياناً أهرب من الأسواق حين أشعر أن الرجال والنساء البسطاء يعاملونني وكأنني «ضريح متنقل»، لا ينقصهم إلا أن يربطوا في عنقي وأطرافي أحجبتهم وأدعيتهم!

إذن؟

ليكن هذا المشروع مشروعاً خاصاً، محدداً، قائماً بذاته، هدفاً نصوب إليه مجموعة جهود من زوايا مختلفة، تصل إلى اتجاه واحد.

لتكن هذه ساحة معركة حضارية، تمدينية، راقية ومحترمة ومقبولة

نستطيع أن نخوضها دون قتال ولا صراع ولكنها معركة تاريخية الأثر .

لتكن هذه قضية يبذل لها من المال ، نصف ما نبذله من مال على سلاح للتكديس والتخزين ولن يكون له الأثر نفسه .

لتكن جبهة لا يجد فيها العرب خلافاً بينهم ، ولا انقساماً بين صفوفهم ، يحققون فيها نتائج سوف تظلهم جميعاً بظلالها الوارفة الكثيفة ، القريب منهم والبعيد .

وفي ذلك ، فليتنافس المتنافسون !

***



كلمات فقدت سمعتها في حياة لغتنا الجميلة!*

اللغة لم تكن أبداً «محايدة»، والكلمة الواحدة قد تستخدم في مجال يحمل كل معاني الجدّية، وأحياناً تصبح من كثرة استخدامها في غير موضعها، تحمل لدى الناس كل معاني السخرية، والكلمة في مجال قد يكون لها وزن الذهب، وقد يكون لها وزن الريشة.

ولعل سخاء اللغة العربية الشديد، هو الذي دفعنا نحن العرب إلى الإنفاق من هذه اللغة بإسراف شديد، فالكلمة الواحدة لها عشرات المترادفات، وإذا ألقينا كلمة في أتون الأحداث، واحترقت من فرط تكرارها دون معنى مقصود، فاللغة تسعفنا بعشرات المترادفات، فنحن لا نخشى عجزاً ما في هذا النوع من «العملة».

وإذا كانت الكلمات من «القاموس السياسي» للغة، فهي أكثر عرضة للتلف، ذلك أنها كثيراً ما تكون عرضة للاستخدام الخاطئ المتعمّد من رجال السياسة أو الكتابة، أو للاستخدام في مجرد تخدير الرأي العام، فتفقد أعزّ الكلمات معناها أو بمعنى أصح، تفقد «وقعها» على النفس، وهي القيمة الأساسية للكلمة.

ونأخذ على ذلك أمثلة من كلمات كبيرة مثل «الوحدة» أو «الثورة» أو «الديمقراطية».

كلمات كبيرة جداً لكن بعضها لحقه «الإجهاد» من كثرة الاستعمال اللغوي،

---

* العربي - العدد ٢٥٣ - ديسمبر ١٩٧٩

وانعدام الاستعمال الفعلي!

قبل عشرين سنة – مثلاً – كانت كلمة «الوحدة» تحرّك أعمق المشاعر لدى الجماهير، ولكن الآن، وقد فشلت أكثر من وحدة، وصار كل تقارب يسمى وحدة، وليس على مستوى الأقطار فقط، ففي داخل القطر الواحد صار حتى تحقيق الوحدة الداخلية أمراً مطلوباً وعزيزاً أو صارت الوحدة الوطنية – لا القومية – بعيدة المنال كما في لبنان وغيرها.

وإذا تركنا الوحدة بمعناها السياسي الدولي، نجد أنه يكاد لا يوجد مشروع اقتصادي واحد، له طابع التكامل الوحدوي، رأى النور حتى الآن، رغم توقيعات الدول العربية المختلفة عليه.

وفي الخليج – مثلاً – نسمع دائماً عن وحدة العملة الخليجية، وهو أمر يكاد يكون بديهياً، خصوصاً من الناحية الاقتصادية المصلحية وليست السياسية، فدول الخليج روابطها وثيقة جداً، وأهلها أبناء عمومة بكل المعاني النفسية والتاريخية، واقتصادها كلها يقوم على سلعة أساسية واحدة هي البترول، فهذا نوع من الوحدة يتم بقرار لا غير.

لم تعد لكلمة «الوحدة» إذن سخونتها القديمة، صارت لا تحرّك شعرة في رأس مواطن عربي، الكل يتحدث عن الوحدة، فلا يوجد في الظاهر من هو معها ومن هو ضدها، لم تعد تثير نقاشاً ولا بحثاً ولا عراكاً، وضعت في الثلاجة العميقة، وهذا أحسن الممكن على أي حال، حتى تبقى صالحة للاستعمال ربما بعد وقت طويل، بدلاً من أن تفسد نهائياً.

والشيء نفسه، لحق كلمة «الثورة»، صارت في لغتنا وصفاً يطلق على أول دبابة تصل محطة الإذاعة، وتعلن البيان رقم واحد! وصارت في أفئدة الناس العاديين مرادفة لأي حكم عسكري!

وأيضاً كلمة ديمقراطية، ألا يوجد لها عشرون تطبيقاً على الأقل؟ هل يسمى أي نظام نفسه بغير هذا الوصف؟ وأنواع الديمقراطية لابدّ لها أن تتمدد، فلن يصلح للعالم كله ديمقراطية واحدة، ولكن ألا تحتاج كل «ديمقراطية» احتراماً للكلمة إلى تعريف وثيق لها في كل مكان، يمكن حساب أهلها عليه؟

على أنني أريد أن أقف أساساً في هذا الحديث، عند نوع آخر من الكلمات

التي «فقدت سمعتها» بطريقة أخرى، بالطعن فيها والسخرية منها وتشويهها، هذه كلمات فقدت سمعتها بنوع من الإرهاب الفكري، حتى صارت خافضة جناحها من الذل أمام صيحات كصيحات الهنود الحمر، الذين إذا لاحت لهم، رشقوها بكل ما لديهم من سهام.

كلمات مثل: «الموضوعية» و «الواقعية» و «العقلانية».. هذه الكلمات – مع الأسف – فقدت سمعتها تحت وطأة الإرهاب الفكري الهائل.

إرهاب فكري ساد فترة من الزمن خلاصته: أن من لا يتبع الرأي «السائد» إعلامياً فهو متخاذل! وأن المطلوب من الكتاب هو ترديد الشعارات دون محاولة الذهاب إلى أبعد من ذلك خشية «بلبلة الجماهير»، كأن الجماهير في مرحلة طفولة، ولابد من شغلها عمّا حولها بالزعيق والصراخ فهي لا تفرح أو لا تصلح إلا لهذه الألعاب النارية الملوّنة! وبالطبع: من يزيد في الضجة المتزايدة ومن يطلق فرقعات مدوية ملونة أكثر، هو الذي يفوز بأكبر عدد من المتجمعين في «مدينة الملاهي» الصاخبة!

في هذا الجو، كان لابد أن تداس بالأقدام كلمات مثل «الموضوعية» و «الواقعية» و «العقلانية».

وفي الوقت نفسه، لابد أن نسجل أن هذه الكلمات «فقدت سمعتها» بسبب نوع آخر مقابل من الممارسة الرديئة فعلاً.

فقد عرف التاريخ العربي الحديث طوال الخمسين عاماً الماضية – من قاموا فعلاً بأدوار الهزيمة والاستسلام والتقاعس، وأطلقوا على أفعالهم تلك كلمات «الواقعية» و «الموضوعية» و «العقلانية».

الأمر الذي هو كفيل – وحده – بأن يكفر الرأي العام بهذه الكلمات، أو يضعها في غير موضعها الصحيح من القاموس، ومعه الحق.

ولكن، هل معنى ذلك أن نسقط هذه الكلمات من قاموسنا، وننزع الصفحات التي تتكلم عنها من كتبنا، ونمحوها محواً من العقل العربي.

مستحيل.

وهذه معركة يجب أن يخوضها كل ذي مسئولية، وكل ذي فكر، حتى لو تعرّض لإطلاق النار من الجانبين في وقت واحد، من جانب الغوغائية

والديماجوجية النشيطة، ومن جانب الانهزامية الحقيقية المتخاذلة، وأنا أقصد الغوغائية والانهزامية ليس في مجالاتها السياسية فقط كما يتبادر إلى الذهن، ولكن على كل مستويات الحياة العربية، من تقاليد وعادات وثقافة وتحوّل اجتماعي وتطوّر إنمائي وسياسي.

إن الشعب العربي هو الذي نزل القرآن بلغته، والقرآن أكثر كتاب مقدس وغير مقدس تحدث عن العقل والعلم والتفكير والتذكير، فمن المستحيل أن تكون هذه اللغة بالذات هي اللغة التي تفقد فيها هذه الكلمات سمعتها.

الغرب يتباهى علينا، ويعلمنا أنه أقام نهضته على أساس «سيادة العقل»، ويذكر لنا ديكارت وقبل ديكارت.

وكتابنا السابق على هذا كله بقرون، هو أول من أقام للعقل سلطاناً عظيماً.

وهو أول دين تجيء معجزته في شيء واحد فقط هي: كتاب!

وأول كلمة في وحيه كانت: «إقرأ» باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان مالم يعلم».

وأكثر ما يخاطب في سطوره وآياته، يخاطب العقل، ويفرّق بين ذوي العقول وسواهم.

«وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون».

«وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير».

«كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون».

«تحسبهم جميعاً، وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون».

«ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً».

«فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون».

«قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون».

وما معنى العقلانية والموضوعية والواقعية وغيرها من المصطلحات الحديثة، إلا: استخدام العقل؟

إذا نزعنا عن هذه الكلمات أرديتها السيئة التي أساءت إلى سمعتها، وبحثنا في معانيها التي صكت من أجلها، فماذا نجد؟

أليست «الموضوعية» مثلاً، هي البدء في كل أمر بدراسة «الموضوع»؟

والموضوع بالنسبة للعالم حقيقة طبيعية مثلاً، وبالنسبة للقائد العسكري الخريطة الدقيقة لساحة المعركة بهضابها ووهادها، وتقدير قوته، وقوة العدو قبل الصدام؟ وبالنسبة للسياسي دراسة علاقات القوى السياسية في موقف ما، وحشد الطاقات المتوافرة لمواجهة هذا الموقف، ورسم خطة للتحرّك، إلى آخره.

وما معنى الواقعية إلا أنه يجب أن تكون دراستنا «للموضوع» دراسة واقعية، مستندة إلى الواقع لا إلى التمني، لأننا - ككل الناس - مرغمون على التعامل مع واقعهم وليس مع تمنياتهم.

والرضوخ للواقع أمر، وتغييره أمر آخر، وفي هذا يختلف فكر الناس، ومدى همتهم، وجدوى حساباتهم.

وأعظم الذين غيّروا وجه التاريخ، كانوا أعظم الواقعيين، لأن اختراق طرق التغيير يقتضي معرفة الطريق الممهد، من الطريق الوعر، ومن الطريق المسدود تماماً!

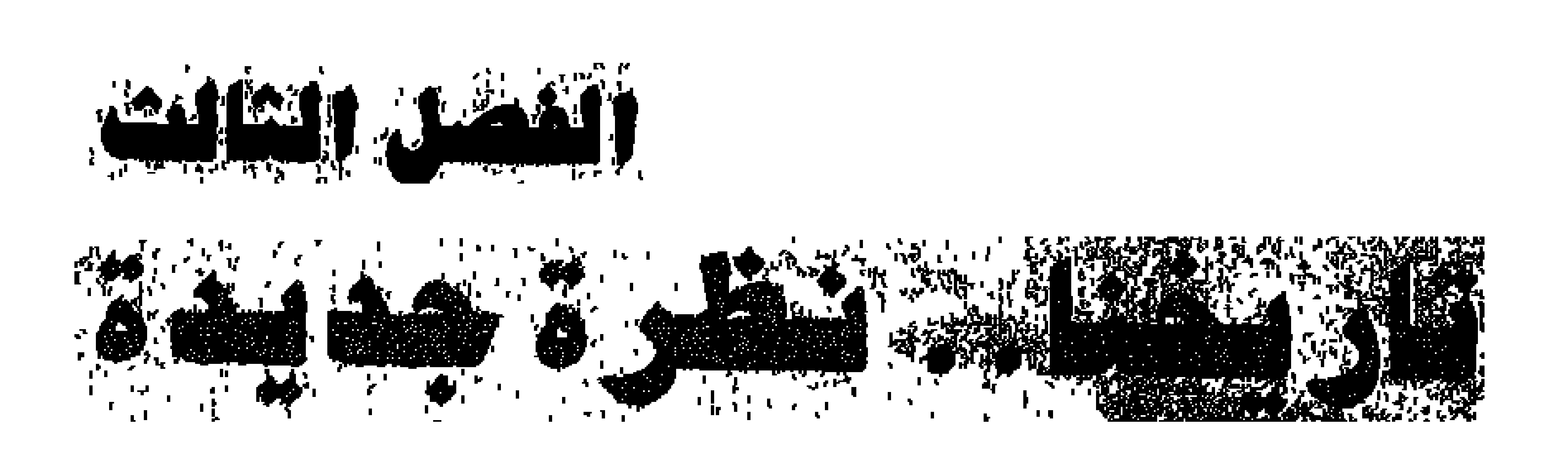
وقد يبدو تصدي هؤلاء لمهمة التغيير في البدء مستحيلة، ولكن المستحيل وقع، ذلك أنه لم يكن مستحيلاً، إنما العظماء الذين يغيّرون الواقع يرون من خبايا هذا الواقع وفي ثناياه مالا نراه، وبالتالي فهو ممكن، وعلى هذا الأساس ينهضون للعمل، ويقع المستحيل، الذي لم يكن مستحيلاً، لأن المستحيل حقّاً لا يقع.

إن اللغة تترك أثرها في ضمائر الناس، وتشكّل أحياناً طريقة تفكيرهم.

وقد ذهب كاتب عربي كبير - عبدالله القصيمي - إلى حد إصدار كتاب عنوانه «العرب ظاهرة صوتية!»، لا أوافقه عليه، ولكن الصحيح فيه ربما قول بعض المستشرقين أن العربي إذا «قال» شيئاً، تتحقق له راحة مَنْ «فَعَل» الشيء، وذلك موضوع لصيق بحديثنا، لكنه يحتاج تأملاً آخر.

إنما القضية المطلوبة هنا فقط أن نعيد للعقل مكانته في حياتنا العربية، ولا يمكن أن نعيد لعقل مكانته في نفوسنا، إذا بقينا نسخر من الكلمات الداعية إلى استعمال هذا العقل.

***


الفصل الثالث
تاريخنا.. نظرة جديدة


التاريخ

حول إعادة كتابة التاريخ *

هل يجب علينا أن نعيد كتابة تاريخنا؟

لم أكن أتصوّر في الحقيقة أن هذا سؤال يمكن أن يطرح، دعك من أن أحاول جعله موضوعاً للكتابة، وشغل القارئ به.

الغريب أن أكثر من جريدة أو مجلة، في أكثر من بلد عربي، طرحت هذا السؤال، وإن الكثيرين من الكتاب والمفكرين في بلادنا استجابوا للدعوة وخاضوا في ردود مختلفة عليه.

وكنت من بين الذين وجهت إليهم السؤال أكثر من جريدة ومجلة، وأكثر من برنامج إذاعي، واعتذرت لها كلها عن الرد، على أساس أن هذا موضوع لا يحتاج إلى مناقشة. وإن فيه من تضييع لوقت القارئ أكثر مما فيه من جوانب حقيقية تحتاج للمناقشة.

وكان في ذهني أمران بديهيان:

الأمر البديهي الأول: هو أن التاريخ ليس شيئاً يكتب مرة واحدة، ولكنه مادة تكتب مئات المرات، وتعاد كتابتها باستمرار، سواء بسبب ظهور معلومات مستجدة عن أي صفحة من صفحات التاريخ، أو بسبب تطوّر في مذاهب التاريخ وفلسفاته، وظهور أدوات فكرية جديدة تستخدم في فهم التاريخ، أو بسبب أبسط، وهو ظهور أي كاتب أو مؤرخ يجد في نفسه القدرة والرغبة على أن يدلي بدلوه في التعرّض لموضوع ما من موضوعات التاريخ.

---

* العربي - العدد ٢٥٦ - مارس ١٩٨٠.

أليس من المألوف أننا إذا أردنا الرجوع إلى موضوع من موضوعات التاريخ أن نعود إلى الفهارس فنجد عشرات الكتب أو مئاتها، حسب أهمية الموضوع، المكتوبة عنه؟

كتابة التاريخ إذن، تاريخ فرد أو أمة أو عالم، عملية بطبيعتها متجددة، لا يصدر قرار ببدئها ولا يصدر قرار بإيقافها، وليس في هذا جديد، كل ما في الأمر أن الشعوب في مراحل يقظتها الفكرية تزداد اهتماماً بتاريخها، تماماً كما تزداد اهتماماً بحاضرها ومستقبلها، فاليقظة لا تكون إلا شاملة، وبالتالي تشتد حركة التأليف عن التاريخ، ويزداد الناس إقبالاً على قراءته، وفي حالات الخمول تنام الأمم عن ماضيها ومستقبلها معها، تستسلم لما وجدته مكتوباً عنها من قبل، ولما ترى أنه «مكتوب لها» في المستقبل.

الأمر البديهي الثاني: هو أنه كما أن التاريخ ليس شيئاً يكتب مرة واحدة، كذلك فإنه ليس شيئاً تكتبه جهة واحدة.

ولعل هذا الأمر الثاني أكثر بديهية من الأمر الأول، فليس هناك فرد ولا جهة ولا دولة ولا مجموعة دول تحتكر كتابة التاريخ حتى ولو كان تاريخها، فلو أراد أحد أن يكتب عن تاريخ العرب أو الصين أو بلاد واق الواق، فلا يوجد أحد يملك منعه من ذلك، ولا يملك فرد ولا مجتمع أن يمنع الغير من الكتابة عنه، وكلما كانت الحضارة غنية تعدد جنسيات الذين يكتبون عنها، بل إن جامعة أمريكية - مثلاً - قد تنفق الملايين لترسل علماءها إلى أبعد بلاد الدنيا لعمل حفريات ودراسات تاريخية عن موضوع لا صلة لها به، ذلك أن التاريخ والحضارات ملك مشترك للمعرفة الإنسانية كلها، ومرة أخرى، نجد أن الشعوب كلما زادت تقدّماً، صاحب ذلك اهتمامها بحضارات العالم كلها.

في مصر، نجد أن الذين اكتشفوا حجر رشيد وفكوا أسرار اللغة الهيروغليفية، فرنسيون، والذين كشفوا آثار وكنوز توت عنخ آمون إنجليز. والذين ينقبون عن آثار مدينة الفسطاط القديمة من جامعات أمريكية، وحضارة العرب أشبعها «المستشرقون» كتابة وتحليلاً، ونحن ترجمنا عنهم واستفدنا بهم، وهم روس وألمان وإنجليز وفرنسيون وهولنديون. . . إلى آخره.

وأصحاب أي تاريخ يفرحون باهتمام الآخرين بهم، فيما كان كل هؤلاء

المستشرقين – مثلاً – ليهتموا بالحضارة العربية، ويقيموا لها مراكز الأبحاث في جامعاتهم وأقساماً خاصة في متاحفهم لولا أنها حضارة غنية وتاريخها مهم، وأنها حلقة جوهرية في التاريخ الإنساني كله.

هاتان البديهيتان، الواضحتان للعيان لا تحتملان أي مناقشة أو جدل أو خلاف، كانتا السبب في «رد فعلي» هذا إزاء الموضوع كله واعتذاري عن مجرد مناقشته.

على أنني بعد أن استنفدت المناقشات نفسها وطويت صفحاتها، وجدت نفسي أتأمل الموضوع من زوايا أخرى طرأت على البال، بعضها ظاهر للعيان ولكنه قد يحتاج إلى تفسير، وبعضها أثارته التأملات في خاطري، مما وجدت أنه قد لا يكون من ضياع الوقت أن أشغل القارئ بها، ووجدتها تفرض نفسها علي فرضاً ساعة جلست إلى الورق أكتب هذا الحديث.

***

ينسب المؤرخون إلى بعض فراعنة مصر القدامى، قبل آلاف السنين، وحين كان التاريخ يسجل عن طريق حفر نقوشه حفراً على الحجر الصلد، إنهم كانوا يمحون ما سبق أن حفره أسلافهم، ويعيدون كتابة بعض الأحداث ناسبين إلى أنفسهم معارك لم يخوضوها، وانتصارات لم يحرزوها، وأعمالاً لم يقوموا بها، سواء كان طمساً لحكام سابقين عليهم، أو انتحالاً لفضل لا حق لهم فيه.

وفي الثلث الأول من القرن العشرين، وبعد أن مات لينين قائد الثورة الروسية، ودار صراع عنيف على السلطة من بعده بين أبرز رفيقين له وهما ستالين وتروتسكي، انتهى بانتصار ستالين وبطرد تروتسكي من البلاد، عرفنا أن ستالين عاد إلى وثائق الثورة، بسلطة الدولة يمحو منها كل عمل مهم قام به تروتسكي للثورة، وظهرت من الكتب ودوائر المعارف طبعات جديدة تعيد شرح أحداث الثورة بطريقة أخرى تمحو أثر تروتسكي أو تشوّه دوره، حتى اللوحات الزيتية التي رسمها الرسّامون لأحداث الثورة ومواقفها الحاسمة، وعلقت في المتاحف العامة، أعيدت الريشة إليها لتمحو وجه تروتسكي حيثما ظهر في أي موقف منها، بل إن عدداً من الصور الفوتوغرافية المهمة في الأرشيف أجريت عليها تعديلات في الإتجاه ذاته.

إذن، فمن بعض فراعنة الأسرة الأولى قبل أربعة آلاف سنة، إلى قيادة أوربية حديثة قبل أربعين سنة، وقع الشيء نفسه، وتحت محاولة «إعادة كتابة التاريخ» بصورة واحدة!

ولاشك أن العادة لم تنقطع تماماً بين هذين النموذجين اللذين تفصل بينهما أربعة آلاف سنة بصورة أو بأخرى.

وبالتالي، فإن النفس الإنسانية، أو نفسية «السلطة» والشعور بسطوتها حين تمتلك البشر، فيها ملامح متشابهة، مستمرة، عرضة للتكرار.

ولذلك، فمن الطبيعي أن يشك الناس في كل ما هو «تاريخ رسمي»، وبالتالي، فحين يذكر موضوع إعادة كتابة التاريخ، وتشتم منه رائحة أن الدعوة موجهة إلى «الدولة» لتعيد هي كتابة التاريخ، فالمناقشة تصبح واردة، ومن السهل أن نلمح في المناقشات تياراً يحرّض الدولة على أن تقوم بذلك، وتياراً آخر يعارض هذه الدعوة، لاشتباهه في انطوائها على هذا التحريض للدولة، خاصة وقد انتشرت بالفعل «موضة» تكوين اللجان الرسمية المكلفة بإعادة التاريخ في أكثر من بلد عربي.

ونحن نعرف في قاموسنا الحديث عبارات «الرقابة على الصحف والكتب» و «الحظر على الأنباء» و «مصادرة المطبوعات» وأحياناً حتى التشويش على موجات الإذاعة، ولكن هذه وسائل حديثة، ظهرت لمواجهة وسائل حديثة لنشر المعلومات، ولكن قبل ظهور الطباعة والصحافة والإذاعة، ربما لم تكن تلك الوسائل المضادة غير موجودة لعدم وجود مبرر لها، ولكن مبدأ إخفاء المعلومات بوجه أو بآخر، لاشك أنه كان موجوداً في نظم المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ كله.

بل إن الكتمان في الأزمنة الماضية كان أسهل، فالتاريخ كان يدور في قليل من الدور والقصور، والأحداث كانت تتم داخل جدران قلاع بعيدة وأماكن محرّمة إلا على القلة الموثوقة، وكانت معرفة الأخبار لا تتم إلا بالنقل الشفوي وتتواتر الروايات من شخص لآخر، مع كل ما تمر به خلال ذلك من تحريف مقصود أو غير مقصود، لذلك كانت معرفة الناس بسيطة، دعك عن المؤرخين الذين يأتون بعد ذلك بمئات السنين، يحاولون تجميع ملامح الحدث أو العصر

بصعوبة بالغة، ومن شواهد نادرة، وحتى الآن، يعثر الناس على وثيقة أو على مخطوط أو على قطعة حجر، فتقلب تاريخ عصر كما نعرفه رأساً على عقب، وتلعب المصادفات في ذلك دوراً كبيراً.

فهي علاقة بين السلطة حين تكتب وبين الناس حين تتلقى، قديمة، والشكوك في شأنها منذ أقدم صفحات التاريخ.

وحتى حين جاء العصر الحديث، غير الكثير جداً، ولكنه لم يقض على الظاهرة أو لم يقتل بذرة الشك الموجودة دائماً لدى الناس.

لقد صارت الصحف والإذاعة تعلن الأنباء يوماً بيوم، والكاميرا أو التلفزيون بنقلها حية إلى عيون المشاهدين، وبعض الدول صارت ترفع السرية عن أوراقها الرسمية بعد خمسين أو ثلاثين سنة، لمن شاء أن يقرأ ويدرس وينشر، وانتشرت ظاهرة نشر المذكرات، فكل من عاش قصة مهمة سرعان ما ينشر مذكراته عنها بمجرد تركه لوظيفته، بل صار مسئولاً - مثلاً - في أخطر موضع مثل كيسنجر، يتعاقد على نشر مذكراته حتى قبل أن يترك وظيفته، وذلك تحت إغراء المبالغ الكبيرة التي صارت تدفعها دور النشر وتصل إلى ملايين الدولارات، وهو أمر لا نعرف هل هو مفيد أو ضار، فكل رسمي، في أدق مباحثات مثلاً، صار يعرف أن حديثه السري سينشر بعد سنوات، وهو مازال على قيد الحياة.

وإذا كانت «الندرة» هي مشكلة العصر القديم، فالكثرة هي مشكلة عصرنا الراهن، ومرة أخرى صار كل رسمي يجب أن يشرح رأيه ويرسم صورته للتاريخ قبل أن يرسمها غيره، وبالتالي فهو يلوّن ما يكتبه بالألوان التي تناسبه، وإن لم يكذب صراحة، فهو على الأقل يحذف مالا يريد له أن يذيع.

وخلال كتابتي هذا الحديث على سبيل المثال، كنت أقرأ - كعادتي - عدة كتب في وقت واحد: مذكرات هنري كيسنجر - مذكرات أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل الأسبق، مذكرات موشي ديان وزير خارجية إسرائيل السابق - مذكرات إسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل السابق.

وكنت أقرأ عن مواقف شهدها الأربعة، وكانت بين الروايات الأربع خلافات أحياناً، وتناقضات تامة أحياناً أخرى، والأربعة أحياء، وما يروونه لم يمر عليه سوى سبع سنوات.

فهل يا ترى مهمة المؤرخ، أمام الندرة القديمة كانت أصعب، أم أنها أمام هذه الكثرة الحديثة هي الأصعب!

وأيهما أكثر بعداً عن الحقيقة، الرواية أو المشاهدة، أم «الطرف» وصاحب الدور في الحدث الذي يهمه أكثر تلوين صورته باللون الذي يريد.

وسواء في المجتمعات التي يشتهر عنها الوضوح الشديد، أو الغموض الشديد، فمازال ممكنا أن تبقى الحقيقة مستترة ولو فترة من الزمن، بفعل السلطة الرسمية أو بفعل جهات ذات قوة ونفوذ في مجتمع ما.

كنت في أمريكا مرة، وكعادتي في زيارة لبعض الجامعات، حضرت محارة في جامعة «كارنيجي - ميلون» في بتسبرج، وكانت المحاضرة عن المسرح!

وكان الأستاذ يقول: إن من أسباب أزمة المسرح في العالم، أن الدراما التي يراها الناس حيّة على شاشة التلفزيون تلغي أي دراما أخرى، في المسرح يدخل الرسول ويروي ما حدث لملك بلاد كذا مثلاً، ولكن الآن - يقول الأستاذ - رأى الناس على شاشة التلفزيون، على الهواء، حادث اغتيال الرئيس جون كيندي كاملاً، وزادوا بعد ذلك حادث اغتيال القاتل «لي هارفي ازوالد» على الشاشة ساعة وقوعه.

ودون استطراد حول هذه القضية الفنية، نعود إلى سياق حديثنا عن التاريخ ونسأل: إن الناس رأوا الاغتيال يتم على شاشة التلفزيون وهم في منازلهم، ورأوا القاتل وهو يغتال بدوره.

ولكن، وبعد مضي ثمانية عشر عاماً على مقتل جون كيندي مازال المواطن الأمريكي يسأل: من الذي قتل جون كيندي؟

وكلما مر الزمن زادت الشكوك، وكل سنة تتكون لجنة جديدة لأنها عثرت على دليل جديد، والانقسام مستمر حتى بين الخبراء حول ما إذا كانت رصاصة أزوالد هي التي قتلته، وما إذا كانت هناك رصاصة ثانية من جهة ثانية هي التي قتلته.

رغم أن القضية بحثها أكبر القضاة في أمريكا، ولكن المواطن ظل يعتقد أن «السلطة» تخفي عنه شيئاً، وأن جهات ما لا مصلحة لها في القطع بالحقيقة!

وسيضاف هذا إلى سؤال مشابه، معلق منذ حوالي مائة سنة، هو: من الذي

قتل إبراهام لنكولن عشية انتصاره في حرب تحرير العبيد في أمريكا!

وفي نظام آخر، وحدث آخر، يسأل العالم: من الذي قتل محمد تراقي الذي قاد الانقلاب الماركسي الأول في أفغانستان؟

لقد قالت السلطة في عهد خلفه أنه مات بمرض مفاجئ، فلما وقع انقلاب آخر على خلفه - حفيظ الله أمين - وجاء برباك كارمل، قالت السلطة: أن حفيظ الله أمين أمر بقتله، وأنه مات قتلاً، وليس مرضاً.

ما هي الحقيقة؟

الشك لدى الناس فيما يصدر عن السلطة إذن قديم، وهو مستمر.

وبالتالي كان لابد أن يمتد الشك إلى كل مشروع تتولى فيه السلطة كتابة التاريخ، أو إعادة كتابة التاريخ، أو «إعادة إعادة» كتابة التاريخ.

ولذلك، فإنه من الحق أن يعجب المرء من كتاب ومؤلفين يطالبون الدولة بكتابة التاريخ!

لماذا لا يكتبون هم ما يرون وما يريدون من تاريخ، ويلقون بما يكتبون في خضم سائر الكتابات التاريخية؟

ولا اعتراض - طبعاً - على أن تقوم الدولة بكتابة ما تشاء من تاريخ، ولكن لا لكي يكون - كما يريد البعض - القول الفصل والحكم القاطع، ولكن لكي يكون مرجعاً من المراجع لا أكثر ولا أقل.

إن الدولة - أي دولة - تساهم في كتابة التاريخ بقسط وفير.

فالدولة هي التي تكتب التاريخ الذي يدرس في المدارس، أي تكتب المقرر الذي يقرؤه ويدرسه كل طفل منذ سن الطفولة حتى الشهادة الثانوية، وعلى الأغلب الجامعية.

والدولة هي التي ترعى المشروعات الكبرى كالموسوعات ودوائر المعارف وطبع كتب التراث وهو نوع من كتابة التاريخ بحكم الانتقاء، وبحكم النشر.

وهذا يكفي.

وما يمكن أن يطلب من الدول هو أن «تسهل» كتابة التاريخ، أن تمكن المؤرخ من ممارسة عمله، أن تموّل الحفريات والتنقيب والبحث، أن تنظم الوثائق الممكن نشرها وتضعها حيث الإطلاع عليها والاستعانة بها.

وفي أمريكا، صار تقليداً أن كل رئيس دولة، بمجرد تركه الحكم، يضع كل أوراق عهده في مكتبة مستقلة، وقد يسمح للباحثين بالإطلاع فوراً على جزء منها، ويوصي صاحب الأوراق بإبقاء بعضها سراً عشر سنوات أو عشرين سنة، ولكنها تصير إلى ملكية الأمة على أي حال.

ولكن كتابة التاريخ بعد ذلك قضية شخصية.

فحتى إذا كانت «الوقائع» ثابتة ومتفقاً عليها، فإن التاريخ ليس سرد وقائع، ولكن هو وضع الوقائع في إطار معين، وتحليلها في ضوء منطق معين، فالتاريخ في أرقى صوره وجهة نظر، الحقيقة فيه ملك القارئ؟ ووجهة النظر ملك الكاتب المؤرخ، وهناك وقائع تاريخية كبرى ثابتة، يتخاصم المؤرخون على تحليلها طيلة ألف سنة!

ومن الخواطر المتصلة بهذا الموضوع، أننا لو دققنا النظر فيما حولنا، وفي خضم الأدوات التكنولوجية المتاحة في العصر الحديث، وفي عصر ديمقراطية المعرفة بمعنى وصولها إلى الجميع حتى الأميين، إن لم يكن بالقراءة فبالسماع أو بالمشاهدة، نجد أن أمامنا مشكلة أخرى تحتاج إلى تدبّر، وهي ما يجري كل يوم من إعادة لكتابة التاريخ!

نترك الآن جانباً الكتب والمؤلفات العلمية والوثائق والمذكرات، وكل ما يخطر على البال حين نتحدث عن كتابة التاريخ، أو لكي نستعمل عبارة أوسع «إعادة صياغة التاريخ».

ما القول في أفلام السينما التاريخية، بألوانها، والشاشة «السينما سكوب» وجاذبيتها الهائلة على مئات ملايين المشاهدين في العالم من كل المستويات في الأعمار والمدارك والثقافة؟

ما القول في الحلقات التلفزيونية المسلسلة التي تتحدث عن التاريخ وتدخل كل بيت؟

ما القول في المسلسلات الإذاعية التاريخية؟

ما القول في الروايات المكتوبة؟

ما القول في مجلات الأطفال وكتب الأطفال ورواج ذي الطابع التاريخي منها؟

القليل من هذا الفيض الهائل، هو الذي تتوافر له الدقة التاريخية، وعـدم التضحية بالنزاهة في سبيل التشويق، أو الربح، أو الدعاية لوجهة نظر معينة.

والكثير غير ذلك.

كل الأفلام التي تنتجها السينما اليهودية عن قصص الإنجيل.

كل المخرجين الذين يغريهم الربح بأفلام عن كليوباترا أو سبارتـاكـوس أو غيرهما.

إلى آخره.. إلى آخره.

إن فيلماً واحداً، بنجومه وأسماره وألوانه وموسيقاه، عن حقبة تاريخية، هو الذي يلصق بالذهن، ويمحو من الذاكرة أثر مائة كتاب، فما بالنا وهو يتجه لملايين لا تقرأ الكتب، وليس لديها مناعة المعلومات السابقـة، أو قـدرة إدراك الخطأ أو التحريف؟

وجه الممثل الذي يقوم بالدور يصبح في الذهن العام وجه البطل، كيـرك دوجلاس، هو سبارتاكوس، وإليزابيث تايلور هي كليوباترا، وأحمد مظـهـر هو صلاح الدين الأيوبي، الثياب، والقصور، والجدران، وصور المعارك، أو الحفلات، كلها تلصق صورة في ذهن الجمهور، ما هي دقتها يا ترى؟ هل كانت حقاً ثياب العصر، وألوانه، وحركات الناس وسكناتهم، كمـا نـراهـا عـلـى الشاشة؟

إنها نظرة المخرج، وتصوّراته، والله أعلم بمدى قربها أو بعدها عن الحقيقة، ولكن هذا هو ما يستقر في الذهن ويمحو سواه.

وأعظم كتاب تاريخ يقرؤه آلاف، في حين أن أي فيلم يراه مـلايـين، وأي مسلسل تلفزيوني يراه مئات الملايين، وأيّ كتاب أطفال يقرؤه عشرات الملايين، وأيّ كتاب تاريخ مدرسي، وضعته الدولة يقرؤه شعب بأكمله، سنة وراء سنة وراء سنة!

إن ديمقراطية المعرفة، وإن التكنولوجيا الحديثة، كلاهما تحوّل عظيم في حياة العالم، وقد رحّبت بهما الإنسانية مفتوحة الذراعين، ولكن الإنسانية لم تجـد بعد ما تعالج به مخاطرهما ومحاذيرهما، لم نكتشف بعد «المضادات الحيوية» لما يحمله الجديد من جراثيم!

ولقد تذكرت، وأنا أدير هذا الحديث في نفسي، إنني دعوت، وعلى نفس هذه الصفحات إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي.

ومازال هذا المنبر الذي أخاطب القارئ منه، مؤمناً بهذه الدعوة، وملتزماً بها، ومازلنا نحاول ممارسة ذلك في حدود الطاقة.

فهل هناك تناقض، بين أول الحديث وآخره؟!

كلا، فالدعوة كما قصدتها، دعوة إلى الانفتاح على الحقيقة، وليست دعوة إلى الانغلاق دونها، كما توحي كتابات بعض المطالبين بإعادة كتابة التاريخ.

فالتاريخ الإسلامي، قد كتب جانب كبير منه في ظل ظروف من تحكم السلطة، وفي عصور مظلمة فكرياً وثقافياً، واجتماعياً، وبالتالي فلابد من إعادة النظر في كل هذا.

والبعض ينظر إلى التاريخ الإسلامي نظرة يخلط فيها بين التاريخ الذي صنعه البشر، وبين الإسلام ذاته، فأسبغوا على البشر عصمة الدين، وبالتالي جعلوا التاريخ وكأنه كتلة مقدّسة تتساوى في قيمتها، وكأن الخليفة عمر في مكة في مقام الخليفة العثماني في اسطنبول!

ثم إن أمهات الكتب التاريخية الإسلامية ذات القيمة، صارت بعيدة عن متناول القارئ، وصعبة على فهم حتى المتعلم، الأمر الذي يبرز الحاجة إلى طرحها على الناس بإعادة نشرها، مع حسن الانتقاء، وتبسيط بعضها، لتصل لجمهور أكبر.

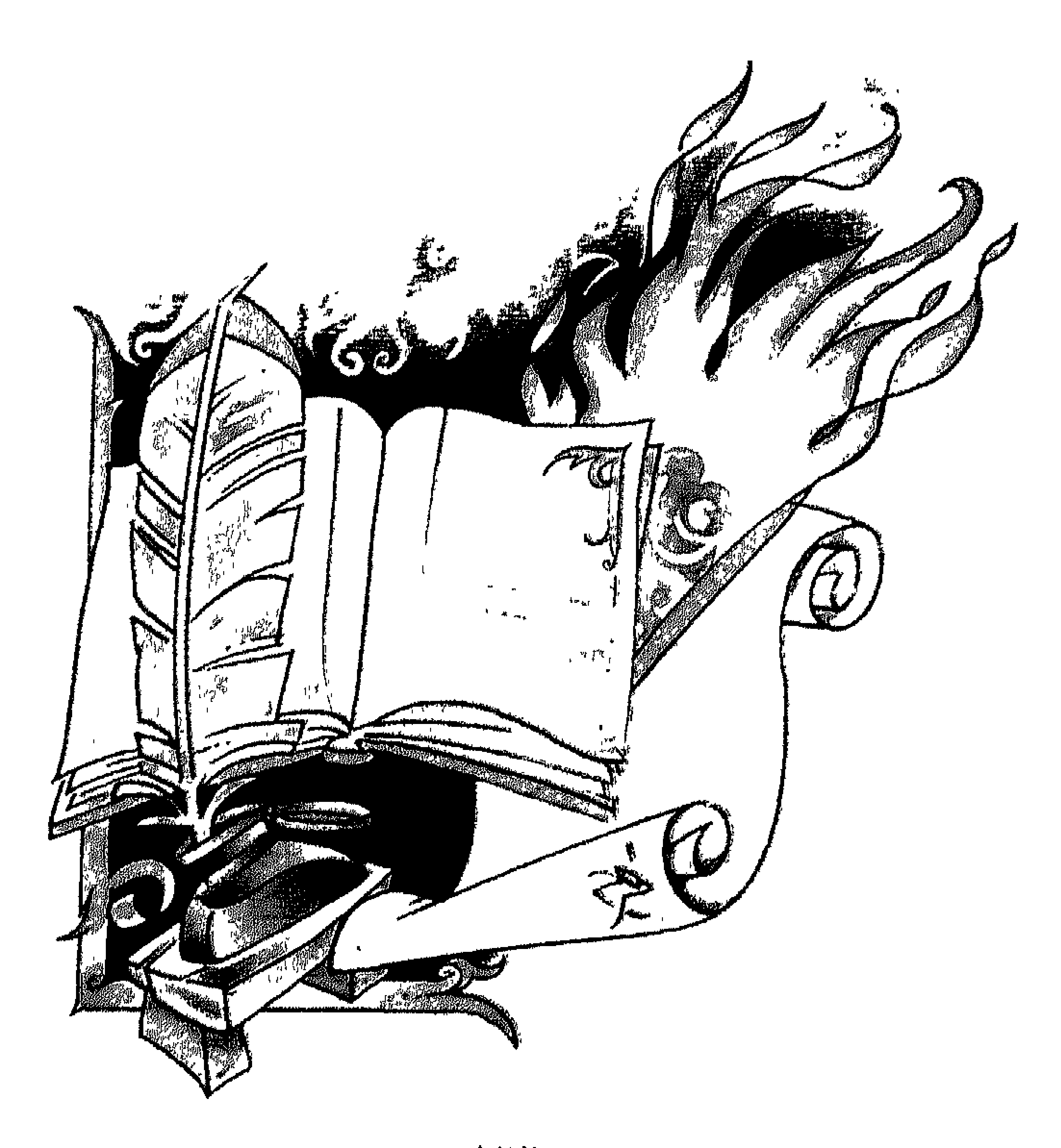
ثم إن هذه الدعوة تنطلق مما نراه من إدخال أشياء على حياة المسلمين ليست من الإسلام، وأخطرها المذاهب المتعددة التي تنتمي إلى أحداث خاضها البشر، وصنعها البشر، ومزّقت المسلمين تمزيقاً، وأخذها الناس عبر آلاف السنين على أنها الدين وهي اجتهادات على أحسن الأحوال، فالنبي الكريم ترك إسلاماً واحداً ومذهباً واحداً، ولم يترك عشرين مذهباً تفرق المسلمين حتى اليوم.

ولكن لن يكون هذا إلا بإعادة طرح التاريخ، وإعادة تحليل أحداثه، وفرز الغث من السمين فيه، فتبقى للقداسة حرمتها، ويبقى ما هو من صنع البشر للبشر.

فهي في المواقع دعوة عكسية، وإن اشتركت في اللفظ فحسب.

هنا، نريد أن نتخطى كتابات السلطة عبر القرون لا أن نستدعيها.
نريد النزاهة لا التعصب: نريد النور لا الظلام.

***



إعادة كتابة التاريخ الإسلامي والعربي*

بصرف النظر عمّا سوف تكون عليه الصورة في لبنان، عندما تصل هذه السطور إلى يد القارئ، فإن هناك جوانب مهمة، باقية، من آثار الحرب الأهلية اللبنانية، توحي لكل عربي بالتأمل، فيما هو أوسع منها.

إنني أكتب هذه السطور، وقد بلغ عدد القتلى عشرة آلاف، والجرحى أضعاف هذا العدد، والحرب الأهلية مازالت تهدأ يوماً ويستعر أوارها أياماً أخرى وأسابيع.

والصراع بين الأخيار والأشرار مستمر، بين الذين يريدون أن يبقى لبنان الذي نعرفه والذين يريدون تقسيمه، بين الذين يحاربون معركة الحاضر والمستقبل، والذين يحاربون معارك الماضي.

فقط، يجب أن نسجل قبل الانتقال إلى هذا الجانب، أن الحرب الأهلية اللبنانية إذا كانت قد اتخذت طابع الحرب الطائفية، إلا أن أسبابها أعقد من ذلك بكثير، باعتراف جميع الأطراف، ولو كان الجانب الطائفي هو الجانب الوحيد فيها، لأمكن التوصل إلى حل، قبل أن يتفاقم القتال إلى الحد الذي وصل إليه.

فهناك القضية الاجتماعية، والاتساع الهائل بين الفقر والغنى، والذي جاء ارتفاع الأسعار العالمي والتضخم ليزيد من المسافة والمرارة معاً.

وهناك العنصر الخاص بأزمة الشرق الأوسط، والذي تمثل في الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان، ورضا البعض عن ذلك كحتمية لا مفرّ منها ورفض آخرين لها.

---

* العربي - العدد ٢٠٨ - مارس ١٩٧٦

وهناك استغلال إسرائيل لهذا الواقع، ومحاولتها الدائمة لتفجير الكيان اللبناني، أملاً في العصف بالوجود الفلسطيني من جهة، وبالعصف بالوجود اللبناني كله من جهة أخرى، كنموذج حي على قدرة العرب على تحقيق التعايش بين الأديان والطوائف.

وهناك صراع الدول الكبرى، التي صارت المنطقة العربية بالنسبة لها جميعاً قضية مهمة، بل أهم القضايا، وذلك لموقعها الفريد، وسوقها الواسعة، ووجود أهم ثروة استراتيجية - البترول - في أراضيها، وإطلالها على كل المواقع الحسّاسة من المحيط الهندي والخليج إلى البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والمحيط الأطلنطي.

كل هذه العوامل تفاعلت وتداخلت في أزمة لبنان التي انقلبت إلى حرب أهلية مستعصية على الحل.

ومع ذلك، فإننا يجب أن نواجه المشكلة الطائفية التي يتحرّج كل من هو غير لبناني عن الحديث عنها.

ليس فقط لأنها لعبت دوراً أساسياً في الحرب الأهلية في لبنان، لأنها الأسهل استخداماً والأكثر فعالية في إثارة النعرات المتطرفة لدى الإنسان، ولكن أيضاً لأن العالم العربي - بحكم اتساعه وتنوع ظروفه وتاريخه - حافل بالطوائف والمذاهب والأقليات، فهي قضية أبعد مدى من لبنان، وإن كان لبنان حتى في هذا المجال له ظروفه الخاصة، بحكم التعدد الكبير للطوائف الدينية والعرقية من جهة، وبحكم التقارب الكبير بين الأرقام العددية لهذه الطوائف، والوضع الذي لا مثيل له في أي بلد في العالم العربي أو غير العربي.

الحقيقة الأولى التي يجب أن تسجل، هي أن «المارونية» دين، وليس سلالة عرقية، فالموارنة كطائفة ليسوا كالأرمن مثلاً، ولكنهم مزيج من مسيحيين عاشوا في الشرق الأوسط قبل الإسلام، ومن قبائل عربية جاءت مع الفتح الإسلامي، ومن تجمعات عربية مسيحية كانت في مناطق أخرى ثم تجمعت بسبب الاضطهاد أو رغبة التجمع في جبل لبنان، ومن بقايا الحملات الصليبية، وإن كان يجب أن نسجل هنا أيضاً - تاريخياً - أن ليس كل من بقي من الحملات الصليبية بقي في لبنان، وليس كل من بقي في لبنان منهم صار مارونياً، فالكاثوليكية فيها الماروني

وغير الماروني، وبقايا الصليبيين توزعت على طول الشاطئ من شمال سوريا إلى جنوب فلسطين.

الحقيقة الثانية، هي أن الموجة العربية حين شملت كل العالم العربي كما نعرفه اليوم، لم تكن هناك - بعد - مارونية، بل إن المارونية - كفرع من الكاثوليكية - ظهرت أول ما ظهرت في الشام، في كنف الدولة العربية الإسلامية، ثم تجمعت في جبل لبنان، وأقامت مجتمعها الخاص بها في كنف الدولة العربية الإسلامية، وبعد قيامها بقرون طويلة، وتلك حقيقة بالغة الأهمية، لأن معناها أن الدولة العربية الحاملة لواء الإسلام لم تقف فقط عند حد الإبقاء على الأديان السماوية التي كانت موجودة، بل تكونت بعدها فروع وطوائف من هذه الأديان السماوية، كالمارونية المتفرعة من الكاثوليكية المسيحية، مما يغني عن أي دليل آخر على جوهر التسامح في الحضارة العربية والدين الإسلامي.

وقصة عمر بن الخطاب عند فتح القدس المسيحية معروفة، حين رفض الصلاة في الكنيسة حتى لا يختلف الشعب العربي من بعده عليها، وصلى بجوار الكنيسة، حيث يقوم مسجده الصغير ملاصقاً الكنيسة إلى الآن، وحتى اليهود الذين طردوا من القدس وحُرِّم عليهم دخولها على يد روما المسيحية لم يسمح لهم بالعودة إلى زيارتها وسكناها، إلا في ظل الخلافة العربية الإسلامية، بعد أن حرموا من ذلك قروناً.

الحقيقة الثالثة، هي أن التاريخ في المنطقة لم يخل بعد ذلك من الاضطهاد بكل أنواعه، الاضطهاد الديني والاضطهاد العرقي، خصوصاً على يد المماليك أحياناً - وهم في الأساس شراكسة ليسوا من عنصر عربي، وكانوا ينظرون للعرب - مسلمين ومسيحيين - نظرة أقل، أو على يد الحكم التركي.

ولكن فترات الاضطهاد، والحروب الدينية أو بالأحرى الحروب باسم الدين، عرفتها كل الحضارات في فترات معينة من تاريخها. وليس أشهر من الحروب الدينية التي أغرقت أوروبا المسيحية طوال العصور الوسطى، ولم يعرف جزء آخر من العالم درجة من العسف كالتي عرفتها أسبانيا مثلاً في عصر محاكم التفتيش.

وفي العالم العربي، قامت الحروب الدينية بين المذاهب الإسلامية ذاتها، وفي فترات الحكم التي سادت فيها عناصر غير عربية، تعرض العرب للاضطهاد مسلمين

ومسيحيين على السواء، فلا نجد عصراً كان فيه الاضطهاد موجهاً إلى الأقليات المسيحية بالذات، أو مطاردة المسيحية كدين منتشر في شتى أرجاء العالم العربي، حتى في أيام الحروب الصليبية المتعاقبة.

ولكن تلك فترة من الزمن، ومن القيم مرت على العالم كله وانتهت، ومع عصور التنوير وما تلاها من تقدم حضاري وقيام الدول الحديثة لم يعد لمعارك الأمس مكان، صار الدين لله والوطن للجميع.

وحتى حين نجد، هنا أو هناك، حروباً صغيرة في مجتمعات صغيرة، ذات طابع ديني، كالحرب بين الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا الشمالية، ونجد هؤلاء وهؤلاء يحتفلون - نكاية - بذكرى معارك حربية وقعت قبل خمسة قرون، نجد أن جذورها الحقيقية ليست دينية بقدر ما هي أولاً: اجتماعية، حيث يشعر الكاثوليك - الأقلية - أنهم لا ينالون نفس حقوق البروتستانت، الإيرلندية الشهيرة، التي انفصلت بها إيرلندا عن إنجلترا، ومازال في الشمال من يرى نفسه إيرلندياً ويفضل الالتحاق بجمهورية إيرلندا، ويرى أن الإنجليز «غزاة».

وكل دارس للتاريخ العربي الحديث، يعرف أن المسيحيين العرب - وفي مقدمتهم الموارنة بالذات - كانوا من أول الذين ناضلوا في سبيل استخلاص استقلال العرب من السطوة التركية، وساهموا في إحياء التعريب ومقاومة التتريك.

لقد عربت الكنيسة العربية صلواتها، وكانت الأديرة في لبنان أول من أدخل المطابع ذات الحروف العربية في المشرق، وهاجر مجاهدون منهم إلى مصر خلال حركتها الوطنية الأولى، وكان صاحب شعار «مصر للمصريين» مهاجراً غير مسلم جاء من «بر الشام» ليجاهد مع مجاهد مسلم عظيم هو جمال الدين الأفغاني وسائر تلاميذه.

وأنقل عن «الخوري يواكيم مبارك» الماروني اللبناني بعض ما جاء في مقال له في ذروة الفتنة هناك قوله لمواطنيه الموارنة: «... أما موضوع الإسلام، فقد رافق تاريخ كنيستنا منذ نشأتها، ولكني ألاحظ أن نشأة هذه الكنيسة (المارونية) تحت الضغوط الدينية والسياسية آنذاك لم تكن بسبب الإسلام.

فالمارونية التي تكونت خلال الفتح العربي وأخذت تستوطن لبنان، سواء عن طريق الرسالة، أم عن طريق الهجرة والعصيان، تبلورت شخصيتها وتوضحت

معالمها في النضال، لا مع الإسلام، بل مع الفرق المسيحية الأخرى.

«إن استعراب المارونية الذي سيكلل مسيرتها الطويلة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لم ينتظر هذه الحقبة الحديثة ليبرز صفته المميزة في هيكل الجسم الماروني، غرباً وشرقاً، فالتراث الماروني الأصيل والشاهد التاريخي الأول على الروحية المارونية والنظام الماروني معاً، هو عمل لا نعرفه إلا في صيغته العربية، أعني كتاب الهدى، وكتاب الهدى هذا ليس إلا نموذجاً لاستعراب الكنائس الشرقية ابتداء من صدر الإسلام، موصولة بالكنيسة العربية ما قبل الإسلام، وبلوغ الجميع على أيام الأمويين ثم العباسيين، مشاركة وثيقة في تبني ثقافة واحدة».

«. . . وحين نصل إلى عصر الاستعراب الكامل الذي لاحت بشائره منذ البدء، نلاحظ تبني المارونية العميق للحضارة العربية في صيغتها، والإسلامية في كثير من مفاهيمها، على يد الألمعيين من الموارنة، وفي مقدمتهم المطران جرمانوس فرحات، بل إن الموارنة الذين أحسّوا بنوع من الانكماش على مجالات العالم العربي والإسلامي، لم يترددوا في الانعتاق من هذه الطائفية الضيقة.

هذا كان شأن جبار العرب في القرن التاسع عشر، وصقر لبنان «أحمد فارس الشدياق»، وقد تبعه ألمع من ظهر في المارونية، كأمين الريحاني وجبران خليل جبران».

إننا هنا لا نتناول قضية لبنان السياسية، ولكننا نتناول إحدى خلفيات هذا الصراع الدامي المقيت، ونتناوله للوصول إلى خلفية أكبر، تهم العالم العربي كله.

إن العودة إلى دراسة التاريخ مفيدة ومهمة، ولكن لكي نستفيد من دروسه ومجمل عبره، لا لكي نعود القهقرى ونحارب معارك فات أوانها وتخطاها الزمن.

وكل أمة لابد أن تكون لها ذاكرة، وإلا انقطعت عن جذورها، ولكنها ذاكرة تساعدها على تفهم المستقبل، ولا تغرقها في دوامة الماضي.

والعالم العربي الإسلامي، أولاً بحكم اتساعه وترامي أطرافه وتنوع بيئاته وخلفياته التاريخية، وثانياً بحكم ظهور كل الأديان ومعظم المذاهب والفلسفات فيه، وثالثاً بحكم موقعه الوسط من العالم، وبالتالي كثرة الهجرات والغزوات في تاريخه، هذا العالم العربي، رغم أن الإسلام صار أساس تراثه وإطار تجمعه، إلا أنه لهذه الأسباب السابقة ظل في كل أقطاره حافلاً بمظاهر التنوع، في مجال

الأغلبيات والأقليات من داخل الإسلام ذاته ومن خارجه .

ولاشك أن اتجاه العالم العربي السريع إلى مرحلة التمدن، والأخذ من جديد بأسباب الحضارة بعد طول رقاد، تجعل هذا الواقع المتعدد ينصهر ولا يتباعد، ولاشك أن ما حدث في لبنان ليس هو القاعدة في العالم العربي ولكنه الاستثناء، ولكن هذا لا يمنع من مواجهة المشكلة، بالعقل المستنير، وبالروح الإسلامية السمحة، وبمسئولية الأغلبية عن احتضان الأقلية، وتزويدها بالدفء والرعاية والاطمئنان والأمان .

ومن أجل أن ننجح تماماً في هذا، لابد من التطرّق إلى قضية أخرى بالغة الخطورة والأهمية، وهي إعادة كتابة التاريخ العربي والإسلامي .

لماذا؟

لاشك أن الحضارة العربية الإسلامية قد عرفت بداياتها الطاهرة، المثالية، وينابيعها الصافية الأولى على عهد النبي وخلفائه الراشدين .

ثم بعد ذلك، وبعد أن اكتملت الأسس والقيم والمبادئ، عرفت الحضارة العربية الإسلامية طريقها إلى تكوين الدولة الحديثة بمعايير ذلك العصر، على عهد الأمويين ثم العباسيين، فضلاً عن عهود الفاطميين في مصر، والحضارة الأندلسية الفذّة .

ولكن، لاشك أيضاً أن هذه الحضارة عرفت كل ما عرفته الحضارات الأخرى بعد ذلك من عهود الاستبداد والظلم، ومن الصراعات السياسية التي ارتدت ثياباً دينية، حتى دخلت مراحل الجمود ثم الاضمحلال والتحلل والضعف، حتى تبارى في نهبها الطغاة من الحكام، والأقوياء من الأجانب .

وحين نقول «التراث» فإن التراث قد مرّ بدوره بكل هذه المراحل، سطعت أنواره في عصور النهضة، وخبا ضياؤه في عصور الاضمحلال، وجاءت أوقات كانت حتى الفتاوى الدينية خاضعة لهوى الحاكم، مبررة لمظالمه وانحرافاته .

هذا التاريخ العربي العام، نجد أن كل ما حدث خلال خمسة عشر قرناً هو كتلة واحدة مضيئة من التاريخ، وكل كتاب مضى على وضعه مئات من السنين . . . تراث!

وكثيرون من الأجانب «المتخصصين» يركزون على الجوانب السلبية من هذا التاريخ والتراث، ويستخرجون منها استنتاجاتهم عن الإسلام والعرب، وكثيراً ما

ترتد هذه الآراء إلينا وإلى الشباب المثقف القارئ للغات الأجنبية بالذات، علـى أنها النظرة الصحيحة للأمور.

وهكذا يدرس التاريخ والتراث في المدارس!

وهذا غير صحيح . . .

فكما أن هناك أمثلة الحرية والتقدم الكبرى، فهناك محنة أحمد بن حنبل - مثلاً - أيام فتنة «القرآن هل هو قديم أم مخلوق».

وكما أننا نجد «أبا إيبان» وزير خارجية إسرائيل السابق، وأستاذ التاريخ والأدب العربي السابق، يقول في آخر كتاب له «شعبي» إن اليهود عرفوا خلال تاريخهـم مرحلتين ذهبيتين: الأولى في الأندلس العربي الإسلامي، أيام ظهر ابن ميمـون (اليهودي) وغيره، وأن تسعة أعشار التراث اليهودي مكتوب باللغة العربية، والثانية هي حياة اليهود اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية، فإننا نجد مراحل ضاقت فيها حلقة الفكر على المسلمـين أولاً، ونزل الظلم والتزييف بالمسلمين العرب قبـل غيرهم.

فمن، لهذه المهمة الكبرى؟

لقد عرفنا فترة ظهر فيها أمثال محمد عبده وطه حسين والعقاد، قاموا خلالها بجهود فردية في هذا المجال، وكانت ميزتهم أنه قد تهيأ لهم رسوخ القدم في دراسة التراث القديم من جهة ورسوخ القدم في فنون النقد والكتابة والفكر الحديث مـن جهة أخرى.

بعدهم، جاءت أجيال قلّ فيها من يجمع بين الأمرين، فهو إما خريج الدراسة الدينية المحضة وإما نتاج التكوين الأوربي المحض، فوقع الانقسام الفكري، ونقص عدد القادرين على التكامل.

ولا أقول إن هؤلاء غير موجودين، ولكن الأمر صار أكبر وأهم، بحيث يحتاج إلى جهد جماعي، ترعاه هيئة أو دولة تدرك قيمة هذا العمل.

فمن، لهذه المهمة الكبرى؟

***



استعمار التاريخ.. والحوار بين الحضارات!*

«عندما هزم شارل مارتل الفرسان العرب في بواتييه سنة ٧٣٢م، بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية الأوربية».

أناتول فرانس

في كتاب «الحياة بالزهور»

يبدو أنه لا يوجد في عالم اليوم مفكر واحد راض، أو متفائل، ولا نتحدث – طبعاً – عن أولئك «الكتبة» لا «الكتّاب» الذين يملأون الصحائف كل يوم إما بتملق حكامهم أو بتملق قرائهم أو بتملق أنفسهم، هؤلاء الذين يعيشون بالغرائز لا بالمشاعر، بالنقل لا بالعقل، ربما كانوا أحد أوبئة الحضارة التي جعلت النشر سهلاً واسعاً ميسّراً، ولم يعد «بابا ضيقاً» كما كان الأمر في الماضي عندما كان لا يظهر إلا الجديرون، الذين يشقون ويتعبون ويرهقون الناس معهم، عملاً بكلمة الانجيل «اجهدوا للدخول من الباب الضيق».

وليست هذه الظاهرة ولا هؤلاء «الكتبة» هم موضوع حديثنا هذا، ولكن العذر هو أن المرء يضطر أحياناً وهو يتحدث إلى أن «يهش الذباب»!

ومن هذه الأرواح القلقة، التي يفيدنا قلقها خصباً ومعرفة وتأملاً، مفكر فرنسي لأعماله صلة وثيقة بالعصر كله من جهة، وبعالمنا العربي بالذات من جهة أخرى، وهو روجيه جارودي.

---

* العربي – العدد ٢٤٣ – فبراير ١٩٧٩

كان روجيه جارودي معظم حياته عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي، حتى صار أهم مفكريه، وأشهر أعضاء قيادته المتمثلة في المكتب السياسي، ولكنه بدأ تحت وطأة صدمات العصر الحديث ومطارق العلم ودوار التغيير السريع، بدأ يعيد النظر، ويقلب الفكر، ولم يكن هذا مما يتسق مع وضعه القيادي في حزب حديدي، ففصل من الحزب الشيوعي الفرنسي، بعد محاكمة «فكرية» شهيرة.

وقد أصدر بعدها كتاباً أحدث ضجة واسعة، إذ سجل نقطة خلافه الأساسية مع الفكر الماركسي التقليدي، ولكن قضايا هذا الكتاب ليست موضوع هذا الحديث.

ولكن موضوعنا هو ثلاثة كتب أخرى له، متكاملة أو متداخلة: أولها: كلمات إنسان، وثانيها: من أجل حوار بين الحضارات، وثالثها (وقد صدر أخيراً): كيف يصبح الإنسان إنسانياً؟

والكتاب الثالث لم يصلنا بعد، ولكن بين أيدينا أجزاء كثيرة نشرت منه، ومناقشات دارت حوله إلى جانب الكتابين الأولين.

ببساطة شديدة، يقول الكاتب المفكر الفرنسي لجمهوره الغربي: إن كل مصائب الدنيا مصدرها أن العالم الغربي يظن أنه صاحب الحضارة العظمى ومصدر كل التقدم في هذه الدنيا لمجرد أنه - اليوم - هو الأقوى، وهو المصدر.

ويطلق جارودي صيحة أذهلت مواطنيه: أن الغرب مجرد صدفة، فالغرب ليس تعريفاً جغرافياً، ولكنه تلك المجموعة من القيم والقوى والثقافات والماديات التي تميزه كحضارة متقدمة في عصرنا الراهن.

ولكن حضارة الغرب لم تولد من العدم، ولكنها كأي شيء له أصل وله جذور، ولو نظرنا نظرة صحيحة فاحصة إلى كل ما لدى الغرب اليوم، وما يشعه على العالم، من أفكار ومبادئ ونظم وفنون وماديات، فسنجد له جذوراً في حضارات أخرى.

ثم إن الغرب - كحضارة حديثة - عمره لا يزيد عن مائتي سنة! ومع ذلك، فهو يبدو على وشك أن يجر العالم إلى الهلاك بمخترعاته الذرية

واستخداماته للقوة الغاشمة.

فهو لم يثبت بعد قدرته حتى على البقاء زمناً طويلاً، لأن حضارة المصريين القدماء، عاشت زاهرة ثلاثة آلاف سنة، ولأن حضارة الصين عاشت ألفين - لا مائتين - من السنين!

وبالتالي، فهو يرى أن الحضارة الغربية قد أثبتت أنها عاجزة عن قيادة العالم.

والحل هو «أولاً» أن تدرك هذه الحضارة الغربية حجمها الحقيقي بين حضارات العالم الأخرى، و «الثاني» أن يقوم حوار بين الحضارات، تتبادل فيها مفاهيمها ومثلها وقيمها وتجاربها، وعلى قدم المساواة، حتى يصبح ممكناً أن يعيش العالم في سلام.

ولكن، متى بدأ روجيه جارودي الفرنسي، الماركسي، هذا الانعطاف المهم؟

يقول رداً على ذلك: إنه تدرج في نفسه طويلاً وببطء، وبدا بلقائه الأول بالحضارة العربية الإسلامية. . «بدا اهتمامي الأول بهذا الموضوع سنة ١٩٤٧ حين أصدرت كتاباً صغيراً بعنوان «محاولة تاريخية لفهم الحضارة العربية»، وقد أسعدني أن أعرف أن بعض الشباب الوطني في مصر ترجمه وقدمه لجمال عبدالناصر، ولكن، سبق لي قبل ذلك حادث لا أنساه أبداً: في سبتمبر ١٩٤٠، خلال الاحتلال الألماني لفرنسا، كنت شيوعياً أعمل في المقاومة ضد حكومة فيشي، فألقي القبض علي وأرسلوني إلى معسكر اعتقال عند واحة «غرداية» في قلب صحراء الجزائر الكبرى، وبعد وقت قصير، قمنا بحركة تمرّد في المعتقل، وأمر الضباط جنودهم الجزائريين بإطلاق النار علينا وقتلنا. كان عمري سبعاً وعشرين سنة، ولكن الجنود الجزائريين العرب رفضوا إطلاق النار، فأنا عشت بعد ذلك بفضلهم».

ويقول جارودي: إنه ليس أول من قال بهذا الرأي، وإن كان هو قد عكف على شرحه وقرر جعله موضوع ما تبقى من حياته.

ثم يذكّرنا بكلمة قالها الكاتب الفرنسي الشهير «أناتول فرانس»: «إن

أهم تاريخ في حياة فرنسا هو معركة بواتييه سنة ٧٣٢ ميلادية، حين هزم شارل مارتل جيوش الوالي عبدالرحمن، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام البربرية الأوربية»!».

ويروي جارودي أنه استشهد بهذه الجملة في محاضرة له في تونس سنة ١٩٥٥. وكانت تونس لاتزال تحت الاحتلال الفرنسي، وفي اليوم التالي طردته السلطات الفرنسية من تونس بتهمة قيامه بدعايات مضادة لفرنسا!

ويشرح روجيه جارودي في إسهاب لماذا يعتبر «الغرب.. صدفة» في كتابه «حوار بين الحضارات».

وإذا رجعنا إلى قول «بول فاليري» أن الغرب قد صنعته ثلاثة عناصر:

أخلاقياً: المسيحية، والكاثوليكية بالذات.

سياسياً وقانونياً: روما وقوانينها.

فإنه يمكن القول أن المسيحية ولدت في آسيا، وأن حضارة الإغريق والرومان ولدت في حجر البحر الأبيض، وبتأثير شديد جداً من شواطئ أفريقيا وآسيا، فكلها عناصر «شرقية»، خارج «الغرب» بمعناه المعاصر.

ويقول جارودي: إن حضارة أوربا نبتت جذورها كلها لأول مرة في أفريقيا وآسيا: وبالتحديد في مصر، وبلاد ما بين النهرين (العراق).

فروح حضارة الغرب ومنطلقها هو التوجه نحو سيطرة الإنسان على عوامل الطبيعة، وعلى ذاته وإعلائها.

ولكن في بلاد ما بين النهرين، ومنذ خمسة آلاف سنة قبل «إلياذة هوميروس»، يرفع الستار عن أسطورة «جلجامش» التي تتحدث عن مارد ثلثه إنسان وثلثيه إله، ظهر في مدينة «أور» بعد الطوفان، ورحل إلى أرض الأنهار الخمسة، حيث تجري الأسطورة متحدثة عن كل أشواق الإنسان إلى تحدي الطبيعة والسيطرة عليها، وتجاوز إمكاناته كبشر، فمنذ أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح، كان «فاوست» الذي ألفه «جوته» واتخذ رمزاً لروح الغرب، قد ظهر في أسطورة «جلجامش».

وحين سئل جلجامش في الأسطورة العراقية القديمة «ولماذا تحاول المستحيل؟» ردّ قائلاً: «إذا كان هذا الأمر لا تجوز محاولته، فلماذا اتقدت

في نفسي نار القلق والرغبة فيه؟».

ذلك هو أساس كل حضارة الغرب، التي تناقلها بعد ذلك فلاسفة الإغريق حتى أوصلوها إلى أوربا.

أما «الجرثومة» الأخرى للفلسفة الإغريقية التي ولدت في فينيقيا وكريت، وخصوصاً عن طريق أفلاطون فنجدها في مصر.

فالفلاسفة والمؤرخون الإغريق تأثروا تأثراً كبيراً وأعجبوا إعجاباً عميقاً بمصر القديمة، وفكرة أفلاطون التي ألهمت أوربا عن الدولة الفاضلة التي تجمع بين الاستقرار السياسي والديمقراطية الحية، كان وحيه فيها من مصر، ألهمت مصر كل تجارب الإغريق.

فلو فحصنا ما أنجزه الإغريق، بدءاً من فن النحت إلى الفلسفة إلى السياسة نجد تأثرهم العميق بمصر وتمثلهم الدائم بها.

ويضرب جارودي المثل بثلاث «مساهمات» مصرية قديمة أساسية في تراث الإنسانية كلها:

الأولى: أسطورة أوزوريس الذي يقاوم الطبيعة فيمزّقه أعداؤه إلى قطع ينثرونها في الوادي كله، ثم تجمعه من جديد، موجهة بفكرة البعث، أخته إيزيس بحبها ودموعها عبر سنوات المعاناة الطويلة، فهي أول حديث عن رموز العلاقة اللانهائية بين الإنسان، والطبيعة والآلهة.

والثانية: «كتاب الموتى»، ثم صراع الفراعنة التاريخي ضد الموت بفكرة إقامة مبان تدوم إذا فني الإنسان، وتسجل طابعه وعمله دهوراً بعده، كالأهرامات وقبور وادي الملوك، وهي فكرة جوهرية في حضارة الغرب.

والثالثة: أخناتون الفرعون الذي مات في الثلاثين من عمره بعد أن اكتشف أول فكرة إنقلابية في التاريخ وهي عقيدة التوحيد، بعد تعدد الآلهة التي نجدها بعد ذلك في فلسفة الإغريق وفي التوراة.

ويضيف جارودي فضلاً ثالثاً إلى أخناتون، فيقول أنه أول من رفع المرأة، فبدت في تماثيله جالسة على حجره، وقد نقش على الجرانيت أول قصائد حب.

«هكذا نجد جذور الغرب وقد تشكلت في مصر وببلاد ما بين النهرين: صراع الإنسان ضد الطبيعة للسيطرة عليها، ونضاله لكي ينفرد من بين كل المخلوقات بصفاته، وبقدرته على التفكير المجرّد، وكل محاولة لقطع جذور الغرب عن جذوره الشرقية لا تؤدي إلا إلى إفقار الإنسان».

أما ما تسميه كل المراجع «عصر النهضة» في أوربا، فهو عصر نمو الرأسمالية وبدء الاستعمار، هو بداية صعود الغرب ولكنه كان بداية تدمير هذا الغرب نفسه لحضارات أخرى أرقى من حضارة الغرب، سواء في علاقة الإنسان بالله، أو علاقة الإنسان بالطبيعة أو في علاقة الإنسان بالمجتمع، وهي العناصر التي تحدد رقي أي حضارة.

وقد فعل الغرب ذلك عن طريق شيء أساسي وهو: تفوّقه في استخدام القوة العسكرية دون أي نوع آخر من القوى ذات العلاقة بالتقدم والرقي.

ويحلل جارودي حضارة الغرب الراهنة - السائدة - تحليلاً فلسفياً طويلاً، نحاول تبسيطه في قوله أولاً: أن تاريخ الإنسان يتلخص في ثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة سيطرة الطبيعة على الإنسان، أي حين كان الإنسان يصارع عن مركز ضعفه ضد قوى الطبيعة الأقوى منه.

الثانية: مرحلة سيطرة الإنسان على الطبيعة، وهي حين نجح الإنسان في التقدم بدرجة سمحت له باستئناس الطبيعة إلى حد كبير بما أوتي من عقل وعلم وحضارة.

والثالثة: وهي التي نعيشها حالياً ويسميها «مرحلة محاولة سيطرة الإنسان على نفسه»، ذلك أن الإنسان بما وصل إليه من تقدم وعلم وصناعة أطلق قوى تدميرية هائلة من عقالها باتت تشوّه حياته وتدمّر بيئته ومقوماته، وتهدد وجوده ذاته، والنتيجة في هذا الصراع الأخير مشكوك فيها!

والمرحلة الثالثة، مسئولة عن حضارة الغرب، بتخليها عن القيم المشتركة مع الحضارات الأخرى والمستلهمة منها.

وبأسلوب آخر، أن حضارة الغرب قامت من ثلاثة منطلقات.

أولوية العمل كقيمة أساسية («والعمل» كما يقول تقليد بورجوازي وقيمة

اشتراكية).

وأولوية العقل بوصفه أداة حل كل المشاكل والرد على كل الأسئلة.

وأولوية كأسماء هيجل «باللامتناهي».

ولكن هذه القيم تحوّلت وشوّهت بحيث ركزت كلها على الذكاء، ولم تترك مجالاً للحب، والشعور، والضمير.

والأولويات الثلاث صارت أثقالاً، لا حوافز.

قيمة العمل تحوّلت إلى خضوع الإنسان للاستهلاك.

قيمة العقل تحوّلت إلى خضوع الروح للذكاء.

وقيمة اللامتناهي تحوّلت من الكيف إلى الكم.

والمسئول الوحيد الذي يطرحه الآن الإنسان على نفسه كل ساعة إزاء أي مشكلة أو موقف هو: «كيف»؟

ولم يعد أحد يسأل أبداً السؤال الأكثر أساسية وإنسانية وهو: «لماذا؟».

وفي فصل مهم عن «الفرص الضائعة» يتحدث جارودي في إسهاب عن ضياع فرص تأثر الغرب بإطراد وتواصل الحضارات الأخرى، وقد يكفي هنا أن نضرب مثلاً بحديثه عن حضارتنا العربية، وعن تزوير الاستعمار الغربي للتاريخ بتصويره التوسع العربي، منذ القرن الثامن الميلادي، على أنه موجة من موجات «البربرية الآسيوية» التي هددت الغرب!

هذا في حين أن الغزاة الانجليز والفرنسيين والأسبان هم الذين دخلوا أرض الإسلام مدمّرين للحضارة العربية في كل أشكالها.

*«.. إن ما يسميه الغرب بـ «غزو أسبانيا» لم يكن غزواً عسكرياً فقط كغزوات الأوربيين، فأسبانيا كان فيها من السكان عشرة ملايين ولم يدخلها من الفرسان العرب أكثر من خمسين ألف فارس، ولو كان الأمر حرباً فقط لما نجحوا. ولكن تفوّق حضارة على أخرى كان هو عنصر النجاح الساحق».

*وما فعله العرب في أسبانيا يجعلنا نفهم ما فعله ماوتسي تونج في الصين»! أتى بنظام اجتماعي أرقى، حرر العبيد وأنهى الرق، وسوى الحقوق، ودعم النظام. وعلى أنقاض الفوضى الاقطاعية، أقام العرب أعظم مساقط المياه في ذلك العصر وأغنى البساتين القائمة إلى الآن.

*وما رأيته في تونس، من آثار عربية قديمة تدل على سابق الازدهار، ومن واقع - خلال الاحتلال الفرنسي - ينم عن الإفقار والدمار، يعطينا صورة ساطعة عن الفرق بين حكم الأغالبة في شمال أفريقيا، وحكم الفرنسيين.

*الحضارة التي زرعها العرب عندنا في أوربا وبالقرب منا في أفريقيا تمتد جذورها إلى الشرق في آسيا، وحين سافر الفرنسي «جيربر» إلى معاهد الشرق وعاد حاملاً علومه، قال الناس في أوربا إنه قد اتصل بالجن لكثرة معارفه! وبعد قليل، جعلوه بابا على روما باسم البابا سيلفيستر الثاني.

*ونحن مدينون للعرب بأول كليات الطب، وأولها كلية الطب في مونبليه الفرنسية. وحتى القرن التاسع عشر كانوا يدرسون في جامعات فرنسا وإنجلترا بإسهاب علوم الطب العربية، ومؤلفات الرازي.

ولكن منذ انتصار شارل مارتل على العرب في بواتييه تكونت لدى أوربا عقدة اسمها «حماية الحضارة الغربية من البرابرة!».

إن كتب التعليم تلقن الأوربيين منذ طفولتهم أن بواتييه كانت نقطة تحوّل إذ طردت الهمج عن أوربا المتحضّرة، وهذا هو استعمار التاريخ بعينه، فالواقع هو العكس، فهزيمة العرب ضيّعت على فرنسا وأوربا فرصة الالتقاط المبكر لحضارة العرب، وأخّرت أوربا عشرة قرون على الأقل، حتى بدأت أوربا ترى النور بعد القرون الوسطى!

ولست هنا في مجال الاستشهاد بأقوال جارودي عن مآثر العرب، وقلب أوربا لحقائق التاريخ، أو استعمار التاريخ كما قال بحق، فالأمثلة كثيرة.

ولكن المهم أنه يستشهد بالأسلوب نفسه بحضارات أخرى غير الإسلام، أهمها الصين، وعدم الاستفادة منها، إنها فكرة عداء الحضارات لا تكاملها.

المهم هو المشروع الذي نذر جارودي ما استقبل من حياته له وهو:

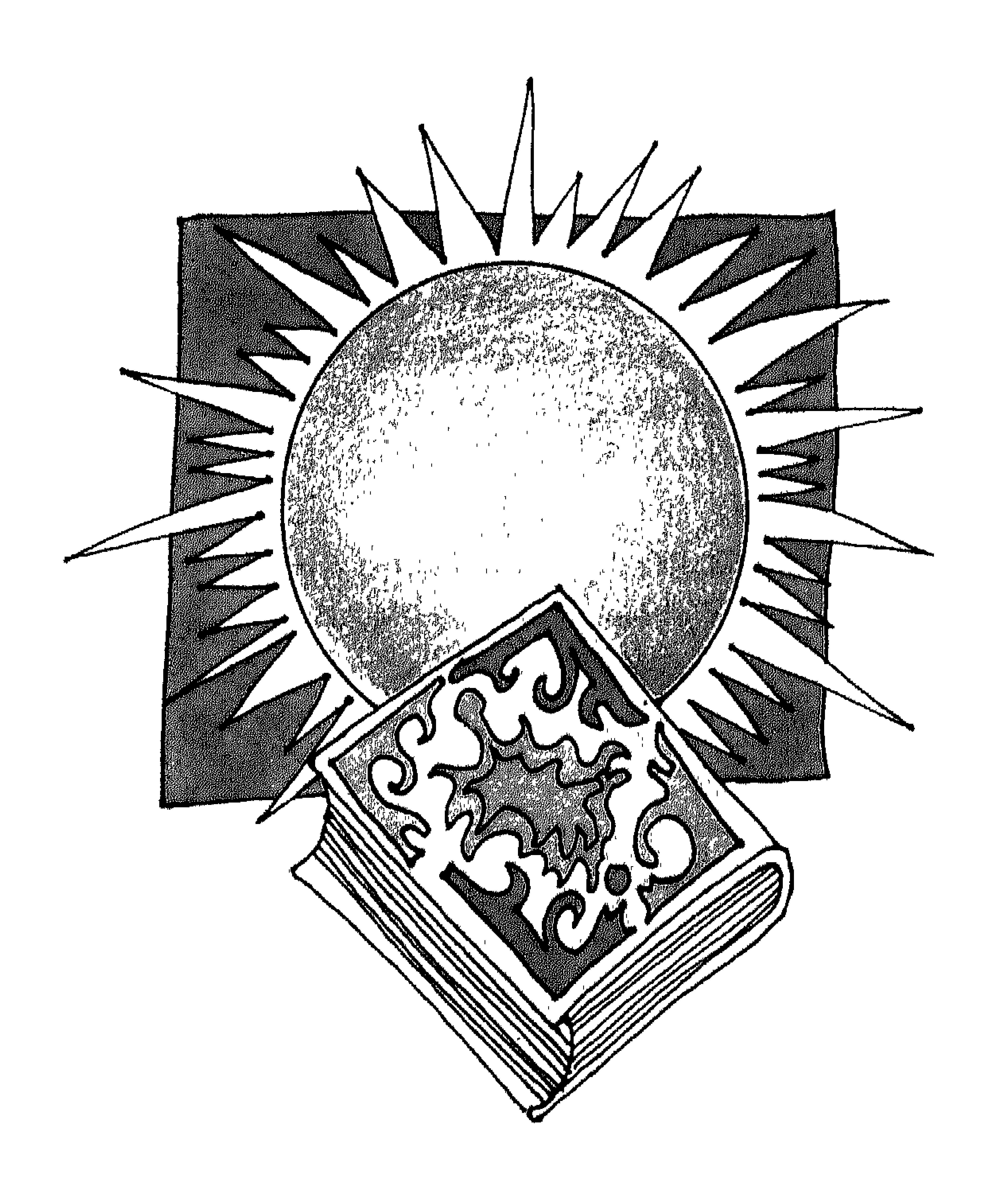
نزع استعمار التاريخ، وتصحيحه.

وإقامة حوار بين الحضارات كلها.

وبكلماته «كيف يمكن بناء تاريخ لا تحتكره حضارة واحدة؟».

إنه يرى في هذا المشروع الخلاص الوحيد للبشرية من خطر الفناء، فهل نشاركه هذا المشروع؟

***



التراث العربي يغزو أوربا*

من المألوف أن يقدم المرء إلى القارئ كتاباً جديداً، أو نظرة جديدة في كتاب قديم، ولكنه ربما كان من غير المألوف أن يقدم الكاتب إلى قرائه مجرد «طبعة» من كتاب معروف.

ولكن الذي يحب الكتب، أحياناً يقوده حب «موضوعات» إلى الكتب، إلى حب «الكتب» ذاتها، وبالتالي يقوده هذا الهوى إلى حب «الطبعة الجميلة» للكتاب.

وقد قال شوقي: ومن الحب ما قتل!

وبالتأكيد يمكن القول: ومن الحب ما يفلس صاحبه!

وقد عرفت هذا النوع من حب الكتب، الذي بدأ طبعاً بحب قراءة الكتب - وأنا صبي شاب - في دار الكتب أو بالاقتراض، ثم تطوز إلى حب اقتناء الكتب وليس الاكتفاء بقراءتها، وكأن المرء حين يقتني الكتاب فإنه «يتملكه» كما يتملك أي معشوق، ومن هذا الصنف ناس كثيرون، ليست بضاعتهم الكتابة، ولكنهم أنفقوا ما لديهم في اقتناء مكتبات هائلة، ولكن الأمر يتفاقم إذا أغرم صاحب الهواية بالطبعات القديمة، أو النادرة، ولا أقول المخطوطات، أو بالطبعات الأنيقة الفاخرة لكتب معينة، لها عنده منزلة خاصة.

وقد مررت بمرحلة، غرقت فيها في عالم «المزادات» التي كانت تقام في القاهرة لبيع المكتبات التي تركها أصحابها، لشراء طبعة نادرة أو ثمينة من كتاب

* العربي - العدد ٢٨٢ - مايو ١٩٨٢

معين، وهو أمر غريب، فالكتاب بموضوعه، وسطوره، ومحتواه، ومؤلفه، ومتعة قراءته في أرخص طبعة لا تقل عن متعة قراءته ولو كان مكتوباً بماء الذهب.

ولكن الكتاب الجميل، هو أحد فروع الفن الجميل، وأحياناً يوجد من يحب أن يرى كتاباً أثيراً لديه في أبهى حلة وأجمل طباعة وإخراج، حتى ولو كان هذا يعبر عن حب اقتناء قطعة من الفن الجميل، واقتناء النص الثمين، في جسد واحد، كالمعشوقة التي فيها الذكاء والجمال معاً!

.

ولعل العرب أول من عرفوا فن إخراج الكتاب كفن جميل قائم بذاته، ولست أزعم أنني مطلع على ما لدى الحضارات الأخرى في هذا المجال، ولكن «القرآن الكريم» كان عبر كل العصور ومنذ ألف وأربعمائة سنة تقريباً، موضوعاً لأعظم الخطاطين والمخرجين، وكأن بالفنانين المسيحيين وضعوا أعظم إنتاجهم منذ القدم في رسم جدران الكنائس، ولما كان الفنان المسلم ليس في مذهبه تزيين المساجد بالرسوم للأشخاص، فقد صبّ طاقته الفنية في كتابة القرآن، والتنافس في نسخه قرناً بعد قرن، وامتد هذا المزاج إلى بعض النسخ النادرة القليلة من الكتب الأخرى، فوق النقوش البديعة التي أخذت تزيّن المساجد في عواصم الحضارة العربية والإسلامية.

وفي عصر المطبعة، لم يزدهر هذا الفن كثيراً، إذ جاءت المطبعة مع اضمحلال الدولة الإسلامية والعالم العربي، وكان غيرنا، من أهل عصر النهضة الأوربية الذين جاءوا غزاة أو تجاراً أو رحالة إلى بلادنا، قد أخذوا يسجلون نقوشه ويطبعونها وينقلونها إلى متاحفهم.

وفي السنوات الأخيرة، ومع اليقظة العربية، ثم إحساس العرب من جديد بقيمة تراثهم القديم ومكانهم الجديد في العالم، ثم إحساس العالم بهم واهتمامه بمعرفة ما لديهم، بدأت محاولات لأن يدخل ناس منا في هذا المجال.

وما أريد أن أتحدث عنه اليوم، كتاب، ومجموعة كتب. كل منها أصدره ناشر لا أعرفه، وبالتالي لا أعرف هل هم ناشرون محترفون أم هواة، لأن ما صنعوه في إتقان الحرفة وجمال الهواية شيء يفوق الوصف.

الأول، هو كتاب من القطع الكبير، الذي يمكن أن تكون كل صفحة منه لوحة مستقلة بديعة بحجمها وإتقان طباعتها.

إن اسم «روائع الفن الإسلامي»، وفيما عدا اللوحات المطبوعة فيه، ليس فيه إلا مقدمة تروى أن نابليون بونابرت حين جاء إلى الشرق غازياً منذ قرنين جلب معه عشرين رساما من أعظم رسامي فرنسا في ذلك الوقت ليسجلوا فنون ذلك الشرق الغامض الغريب: المساجد، المساكن، الملابس، السلاح، الأواني.

وقد عاد نابليون بهذا الكنز إلى باريس، وكان الرسّامون بعد نهاية الحملة الفرنسية إلى مصر قد تفرّقوا في المشرق منجذبين بكنوزه المفاجئة، فلم يتم طبع هذه اللوحات لأول مرة في ثلاثة أجزاء إلا بعد عشرين عاماً.

والكتاب الجديد، الذي أتحدث عنه، هو مختارات من هذه الكمية الضخمة في جزء واحد، «جمعها واختارها ونشرها سعيد صلاح»، وفي الكتاب أن المطبوع منه خمسمائة نسخة فقط، مع تعليقات وشروح بالانجليزية والعربية.

وما أجدر أن توجد بعد ذلك طبعة بالآلاف لا بالمئات، حتى تتجه إلى العاشق الفني أيضاً لا إلى الأوربي فقط، وإن كان تقديم هذا التراث بالغ الجمال، إلى أوربا والعالم الخارجي، عملاً عظيم القيمة، ولا نريد أن ننزل من أعالي الفن الجميل إلى سفوح الإعلام، ونقول: إن مثل هذا يعطي العالم عن العرب فكرة لا تعطيها عشرات المكاتب ومئات المحاضرات وملايين الدولارات.

على أن العمل الذي أريد أن أقف عنده وقفة أطول، إذ يجتمع فيه النص والرسم والفن هو تلك المجموعة التي تتكون كل منها من صندوق واحد بديع بعنوان «من التراث البديع» وفي كل صندوق سبعة كتب مستقلة، هي:

*ابن خلدون: في المعاش والكسب والصنائع (وهو مختارات من مقدمة ابن خلدون الشهيرة).

*ابن طفيل: رسالة بن يقظان.

*ابن فضلان: رحلة إلى بلاد الصقالبة.

*الأبشيهي: في عجائب المخلوقات.

*بهاء الدين بن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي.

*ابن حزم: طوق الحمامة.
*والكتاب السابع، من تأليف كاتب فرنسي متخصص معاصر، هو «أندريه ميكايل» الأستاذ في معهد فرنسا، بعنوان «الإنسان والعالم: ستة كتاب عرب»، يتحدث فيه عن الكتب الستة المصاحبة في الصندوق نفسه.

أما السبب، فهو أن الناشر أصدر المجموعة نفسها في طبعتين: طبعة باللغة العربية، وطبعة باللغة الفرنسية، وكل طبعة من ألفي نسخة، مرقمة.

ولهذه المجموعة التي لا أعرف مثيلاً سبقها عدة مزايا فذة..

فالجمال البديع، والعناية والاتقان والبذخ في نوع الورق والطباعة والخط والرسم والإخراج؟ لا نظير له.

وجمع هذه الأعمال الستة الخالدة في التراث العربي، بين دفتي صندوق ورقي واحد أنيق، يضاعف قيمة كل عمل منها لو كان بمفرده.

وكل كتاب منها، في آخره مجموعة من الرسوم العربية والإسلامية النادرة، التي تمت بصلة إلى موضوع الكتاب، ومختارة - بلاشك - بعناية هائلة ومجهود غير عادي.

ففي آخر كتاب «رسالة حي بن يقظان» لابن طفيل، نجد الناشر يقدم الجزء الخاص بالرسوم قائلاً: «هذه الرسوم مستمدة من مخطوطة فريدة تتضمن الترجمة الفارسية لكتاب «منافع الحيوان» لأبي سعيد عبيدالله بن بختيشوع - ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩م - وقد نسخت هذه المخطوطة وزوقت في مراغة بأذربيجان سنة ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨م - وهي محفوظة في مكتبة بيير بونت مورجان بنيويورك تحت رقم ٥٠٠، وتنشر بإذن من مكتبة بيير مورجان».

وفي آخر كتاب ابن خلدون، يقدم لنا الناشر الجزء الخاص بالرسوم البديعة بقوله «هذه الرسوم مستمدة من إحدى مخطوطات كتاب «المقامات» للقاسم بن علي الحريري - البصرة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م - وقد نسخ هذه المخطوطة وزوّقها يحيى بن محمد الواسطي في بغداد سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧م، وهي تتضمن تسعة وتسعين رسماً تصور الحياة الاجتماعية في عصرها، اخترنا منها: القرية، الشحاذ، دكان الحجام، القابلة، الغازلة، السوق، الحانة، سفينة في بحر عمان، نزهة في بستان، تعليم الصبيان، القاضي، المكتبة العامة، الكاتب،

خطبة في مسجد، مجلس الوالي، الفرسان، تنشر بإذن المكتبة الوطنية بباريس، المخطوطة رقم ٥٨٤٧ عربي».

وطوق الحمامة لابن حزم رسومه من مخطوطة في مكتبة الفاتيكان.. وهكذا.

وحتى في مجال تنفيذ هذا العمل، نجد في آخر كل كتاب «هذا هو الكتاب رقم كذا من سلسلة «التراث العربي»، أخرجه ورسم غلافه وخط عناوينه محيي الدين اللباد، أنجزه المركز الجرافيكي العربي بالقاهرة، صف حروفه مركز الطباعة الحديثة ببيروت، وطبع في مطابع وريجر في ضاحية مون روج، بباريس، على ورق فرجيه أرجو ماري بريد.. إلخ.

ولعل ذكر هذا، يبدو وكأنه إسراف في التفاصيل، ولكنني قصدت أن أوضح الجهد الهائل الذي بُذل أولاً في جمع رسوم الكتب، ثم في إخراجها وطبعها في أحسن الأماكن بين القاهرة وبيروت وباريس وبمساعدة أمهر الفنانين، ذلك إننا بصدد «جمالية» الكتب فوق قيمة محتوياتها، فكل مجموعة - في تقديري - تزين بيتاً، فهي مجموعة كتب خالدة ومجموعة تحف باهرة الجمال في الوقت نفسه، ولا أعرف عملاً في هذا المستوى.

والعمل صادر عن داري نشر مشتركتين معا فيما يبدو: «منشورات المتوسط» و «منشورات كتابة». وعندما تحريت من بعض العارفين في باريس، عرفت أن الناشرين هما: الياس صنبر وفاروق مردم بك، وعلى متابعتي لحركة النشر فإنني لا أعرف - بعد - هل هما ناشران قديمان محترفان أم أنهما أرادا أن يبدءا شيئاً جديداً تماماً، فكان هذا العمل بالغ الرقي.

وقد اشتريت لنفسي نسخة عربية، ونسخة فرنسية.

وكان اهتمامي أكبر بأن أختبر أثر النسخة الفرنسية على من يزورني من أجانب دبلوماسيين أو صحافيين، وأدباء، فكان أثرها هائلاً، لا يكاد يصدق: فكل كتاب من المجموعة كنز: كنز في مفاجأة الموضوع لهم ككتاب ابن خلدون الذي كتب في علم الاجتماع والعمران وفلسفة العمران منذ ستمائة سنة، كل ما قاله - أساساً - بعده بقرون: آدم سميث في فلسفة الاقتصاد الحر، وكارل ماركس في فلسفة الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ، وشبنجلر وتوينبي في

فلسفة وتحليل نمو الحضارات وأفولها، وغيرهم وغيرهم وغيرهم، وكنز في الجزء الفني الملحق بكل كتاب من رسوم سبقت كل رسوم عصر النهضة في أوربا بقرون سحيقة.

هذه أشياء يعرفها في العالم المتقدم اليوم طبعاً «خاصة المتخصصين» من المستشرقين وغيرهم، ولكنها لا تذهب إلى أبعد من ذلك.

وقد نجح الناشران في اختيار الترجمات الفرنسية الموجودة أصلاً، لكبار المتخصصين الفرنسيين، بإشراف اليونسكو والمعاهد العلمية الفرنسية.

ولكنني أزعم أن صدور مثل هذه المجموعة، بهذا الشكل المنتقى، الأنيق، يمكن أن يوصل رسالة تلك الحضارة وعراقتها إلى شرائح أخرى أوسع وأوسع.

إن ثمن المجموعة الواحدة يصل إلى مائتي دولار، وهو ثمن غال طبعاً ولكنه في مستوى نفقاتها، والطبعة المرقمة التي لا تزيد عن ألفي نسخة من كل لغة.

ومرة أخرى أتساءل أسئلة عدة:

لماذا يا ترى لا تطلب الدول أو الهيئات أو الجامعة العربية طبعات أخرى، تهديها إلى شرائح أكثر من الألفي مشتر لكل مجموعة؟ إن تكاليف مؤتمر واحد كفيل بمضاعفة عدد المطلعين على هذا التراث.

وأتساءل:

هل من الممكن يا ترى أن يقوم الناشران بإصدار طبعة أخرى مماثلة، لكن تباع فيها الكتب السبعة فرادى، بحيث تصل إلى من يحب أن يشتري كتاباً واحداً، أو كتاباً بعد الآخر، ويدفع في الكتاب المفرد بهذا الشكل ما يساوي ٢٥ دولار تقريباً؟

وأتساءل:

إذا كان الأنجح - وأنا لا أعرف كل صعوبات النشر - أن تصدر من العمل نفسه بعد زمن طبعة أكبر عدداً وأقل سعراً، وصولاً للغاية نفسها.

هذه أمور متروكة للناشرين.

ولكنني أسأل نفسي:

هل مازالوا يا ترى يدرسون ابن خلدون - مثلاً - في مدارسنا العربية، وفي جامعاتنا، كما درسناه ونحن تلاميذ أم حدث تطوّر؟

إن قراءة تلك المختارات من مقدمة ابن خلدون، بواسطة أي شاب عربي، كفيلة بأن تفتح عينيه على أمور بالغة القيمة، وعلى أن تضع قيمة التراث - الحي منه - في ذهنه في إطاره الصحيح، وأن يعرف طريقه إلى هذا التراث حين يرى القيمة المعاصرة المذهلة لما فيه.

و «رسالة حي بن يقظان»؟

و «طوق الحمامة»؟

في تجربتي كتلميذ أنهم علّمونا كيف نكره هذه الأشياء ونستخف بها، وما أظن أن الشباب في مجموعة غير انطباعه هذا، إلا القلة الذين كتبت لهم اهتماماتهم بعد ذلك أن يعودوا إلى تلك الأشياء في مراحل أخرى من العمر والتجربة والنضج.

إن الالتفات العالمي إلى العرب كبير، وبالتالي إلى تراثهم، وإلى إنتاجهم المعاصر أيضاً، وهذه الثقافة تغزو أوربا الآن بهذه الجهود المبعثرة.

متى تغزو بلادنا العربية؟

***



حضارة المسدس... والدولار*

زرت الولايات المتحدة الامريكية، أول مرة، سنة ١٩٦٠.

وزرتها، آخر مرة، منذ أسابيع، أي في سنة ١٩٨٠، أي بعد عشرين سنة بالضبط وفي خلال ذلك زرتها حوالي عشر مرات. زرتها أحياناً كما يذهب «الطالب» والباحث في أحشائها من المحيط الأطلنطي شرقاً إلى المحيط الهادئ غرباً، وزرتها أحياناً كمحاضر في بعض جامعاتها، ومتأملاً في جوّها الأكاديمي، وأحياناً كمريض في مستشفياتها، وأحياناً كصحفي يتردد بين البيت الأبيض والكونجرس ووزارة الخارجية، والأمم المتحدة.

ولذلك، أعتقد أنني صرت أعرف بعض الشيء عن هذه القارة الحافلة، والدنيا الهائجة المائجة، تلك القارة التي قامت على الهجرة، على الوافدين، فلا يكاد يوجد شعب في العالم القديم، إلا وله جالية في هذا العالم الجديد، ومع ذلك تصهرهم بوتقة واحدة، في مساحة تبدو وكأنها لا آخر لها، وفي بيئات جغرافية متفاوتة، من المدن الكبرى، إلى القرى الصغيرة، إلى الجبال المغطاة بالثلوج، إلى المساحات الشاسعة من السهول الزراعية، إلى الصحراوات الحارة الكبرى التي تضارع صحارى آسيا وأفريقيا.

وهي مازالت دولة شابّة، ليست في شيخوخة أوربا مثلاً، فهي كالمعدة الشرهة تهضم المهاجرين، وتمتص العقول من كل أنحاء العالم، وكلنا نعرف في بلادنا مشكلة «هجرة العقول» ويعرفها معنا العالم كله من أوربا إلى آسيا وأفريقيا، فالشاب الذي يذهب طالباً للعلم، وينبغ، نادراً ما يعود إلى بلده، يعكس الذاهبين إلى

---

* العربي - العدد ٢٦١ - أغسطس ١٩٨٠

أوربا مثـلاً، وفي أمريكا يقولون «إن أهم سلعة تستوردها أمريكـا هـي الـعـقـول الأجنبية!»، وقد كان من المفروض أن ندرك نحن إن أهم سلعة نفقدها هـي هـذه العقول ذاتها، ولكن العقول لا تجد مكانها عندنا، وقوة الجذب هناك هائلة، ولكن تلك قضية أخرى، فمشكلة الكتابة عن أمريكا هي كثرة ما يمكن أن يكتب عنهـا، وإغراء الاستطراد عند كل قضية، وأنا أريد أو أحاول أن أتجه إلى قضية واحدة.

.. ومن يخالط الأمريكي العادي، يجد فيه صفات ممتازة، فـهـو أكـثـر مـن الأوربي بكثير في بساطته، وكرمه، وانفتاحه على الناس، وهو يقدّس قيماً إيجابية أهمها قيمة العمل، والعمل هو ما يميز الناس، لا الطبقة ولا الاسم ولا الأسـرة، كما هو الحال في فرنسا أو إنجلترا مثلاً.

وبالتالي ليس لديه عقدة «المظهرية» الموجودة في أوربا، فالأمريكي أقل الناس اهتماماً بثيابه - رجلاً كان أو امرأة - وأقلهم تصنّعاً وتكلّفاً.

فقد عشت - مثلاً - في بيوت أثرياء أمريكيين، وكنت أجد أن الابن الصبي إذا طلب شيئاً قال له أهله: إذن عليك بغسيل السيارة كل أسبوع ونعطيك كذا دولار، أو عليك بغسيل زجاج النوافذ والأبواب، أو اذهب إلى نادي التنس القريب حيث يحتاجون إلى أولاد يجمعون الكرات التي يلعب بها اللاعبون، فهو مهما كان حظ أسرته، لابد أن يعرف أن القرش له قيمة، وإن له أن يستمتع ويلهو بقدر ما يعمل ويكسب.

طبعاً، إذا دفعنا هذا الأسلوب في الحياة، أو لهذا المنطق، إلى نهايته، فإنه قـد ينقلب إلى شيء آخر مضاد، وفي هذه الحال مثلاً، يمكن أن يؤدي هذا المنطق إلى أن تصبح القيم مادية تمامـاً، القيمة الوحيدة فيها هي الدولار، وهذا - بالطـبـع - صحيح حين نلقي نظرة شاملة على منطق الحياة في الولايات المتحدة الأمريكيـة، بصرف النظر عن الأفراد في حد ذاتهم.

وأمريكا - كمجتمع - تتغير دائماً، تعيش اليوم فقط لا تنظر إلى الأمس أبداً، حتى التاريخ الذي نجده في المجتمعات القديمة لا وجود له هناك، إن الفتى من يقول هأنذا، ليس الفتى من يقول كان أبي! رجل مثل رونالد ريجان، لا يمكن تصـوّره مرشحاً لرئاسة الجمهورية في أي بلد في العالم - متقدما كان أو متأخـراً - إلا في أمريكا، ممثل سابق، مشهور، بالجهل السياسي، لا يهم، إنه يجمع الأصوات أكثر

من غيره، ففرصة الربح هي الأهم، إنك تريد أن تكسب أو تخسر، غير هذا غير وارد في البال.

في سنة ١٩٦٠، حين ذهبت إلى أمريكا أول مرة كانت عالم الأمان، كنت أدهش حين أرى الواقع كما رأيته في السينما! ينام الناس وبيوتهم غير مغلقة من الداخل، ويسير المرء في منتصف الليل وهو آمن، طبعاً كان هناك دائماً ما يسمى بالجريمة المنظمة، وهي العصابات الكبرى، ولكن هذه تهتم بالمال الكبير، ليس هدفها المواطن العادي، نمت وتضخمت كما نمت الشركات والمؤسسات وتضخمت، ولكن كل مرة يتغير شيء، إلى الأحسن أو إلى الأسوأ، ولكن المهم أن هناك تغييراً مستمراً، وكل تغير لابد أن يكون كاسحاً شاملاً.

الآن صارت الجريمة الفردية في كل مكان، فأكبر تجارة هي تجارة تحصين البيوت، وإذا كانت سيدة في سيارة ووقفت عند الإشارة في أكثر الأماكن ازدحاماً، تغلق الزجاج و «تتربس» الباب، فقد يخطف منها شيء، ولا يجوز لأحد أن يسير ومعه أكثر من خمسين دولاراً: فإذا كان معك مال كثير جرّدوك منه، وإذا لم يكن معك مال، ضربوك من شدة غيظهم.

كانت هناك مرحلة الهدوء، والمحافظة الأخلاقية، والتديّن.

ثم جاءت مرحلة الاغتيالات السياسية، من جون كنيدي إلى روبرت كنيدي إلى مارتن لوثر كنج.

ومرحلة «الهيبيز» والإباحية المطلقة.

ومرحلة ثورة الشباب على الحرب - أيام فيتنام. . . وحملات السلام!

وكل ظاهرة أو مرحلة كما قلت، لا تلبث أن تعم كل مكان في هذه الدولة - القارة، والسبب - في تقديري - هو السطوة الهائلة لما نسميه بوسائل الإعلام، سطوة أكثر من اللازم.

الصراع أشد من اللازم، جوانب الخير والشر على السواء، أكثر من اللازم، فهي بلد الوفرة في الرفاهية، وفي الجرائم على حد سواء.

وأعود إلى سطوة الإعلام، لأن هذه هي الجزئية التي أريد أن أقف عندها في هذا الحديث.

لقد عرفت أمريكا الصحافة، ثم عرفت الإذاعة، ثم عرفت السينما، ثم عرفت

التلفزيون.

وكما يتضخم كل شيء في أمريكا، ويتجه إلى التركيز والاحتكار - رغم كل القوانين - تضخمت هذه الوسائل حتى غطت تلك القارة من المحيط إلى المحيط، وصارت امبراطوريات شامخة تجثو أمامها أي سلطة أخرى.

وفي مجال التأثير على الناس، فحدّث ولا حرج، فالأمريكي في أي مكان كان يجد في غرفة نومه ذلك الصندوق السحري، التلفزيون، ويجد فيه - في المعدل - اثنتي عشرة قناة مختلفة، بعضها يعمل أربع وعشرين ساعة في اليوم دون انقطاع!

طبعاً كان للصحافة نفوذها الجبّار ومازال، ولكنها بالتأكيد أكثر نفوذاً لدى النخبة، ثم كانت السينما بسحرها، ثم الإذاعة باتساعها، ولكن هذه الأدوات بلغت قمتها في التأثير بظهور التلفزيون، فهذا الصندوق السحري، الذي ينقل العالم إلى كل بيت، يؤثر على النخبة وعلى السواد العام دون استثناء، وهو يسمر المشاهد في مكانه، يستأنسه، ويروّضه، بما يصبّه على رأس المشاهد كل يوم وكل ساعة، من مشاهد وأحداث، وقصص وتعليقات، وإعلانات إنه يكتسح تأثير الصحيفة، وتأثير البيت، وتأثير المدرسة، وتأثير الحزب السياسي، أو الزعيم.

ومع تعاظم فترة التلفزيون، صار يقدم للناس كل شيء، الترفيه، والإعلانات التجارية، والأحلام، والسياسة، وكل ما يمكن أن يفكر فيه المرء، فهو يحيط الفرد من كل جانب، من الجوانب الذهنية والعاطفية والسياسية، والاجتماعية.

مالم يحدث ويصوّر على التلفزيون كأنه لم يحدث قط! فأي زعيم سيجد جمهوراً أكثر من عشرة آلاف مستمع؟ وما قيمة هذا إلى دقيقة واحدة يراها مائة مليون مشاهد؟

ولأن المؤسسات الإعلامية، بما فيها التلفزيون، تجارية، فقد صار هذا هو الأساس في تنافسها، وصار الزعماء السياسيون ينافسون شركات صناعة الصابون في شراء الوقت على الشاشة الصغيرة، بالدقيقة والثانية، والدقيقة ثمنها عشرات الآلاف من الدولارات.

ونحن نعرف جميعاً أفلام «الغرب» التي نرى فيها قوافل المهاجرين، بالعربات والخيول تشق طريقها غرباً، وتنتزع الأرض من سكانها الهنود الحمر، وتقيم حياتها إزاء صعوبات هائلة، ونعرف أيضاً أفلام «الكاوبوي» أو «رعاة البقر»، حيث لا

يوجد قانون، ولكن يوجد أمران: الأول محاولة كسب الدولار بأي ثمن، والثاني أن الفوز لمن تكون يده أسرع في سحب المسدس وإطلاق النار.

.. أو كما قال الشاعر العربي القديم: وفاز باللذة الجسور!

ونحن نقول إن هذه الأفلام التي تعاد مئات وآلاف المرات تؤثر في الشعب الأمريكي، وهذا - طبعاً - صحيح، ولكن العكس أيضاً هو الأصح، والعكس هنا هو أن هذه الأفلام بالذات هي نتاج تجربة حقيقية، في تكوين الشعب الأمريكي، وصدى لقيم حقيقة مازالت كامنة فيه.

الفرد هو البداية والنهاية، ومن حق الفرد أن يصارع في سبيل نيل ما يريد، والبقاء للأقوى، الغاية هي الدولار، والوسيلة هي المسدس، البطل هو المغامر، القادر على العمل الشاق، يعتمد على نفسه فقط، وبندقيته هي وسيلته، عدواناً أو دفاعاً.

وقد يدهش الناس إذا علموا أنه حتى الآن بعد كل هذه الحضارة، مازالت أحد أهم «جماعات الضغط» - كالصهيونية وغيرها - أولئك الذين يدافعون عن حق اقتناء السلاح لكل فرد، فعندما بدأت موجة الاغتيالات السياسية، حاول أكثر من نائب في الكونجرس أن يقدم مشروع قانون يقيّد حق اقتناء السلاح، ولكن أحداً لم يتمكن من ذلك إلى الآن، وفي انتخابات الرئاسة، يهتم المرشح بكسب أصوات الناخبين بقبول الوضع الراهن، والوضع الراهن هو أنك تستطيع شراء البندقية أو المسدس حتى بواسطة البريد، وأمريكا أكثر بلد يتوافر فيه السلاح في أيدي الناس.

ففي تاريخ أمريكا خيط من العنف.

ذلك أن تاريخ أمريكا فيه ثلاث تجارب لا تُنسى، وهي تترك بصمتها على الشخصية الأمريكية إلى الآن.

الأولى: أن الأمريكي جاء مهاجراً، وكلما شغل مكاناً، زحف غرباً إلى مكان جديد وفرصة أوسع، وذلك بدافع فردية شديدة، وروح مغامرة، وعدم اعتماد الفرد على شيء إلا على نفسه.

والثانية: أنه، في هذه العملية كان يبيد في طريقه شعباً آخر هو شعب الهنود الحمر أصحاب البلاد الأصليين، فهو أخذ الأرض بذراعه وسلاحه وأخذها مخضبة بالدم، وليبرر لنفسه ذلك، لابد أن يؤمن بفكرة أن الأقوى هو صاحب الحق.

والثالثة: أنه خطف العبيد من أفريقيا، وجعلهم ملكاً له - كالدواب تماماً - في

أمريكا، أقام على أساس عبوديتهم زراعاته الواسعة، وبوصفه مالكاً مطلقاً لهم، فإنه ضربهم بالسياط، واستخدمهم في أشق أنواع العمل، ووضعهم في حظائر كالماشية، واغتصب نساءهم وحكم بالإعدام على من تمرّد منهم، إلى آخر مانعرف من قصة الزنوج المأساوية، في الولايات المتحدة.

ومع ذلك، فقد هاجر هذا الأمريكي من أوربا، هرباً من الاضطهادات الدينية، والفوارق الطبقية، هاجر باحثاً عن عالم مثالي في حريته، ولكن التجربة العملية أوقعته في هذا التناقض، ولذلك قال أحد المؤرخين الأمريكان «كان جيفرسون يقرأ «إعلان حقوق الإنسان» الذي انبثق عن الثورة الأمريكية وحرب الاستقلال ضد إنجلترا، وأمريكا نفسها غاصّة بملايين السود الأرقاء، يرزحون في قيود العبودية».

كأنها أثينا القديمة، التي عرفت أوسع أنواع الحرية لأهلها، ولكن قوتها قامت على العبيد «الذين ليست لهم أي حقوق».

هذه التجارب الثلاث، ظلت كامنة في النفس الأمريكية، تبدي نفسها في صور العنف الغريب، الذي إن لم يلمسوه في حياتهم الواقعية، تلمسوه في القصص، والأفلام، وعلى شاشة التلفزيون.

ولذلك، فالأمريكي يتنازعه عاملان: عامل الدفاع عن نفسه وتبرير مسلكه، وعامل التأثر بهذا الخيط من العنف الذي لم يستأصل من نفسه بعد، وقد كان المؤرخ الأمريكي عادة يقلل من هذا الجانب الكريه، ولكن كتّاب التاريخ المحدثين يكشفون عنه أكثر وأكثر، على أساس أن هذه المعرفة الكاملة هي خير وسيلة للخلاص من هذه العقدة، وحتى لا يتعلم التلميذ في المدرسة غير ما يدركه بعد ذلك حين يكبر.

فحين نرى الكمية الرهيبة من الأفلام البوليسية التي تنصب على رأس المتفرج ساعات طويلة كل يوم، نجد كأنها صورة عصرية لأفلام رعاة البقر، ولكن العمارات الشاهقة بدل الغابات والجبال، والسيارات بدلاً من الخيل، ولكن الدولار هو الهدف، والمسدس هو الوسيلة، والفرد في النهاية يعتمد على نفسه أكثر مما يعتمد على البوليس والمحاكم والقضاة.

الأمريكي يرى أنه أقام أنجح تجربة، وها هو الدليل في الوفرة الهائلة في كل شيء، ولكنه أقامها على أسس من الفردية المطلقة، والعنف، وقانون البقاء

للأقوى، ولمن يسحب مسدسه أسرع من غيره.

والتلفزيون الساحر، المسيطر، الباحث عن الربح، يتملق أي غريزة متاحة، ويبحث عن المثير الرهيب، وبذلك يمد في عمر هذه القيم، بدل أن يستخرجها من وجدان المشاهد، ويخلصه منها.

وقد كان من أعمق الأوتار التي عزفت عليها إسرائيل طوال ثلث قرن، هي المقارنة غير المباشرة بين تجربة الإسرائيلي والأمريكي: كلاهما مهاجر، وكلاهما طرد شعباً آخر من أرضه (بتصوير العرب على أنهم بدو ومثل الهنود الحمر) على أساس حق التفوق والقوة، فكان سهلاً على الأمريكي أن يرى في تجربة إسرائيل تبريراً حديثاً لتجربته، وأن يفهم منطق إسرائيل أكثر مما يفهم منطق العرب (الهنود الحمر).

وقد دخل الأمريكي السياسة الخارجية بهذا التكوين، حين صارت أمريكا دولة عظمى بعد الحرب العالمية الثانية.

دخلها معتقداً أنه يقوم بدور «المبشّر»، ينقل حضارة أمريكا إلى عالم متخلف عنها، ودخلها بالدولار والمسدس، وقدرته على أن يكون الأسرع في سحب المسدس، فقام بأعمال وحشية في فيتنام، ودمّر كمبوديا، وبرر ما يسمى بـ«العمليات القذرة» التي قامت بها المخابرات الأمريكية.

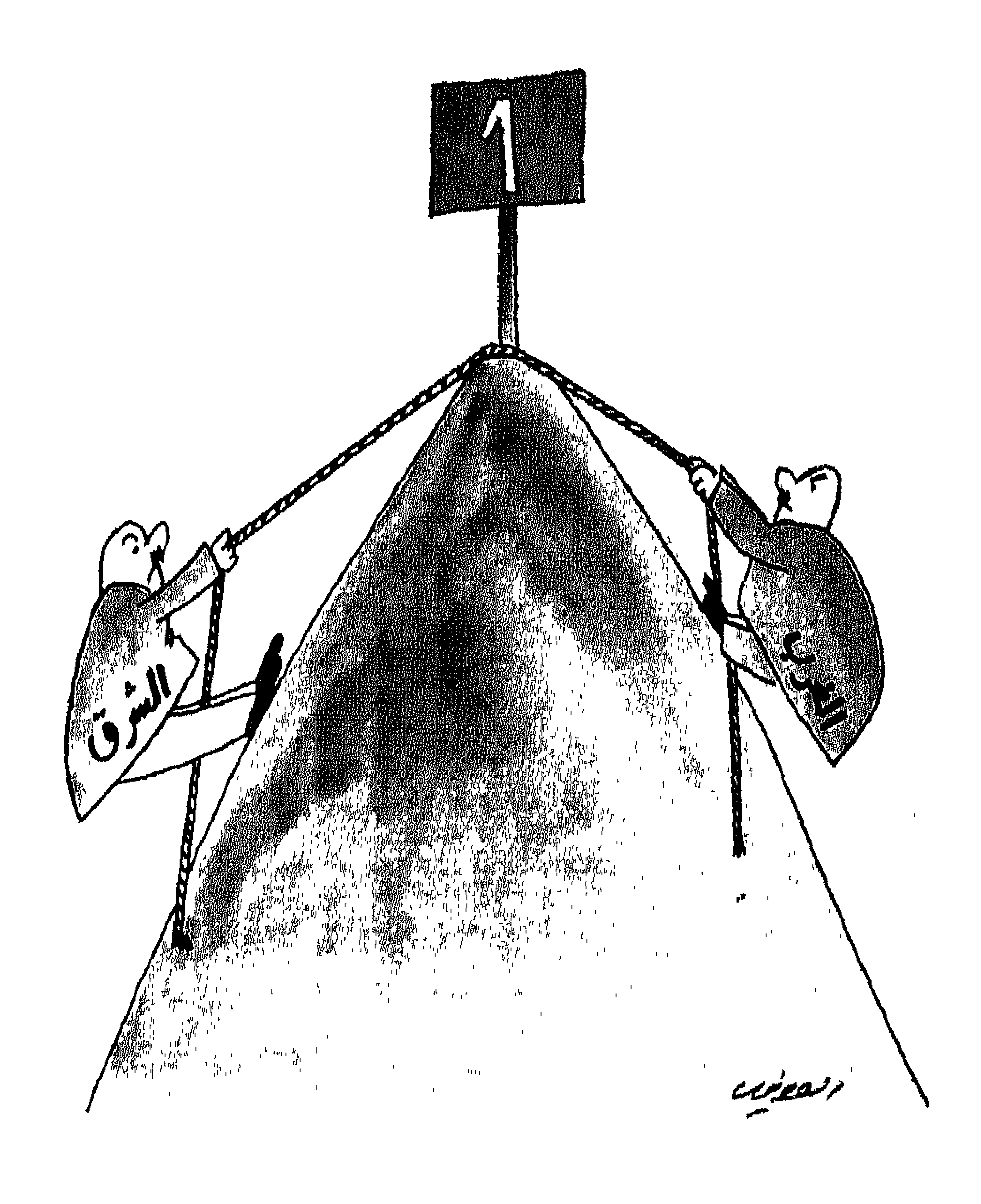
وقد قلت في أول الحديث إنني كلما ذهبت إلى الولايات المتحدة، وجدتها في حالة نفسية جديدة.

هذه المرة الأخيرة، كان الأمريكي العادي في حالة صدمة هائلة وحيرة بالغة، وذلك بفعل أمرين:

* البترول الذي جعله يشعر لأول مرة أن كل مورد له آخر، وله حدود وقيود ليست في يده تماماً، وهذا غير ما تعوده منذ هاجر إلى أمريكا.

* التوازن الذري، فقد أدرك لأول مرة أن هناك قوة أخرى دولية تتعادل معه - وقد تتفوق عليه - في السلاح الذري وقدرة التدمير، وهي الاتحاد السوفييتي، فهو لم يعد الكاوبوي الذي إذا ظهر في الشارع والمسدسان على جانبيه، ارتد الناس، ونكص الجميع عن مواجهته.

وتلك قصة أخرى... قد يكون لها حديث آخر.


1
الشرق

حضارات تزدهر ثم تهوي*

هذا الموضوع - كان دائماً - ومازال - يحيّرني كثيراً، ويثير اهتمامي في محاولة فهمه والبحث عن أسبابه.

وقد يبدو الموضوع، للوهلة الأولى، فلسفياً مجرّداً ولكنه ليس كذلك، وهو إذا كان قد أرهق كثيرين من المفكرين، فليس ذلك إلا لأنه موضوع حيوي خطير يتصل بفهم الإنسان لحياته، وماضيه وحاضره ومستقبله، وهل هناك أهم من هذه الأسئلة في تأثيرها على كل مجتمع.

الموضوع ببساطة، هو أننا عندما نستعرض تاريخ الإنسانية، ونتأمل الحضارات التي أقامها الإنسان - بدرجات متفاوتة - في مختلف أنحاء الدنيا، نستطيع أن نفهم ببساطة ظاهرة نشوء الحضارات وقيامها وثباتها لسنوات طويلة.

أي أن النمو والتقدم في حياة أي مجتمع، أمر طبيعي، ومفهوم.

ولكن السؤال اللغز هو: لماذا يحدث العكس؟ ما الذي يجعل مجتمعاً يصل بمقاييس عصره، إلى قمة الحضارة، ثم يبدأ بعد ذلك في الهبوط والاضمحلال؟ - أي ما الذي يجعل الحضارات تندثر ويجف فيها ماء الحياة بعد ازدهار؟ ما الذي يجعل نظاماً متكاملاً للحكم وسطوة واسعة للدولة، وازدهاراً كبيراً للعلوم والفنون والقيم السائدة، ما الذي يجعل هذا كله ينهار، ويتهاوى، فتحل الفوضى محل النظام والجهل بعد العلم، وقيم التخلف

---

* العربي - العدد ٢٠٩ - أبريل ١٩٧٦

والتأخر محل قيم التقدم والاستنارة والعمل والعرفان؟
ظاهرة قيام الحضارات لا تثير الدهشة.
ولكن ظاهرة انهيارها وانحلالها هي الأمر الذي يبدو غريباً.
وأهمية دراسة هذه الظاهرة واضحة، فمنها نأخذ العبرة في النظر والتصرف في كثير من أمور حياتنا، وهي نظرة شاملة لابد أن نتأملها من حين لآخر، في عصر مزدحم مضطرب يغرقنا يومياً في التفاصيل المتلاحقة.
طبعاً، هناك حضارات نشأت ثم لم يكتب لها النمو الثاني، فلم تلبث أن اندثرت بسرعة، كحضارة الأزتين في أمريكا الجنوبية، وبعض الحضارات في أفريقيا، لظروف كثيرة لم تساعد على نموها وانتشارها بالدرجة الكافية.
وهناك أيضاً حضارات اندثرت تحت وطأة ضربات خارجية من قوى وتجمعات بشرية أقوى ولو بالمعنى الحربي فقط، وإن كانت حتى هذه الحضارات التي تهاوت إنما مهّد لانهيارها ضعفها الداخلي، وإن كانت أكثر حضارة ورقيّاً، أكثر مما تسبب فيه عدوّها الخارجي، فالمغول والتتار دمّروا دولاً أرقى ولكنها أضعف في البنية العسكرية.

وهنا قد يحسن التنبيه إلى أن كلمة حضارة تعني أكثر من مجرد القوة المادية والعسكرية، فهي مجموعة من القيم المستقرة التي يشمل ازدهارها وعطاؤها كل شيء من مجالات الحرب والسلاح إلى مجالات التنظيم والإنتاج والفكر والارتقاء بالحياة الإنسانية نوعاً وكمّاً على السواء، فالتتار - مثلاً - كانوا قوة تدميرية ولكنهم لم يؤسسوا ما يسمى حضارة، فلم يتركوا وراءهم للإنسانية شيئاً يضاف إلى تراثها لا في الهندسة والعمران ولا في نظم الحكم ولا في الفكر والفن.
على أن السؤال هو عن الحضارات الجديرة بهذا الاسم، والتي شملت عدداً كبيراً من الناس ومساحة شاسعة من الأرض، وبلغت في كل المجالات شأواً عظيماً.
حضارة الفراعنة في مصر القديمة (اندثرت قبل الفتح العربي، بل وقبل الغزو الروماني بكثير)، حضارة الصين العظيمة، وحضارة روما التي حكمت

العالم المعروف وقتها تقريباً قروناً طويلة، الحضارة العربية الإسلامية الشامخة.

لماذا حدث الانهيار؟

السؤال مطروح الآن، وبشدة، في أماكن كثيرة من العالم، لأن هناك من المفكرين من يرون أن الحضارة الغربية الراهنة - والتي تحكم العالم ويقلّدها ويتطلع إليها الجميع - قد دخلت مرحلة الانهيار.

وهم في هذا المجال يشيرون إلى أشياء كثيرة منها انتشار القيم المادية واختفاء الدين وانحلال الأخلاق، الاضطرابات الاجتماعية والفضائح المالية الكبرى وانتشار الأسلحة الذرية وبالتالي احتمال قيام حرب ذرية تؤخر الإنسانية ألف سنة.. إلى آخره.

وأحب أن أسجل هنا للقارئ العربي أموراً عدة، الأمر الأول أنني لست من المتبنين لهذا الرأي بسهولة، والأمر الثاني أنه حتى إذا كانت حضارة هذا العصر التي ولدت في أوربا قد دخلت مرحلة الانهيار، فهذه مرحلة تستغرق في العادة قروناً، وقد تقترن بشهوة إلى البطش بالغير، والأمر الثالث أن بعض العرب بوعي أو بلا وعي يستسهلون الأمر ويرون مستقبلنا في عوامل انحلال الحضارة السائدة وانهيارها وهو تفكير سلبي، غير صحيح، ويحطم حماسنا اللازم للجهد الذي يجب أن نبذله في التقدم.

ولكن الأمر، على أي حال، يحتاج إلى التأمل.

وقد كان أول من تنبأ تنبؤاً قاطعاً بانهيار الغرب، الفيلسوف الألماني العظيم «أوزوالد شبنجلر»، وأعلن رأيه هذا قبل ثلاثين سنة، معززاً رأيه بنظرية في التاريخ تقول إن التاريخ الإنساني ليس خطاً مستقيماً إلى التقدم، ولكنه دورات متعاقبة من النمو والانحلال، وأن كل حضارة هي أشبه بإنسان، يولد وينمو وينضج، ثم يشيخ ويذبل ويموت، ثم تبدأ دورة حضارة أخرى في مكان آخر من العالم وهكذا.

وبلغ من تعصب شبنجلر لفكرته، أنه كان يرى الخطر آتياً من الشعوب السمراء والملونة، وهاجم فتح أبواب جامعات أوربا لأبناء هذه الشعوب، لأنهم بذلك يتعلمون لب الحضارة الغربية ليدمّروها في المستقبل، بعد أن

يكونوا قد نقلوها إلى بلادهم!

وجاء بعده فيلسوف آخر في علم التاريخ، هو أرنولد توينبي الذي مات منذ شهور، وقد آمن في الأساس بفكرة شبنجلر في أن التاريخ دورات حضارية تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت، ولكنه قال إن هذا لن يحدث للحضارة الراهنة، والسبب - في رأيه - أن الحضارة الراهنة تعلمت التاريخ وعرفت الخطر، فهي سوف تتمكن من أن تتجنب تكراره.

ولنتأمل - مثلاً - دولة إنجلترا، ليس فقط لأن مشاكلها تشبه مشاكل كثير غيرها من البلاد المتقدمة - على درجات مختلفة - ولكن لأنها أيضاً أول دولة صناعية في العصر الحديث، وأقدم دولة في النظام السياسي الديمقراطي الذي يُضرب به المثل في الاستقرار، ولأنها حتى عهد زوال الإمبراطوريات كانت أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ، ولأن شعبها فوق ذلك تميز خلال هذا كله، وبفضل هذا كله بصفات اشتهر بها في الانضباط، والاعتدال والقيام بالواجب، وحب المغامرة، وتحمّل الأزمات والحروب.

مظاهر كثيرة نراها على السطح: التضخم، البطالة، الصراع الاجتماعي الحاد بين نقابات العمال وبين الحكومات، حتى صارت السلطة ليست مقصورة على البرلمان ومحصورة فيه، بل صارت النقابات طرفاً آخر، يرغم الحكومات على سياسات غير ما يقررها مجموع الشعب «في الانتخابات»، واهتزاز نظام الحزبين العريقين الذي ميّزها عن سائر أوربا بحيث صارا متقاربين أو صارت كل حكومة هي في الواقع، حكومة أغلبية». وضربت إنجلترا رقماً قياسياً في التضخم من جهة، وفي هبوط الاسترليني وتزعزعه ونزوله عن عرشه من جهة أخرى، وتميزت بأكبر عدد من الاضرابات في العالم، وبالتالي تخلف إنتاجها الذي تعيش عليه وسبقتها دول أخرى كثيرة.

أكثر من ذلك أن هذه الأزمات كلها، التي أنقذتها من الإفلاس أحياناً بنوك أوربا وأمريكا مجتمعة بقروض جعلتها من أكثر الدول استدانة، دفعت إلى السطح فجأة نزعات انفصالية، وأحيت معارك حسمت منذ مئات السنين، فعاد الكاثوليك يحاربون البروتستانت في شمال إيرلندا، ووجدت اسكتلندا أن البترول ظهر في بحارها فظهرت فيها حركة انفصالية قوية،

والنزعات المتطرفة في ويلز لإحياء اللغة المحلية والشخصية المحلية التي كان أصحابها يعتبرون مجانين، صار لها وجود ونواب في البرلمان، «فالمملكة المتحدة» مهددة بأن تعود ممالك غير متحدة.

وعندما تفاقم إضراب عمال مناجم الفحم - الذي أدى إلى إسقاط حكومة المحافظين - ظهرت في إنجلترا معقل الديمقراطية - منظمات أهلية شبه حربية، يقودها جنرالات سابقون استعداداً للمواجهة مع النقابات، وللإستيلاء على المرافق العامة بالقوة إذا دعت الحاجة ونفذ العمال إضراباً شاملاً يوقف عجلة الحياة تماماً في البلاد.

تمزقات عنيفة جداً وحادة، في مجتمع عرف بخبرته في تخطي أزماته، بدأت تهدد نسيج الشعب البريطاني ذاته، فظهر زعماء متطرفون مثل «إينوك بويل» يدعو إلى طرد كل غير الإنجليز من إنجلترا، في حين أن الإنجليز صاروا يستنكفون القيام بأعمال يدوية كثيرة لابد منها، ولا يقبل بها إلا المهاجرون الأفارقة والآسيويون، وظهر زعيم آخر مثل «كيث جوزيف» يدعو إلى حل عنصري على الشعب الإنجليزي نفسه حين قال إن المشكلة هي أن نسبة التناسل بين الطبقات الفقيرة الإنجليزية تفوق نسبة التناسل في الطبقات الأعلى، وهذا يهدد بالهبوط «بنوعية الشعب الإنجليزي»!

وفي الوقت نفسه، انتزعت لندن من عواصم أخرى الأولوية في ميدان الإباحية الأخلاقية، ففيها ظهرت أول مسرحيات للعراة تماماً، وفيها سمح تحت الضغط باستخدام الألفاظ النابية في الإذاعة والتلفزيون، وصارت لندن بوجه عام عاصمة اللهو سابقة بذلك باريس وغيرها.

وامتلأت الثقافة الإنجليزية بالسخرية من تاريخ إنجلترا الإمبراطوري، وانتشرت المسرحيات التي تسخر من رموزها المقدسة مثل كيتشنر وغيره، وجوهر الحملة أن أهداف المجتمع في الماضي، المجد والأولوية والتفوق والنفوذ، أهداف سخيفة، إنما الهدف الوحيد الجدير بالإنسان هو: اللذة! ومن أقصر وأسهل طريق.

وهنا في الحقيقة مربط الفرس، كما يقولون.

وباتفاق أهل الرأي في كل مجال، أن كل الأمراض الاقتصادية وغير الاقتصادية تكمن في أشياء أعمق وأهم.

أولها: أن الشعب الإنجليزي صار يستهلك أكثر مما ينتج، وبالتالي فلابد له أن يستدين، غير حاسب أي حساب للغد.

وثانيها: أن الفرد صار يطالب بحقوقه في كل متع الحياة ولو كان سبيله إلى ذلك الامتناع عن قيامه بواجباته.

وثالثها: أنه في حيرة من هويته، هل هو مع الكومنولث وما وراء البحار؟ أم أنه جزء من أوربا التي كان يزدريها، ولابد أن يتنازل عن جزء من حريته لها؟ أم الأسهل من هذا وذاك أن يستسلم للتبعية الأمريكية ويصبح أشبه بولاية من ولاياتها؟

والتنبؤات في هذا المجال قديمة.

فمنذ ما يقرب من مائتي سنة قال نابليون: إن أوربا شاخت، وأن القوة الآتية تكمن في مكانين كانا بكرا: أمريكا بشبابها الطاغي، وروسيا (القيصرية في ذلك الوقت) بذلها الشديد الذي لابد أن يتفجّر عن شيء جديد قوي!

وقبل خمسين سنة، نجد في إحدى مسرحيات برناردشو مشهداً يدخل فيه السفير الأمريكي مبتهجاً على ملكة إنجلترا يعلنها بخبر مثير: أن أمريكا قررت إنهاء انفصالها عن إنجلترا أو العودة إلى الولاء للتاج، وحين تبدي الملكة دهشتها يرد السفير قائلاً: إن هذا سيتم في مقابل أمر بسيط هو أن تنتقل الملكة - والتاج - إلى أمريكا!

والمعنى واضح في أنه يشير إلى دخول إنجلترا في فلك أمريكا وتبعيتها لها.

المهم، نعود إلى التشخيص الأصلي وهو أن الشعب الإنجليزي عبر التطور، انهارت مجموعة القيم والمثل التي كانت توجه حياته، ولم تحل محلها - بعد - مجموعة قيم ومثل أخرى تواجه مشكلة العصر الراهن.

وسادت فلسفة اللذة، تلك الفلسفة «الرواقية» المدونة من أيام الإغريق، واللذة في المجتمع الإنجليزي لم تعد كما كانت، لم تعد في العمل، أو الكسب، أو الفتح، أو الاستكشاف، بل لذة الاستمتاع بكل ما تتيحه الحياة

الحديثة من سلع استهلاكية ووسائل ترفيه، وعلاقات حرة خالية من كل ضوابط اجتماعية.

وفي هذه الأشياء ما يمس مجتمعات متحضّرة كثيرة، وفي تقديري، أن سيادة القيم المادية سيادة مطلقة، واعتبار عنصر التحضّر الوحيد هو إعادة - من مادية القوة المسلحة إلى مادية الكسب واقتناء السلع إلى مادية غلبة اللذات الحسية على سائر أنواع المتع الإنسانية والاجتماعية والذهنية، بل واقتران الجذور في اختلال دورة الحياة في شجرة الحضارة، وبوادر ذبول فروعها وأغصانها، وتساقط بعض أوراقها.

ولهذه الظاهرة التي تزداد طغياناً كل يوم، أمثال في نهايات حضارات سابقة.

وننظر إلى مجتمع آخر صناعي، يعتبر بالمقاييس المادية ناجحاً جداً، بل أنجح نموذج معاصر، وهو اليابان.

هناك توجد مشاكل إنجلترا الاقتصادية بهذا الشكل.

وهناك مجتمع ظل متخلفاً، تقليدياً، مغلقاً، إلى ما يقرب من مائة سنة، ثم صار خلال قرن واحد في المقدمة، ويضرب به المثل في النجاح والكفاءة.

ولكن من أعجب ما قرأته أخيراً تقرير لجريدة «الأوبزيرفر» الإنجليزية من اليابان، يتحدث عن ظاهرة انتشرت في اليابان، وهي وأد الأطفال الرضع بأيدي أمهاتهم!

ويقول التقرير إن الدولة اكتشفت مائتي حالة على الأقل أقدمت فيها الأمهات - وكلهن شابات متزوجات - على قتل أطفالهن قبل أن يتموا سنة واحدة من العمر، وأن علماء النفس والاجتماع في اليابان في حالة ذعر وحيرة إزاء هذه الظاهرة!

وقد عرفت بعض المجتمعات، في عصور سحيقة، ظاهرة وأد الأطفال.

ففي بعض القبائل العربية - في الجاهلية وقبل الإسلام - كان يتم وأد البنات، أي دفنهن أحياء حتى الموت، لأن البنت كانت تقترن بالمسئولية وعدم الكسب واحتمال العار، حتى جاء الإسلام فحرّم الوأد تحريماً قاطعاً بنص قرآني صريح.

وفي اليونان القديمة، كانوا يضعون الأطفال عرايا على سفوح الجبال، ليموت الضعيف ولا يعيش إلا القوي.

وكان الفقر أحياناً هو السبب، ففي أيام انحطاط الصين وانتشار البؤس والفيضانات والمجاعات وجدت ظاهرة وأد الأطفال أو بيعهم لأسر غنية تكفل لهم الرزق.

ومع أن الجريدة تقول إن عادة وأد الأطفال الرضع وجدت على نطاق ضيق في تاريخ اليابان القديم، إلا أن هذه الظاهرة جديدة تماماً، فاليابان الحديثة التي نعرفها اليوم ليس فيها مشكلة الفقر الذي يدفع الأم إلى قتل طفلها، ثم إن معظم الأمهات شابات، وعلى درجة من التعليم، وأكثرهن يعملن إلى جانب الزوج ويشاركن في المجتمع.

والغريب أنني أذكر عندما زرت اليابان، أنني كتبت أنها البلد الوحيد في العالم الذي نجح فيه تحديد النسل، فليست هناك موانع دينية تقف في طريق أي تشريع، وبالتالي استخدمت هناك كل الوسائل ابتداء من إباحة الإجهاض وانتهاء بالتعقيم المطلق ضد الإنجاب.

ولكن التفسير الذي يعطيه الاجتماعيون لهذه الظاهرة - مهما كانت قلتها - أن المرأة الحديثة صارت مشدودة إلى قيم المجتمع الراهن من رفاهية مادية وحرية واستمتاع أناني بالحياة إلى أقصى الحدود، لدرجة تجعل بعضهن يقدمن هذه الأشياء على عاطفة الأمومة الأزلية الخالدة، بأهميتها البالغة في بناء الأسرة والحياة والمجتمع.

مرة أخرى، نموذج صارخ على طغيان المعيار المادي والاستمتاع الشخصي المباشر على أي شيء آخر.

وهذا كله يطرح على الإنسانية سؤالاً، لعله أهم الأسئلة الفكرية اليوم:

هل النموذج الحضاري الذي نراه الآن هو النموذج الوحيد الذي كتب على الإنسانية أن تقتفي أثره وتقلّده حتى ولو قادها إلى الهلاك؟

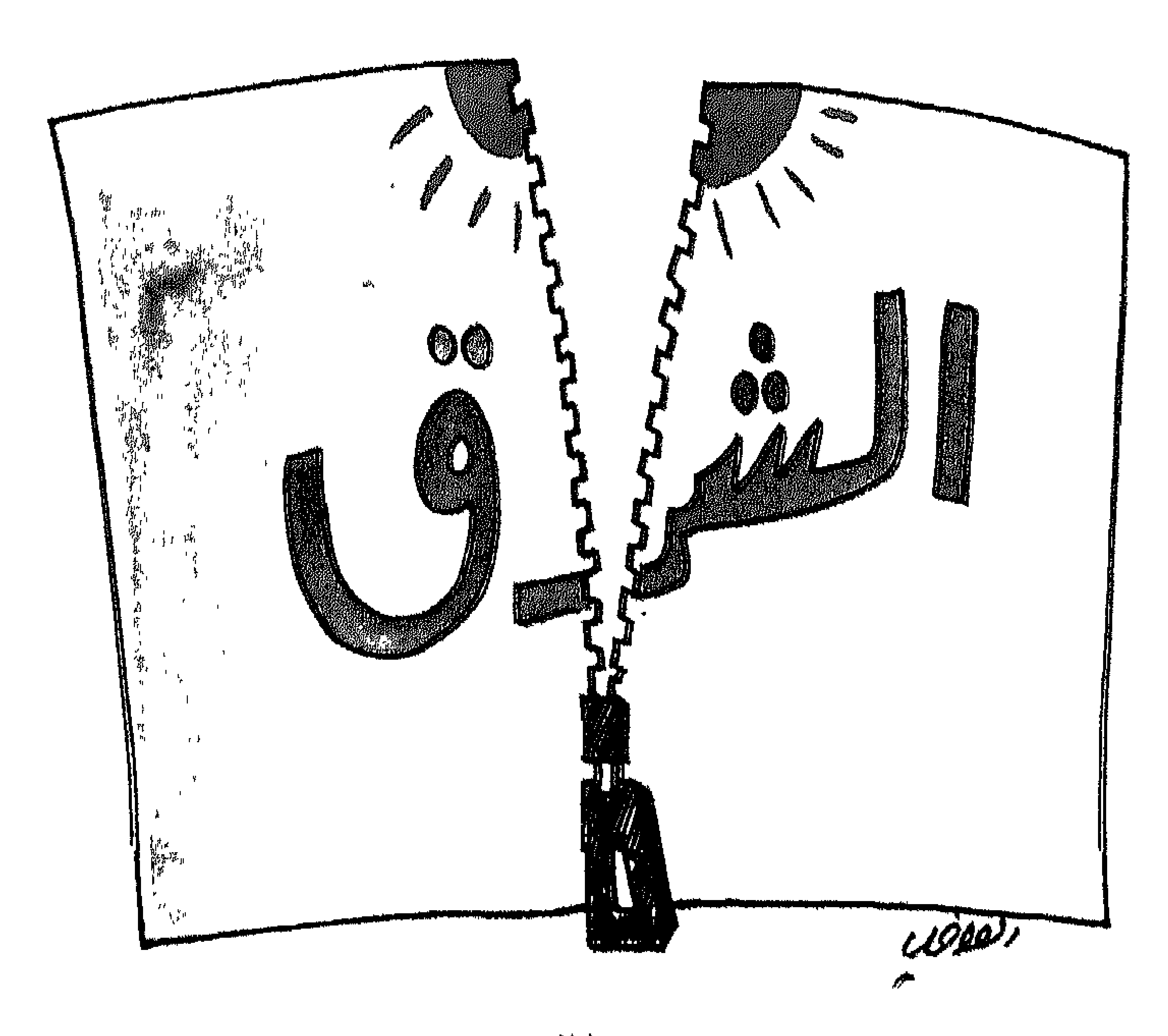
أم أن هناك نماذج أخرى وقيماً أخرى يمكن البحث عنها؟

وهذا سؤال يهمّنا، نحن العرب بالذات، لأننا ورثة حضارة كبرى،

ولأننا مؤهلون لأن نلعب دوراً آخر عظيماً، ولأننا في مرحلة انتقال، ولابد أن نشارك في النقاش العالمي الدائر حولنا.

ولكن هذا سؤال كثير، قد يحتاج إلى حديث آخر.

***


الشرق

من .. حضارة ذهبية قديمة
إلى .. حضارة جديدة لا مفرّ منها*

كان الحديث يدور بين بعض «المثقفين»، هنا في الكويت، وإن جاءوا من أقطار عربية مختلفة عن حريق دار الأوبرا في القاهرة، وما أعلن وقتها عن إعادة بنائها فوراً، ولماذا لم يتم شيء من هذا إلى الآن، وبقي مكان الأوبرا ساحة واسعة لوقوف السيارات، وذلك بوصف أنها كانت دار الأوبرا الوحيدة في العالم العربي، وأنها كانت أحد أبرز معالم القاهرة، ليس بمبناها، ولكن برمزها ومعناها، وما كان تقدم فوق خشبتها من أعمال فنية، وفرق عالمية، وما كانت تقوم به بالتالي من دور كهمزة وصل بين عاصمة عربية وعواصم العالم المتقدم في مجال مهم من مجالات الثقافة والفكر والفن والمتعة الراقية.

وتحمس فريق لضرورة إعادة بناء دار الأوبرا، مهما كانت ظروف الحرب وظروف الاقتصاد، فلابد أن يقتطع لها نصيب من ميزانيات وزارات الثقافة والتعليم والتعمير، لأن الأوبرا حجر أساس في الثقافة والتعليم والتعمير جميعاً.

وتحمس آخرون لأن يتبرع الشعب في مصر - ومن يشاء بعد ذلك من خارج مصر - وخصوصاً المثقفين منه لبناء الأوبرا، ففي التبرع الشعبي معنى المبادرة العامة من المهتمين بارتقاء بلادهم في مجال يهتمون به، وإذا كان غيرهم من أبناء الشعب يقاتل في ساعات أخرى، فتلك ساحتهم التي يقاتلون فيها.

وطرح آخرون سؤالاً مهماً:

---

* العربي - العدد ٢١٠ - مايو ١٩٧٦

صحيح أن احتراق دار الأوبرا في القاهرة، كان خسارة فادحة بكل المعاني.

ولكن، أما وقد احترقت فعلاً وانتهى الأمر، وصار إعادة بنائها أمراً يكلف مبالغ ضخمة من ميزانية الدولة كانت، أو من أموال التبرعات، فهل يا ترى بناء دار للأوبرا، بهذه التكاليف الضخمة، يأتي حقاً في هذه المرتبة المتقدمة من سلم الأولويات بالنسبة لأي شعب يواجه متطلبات أخرى أولى وأهم، حتى في ميدان الثقافة؟

إن دار الأوبرا في أي مكان لا يرتادها إلا الخاصة من المثقفين، وهم قلة قليلة بين مجموع أي شعب من شعوب بلادنا.

فهل إنفاق المال على بناء دار للأوبرا أهم، أم أن الأجدى إنفاق هذا المال في مكافحة الأميّة مثلاً؟ أو في توسيع نطاق المدارس والجامعات؟ أو على الصحة العامة... إلى آخره.

واحتدم النقاش، دون أن يصل إلى قرار.

أثار هذا النقاش في خاطري قضية أساسية من القضايا التي تواجهها بلادنا وكل البلاد الآخذة في التقدم، وهي قضية: النخبة، والجماهير.

كما أنه أثار في خاطري قضية أخرى مهمة، هي قضية العلوم العلمية والتطبيقية، كالهندسة والطب والكيمياء، والعلوم الإنسانية كالقانون والأدب والفن والاجتماع والتاريخ.

وعلاقة الأمرين بحكاية الاختيار بين بناء دار للأوبرا أو الإنفاق على محو الأمية، علاقة واضحة.

فبالنسبة للعلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية، نجد أنه لو قام من يدعو إلى إنفاق الملايين لتوفير وسائل البحث العلمي من أجهزة ومعامل، لما اعترض عليه أحد، في حين أنه لو قام من يدعو إلى إنفاق هذه المبالغ على ما يشبه هذه المعامل بالنسبة لأهل العلوم الإنسانية، لجادل في ذلك المجادلون، وذلك مظهر من مظاهر التصوّر الكاسح للحضارة بوصفها تتمثل في الجوانب المادية للحياة، دون الجوانب المعنوية، فالحضارة هي السيارة والطائرة والمصنع والمدفع، وأي شيء يساعد على التقدم في هذه العلوم أساسي ومفهوم وموضع حماس الجميع، أما الجوانب المعنوية للحضارة التي تتمثل في «مجموعة القيم» التي

يأخذ بها المجتمع المتحضّر، وهي القيم التي تحرسها وترعاها وتطورها العلوم الإنسانية، فهي أمور صارت في نظر الناس ثانوية، أو نوعاً من أنواع الترف.

وقد نجد هذا الرأي قوياً بين المجتمعات التي لديها ذخيرة قديمة من العلوم الإنسانية، من فلسفة وعقائد وفكر وفن، ولكنها مع ذلك تشعر أنها في الذيل من طابور التقدم.

وينطبق هذا - مثلاً - على عالمنا العربي بتراثه الفني في كل هذه الأمور، وفقرة في أرباب القوة المادية.

ويختزل هذا الموقف، القول المأثور عن أمين الريحاني: أنا الشرق عندي فلسفات، مَن يأخذها ويعطيني دبابات وطائرات!

ومثل هذه الاتجاهات في حياة الشعوب، في فترات معينة، كثيراً ما تكون بمنزلة «رد فعل».

فالبلاد ذات الحضارات العريقة كالعرب والهند والصين مثلاً، تجد أن لديها تراثاً عريقاً كما ذكرت في الثقافة والتراث، وكل ما يدخل تحت باب العلوم الإنسانية، ولكنها مع ذلك تجد نفسها في عالمنا هذا الحديث مستضعفة، فهي لم تلحق بالثورة «الصناعية» التي هي نتيجة العلوم التطبيقية، ثم لم تلحق بعصر «ما بعد الثورة الصناعية» الذي نعيشه الآن، فاتها عصر البخار، ثم عصر الكهرباء، ويفوتها الآن عصر الذرّة، وإزاء هذا يكون ردّ الفعل حاداً، أحياناً يكون بالفزع من مواجهة مستقبل هذا وصفه، وبالهروب إلى الماضي، والدعوة إلى استرجاع عصر كان ذهبياً، في حين أنه كان ذهبياً في ظروفه وزمانه، وعودته برمته لا يعني بالضرورة أنه سيكون ذهبياً مرة أخرى، وأحياناً يصل ببعض الشعوب إلى درجة كراهية هذا الماضي المجيد، والرغبة في تحطيمه، كأنه هو العقبة التي تحول دون تقدمها، كما حدث في الصين، خلال ما أسمته بالثورة الثقافية، فقاموا يهاجمون كونفوشيوس، ويندّدون بكل الحكماء الأوائل، ويحطمون تماثيلهم وآثارهم الفنية الرائعة الجميلة!

ولاشك أن ردّ الفعل، في كلتا الحالتين، خطأ...

على الأقل لأسباب ثلاثة:

السبب الأول: أن تحطيم الماضي والثورة الشاملة عليه، ومحاولة محوه...

فوق أنه أمر غير ممكن عملياً، فإنه عمل غير منتج، لأن أي حضارة قديمة لا شك أنها تميزت بشيء، وخطت بالإنسانية خطوة، وساهمت بدور في وضع أسس الحضارة الحديثة التي نراها، ليس فقط في جوانبها الفلسفية والفكرية، ولكن أيضاً في جوانبها المادية والتطبيقية.

فنحن ننسى - مثلاً - أن اختراع الدبابة كان مستحيلاً، لولا سلسلة طويلة جداً، بدأت منذ آلاف السنين، على يد الفراعنة، حين اخترعوا العجلة الحربية، ونحن نرى اليوم أن العجلة شيء بديهي، ولكن كل شيء يبدو بديهياً بعد اكتشافه وصنعه بزمن، فمن يولد اليوم يجد أن الطائرة - مثلاً - شيء بديهي، ولكنه لم يكن كذلك قبل أقل من عشرين سنة، بل كان مجرد خيال علمي طريف.

ونحن ننسى أنه لولا اختراع الورق في الصين قبل آلاف السنين، لما أمكن اختراع المطبعة، والكتاب، والجريدة، وبالتالي انتشار العلم وجعله ميسّراً وفي متناول الملايين.

ونحن ننسى أنه لولا اكتشافات علماء العرب في الرياضيات والفلك، كالبيروني وغيره، لما أمكن الوصول إلى النظريات الرياضية الحديثة، وأينشتين، والنسبية، وتحطيم الذرة.

إذن، فالذين يحاولون تحطيم حضارات الماضي القديم بأسرها، ومحوها محواً. ينسون مسألة بديهية، وهي أن تلك الحضارات، كان التقدم فيها يمشي على القدمين معاً: على التقدم والابتكار في العلوم العقلية والإنسانية، وعلى التقدم والابتكار في العلوم التطبيقية، وكلمة التكنولوجيا كلمة جديدة، ولكن معناها قديم، وهو تحويل المعرفة العلمية النظرية إلى نتيجة تطبيقية علمية، يستوي في ذلك اكتشاف النار من الإنسان الأول مع اكتشاف الإلكترون من قبل الإنسان الحديث.

ولربما كان السبب، في نسيان الناس لهذه الحقيقة، هو أن العلوم التطبيقية، سريعة التغيّر بطبيعتها، ينسخ أحدهما الآخر ويلغيه ويستغني عنه، كالانتقال من السفينة التي تسير بالشراع إلى السفينة التي تسير بالبخار، إلى السفينة التي تسير بالطاقة الذرية، في حين أن العلوم الإنسانية أطول عمراً وأطول بقاء، وأحياناً إلى درجة الخلود، لأن العلوم الإنسانية في جانب كبير منها تتناول

الإنسان ذاته، وهو أكثر العناصر بقاء وأقلها تغيّرا، في مشاعره وأحاسيسه وغرائزه، والعوامل المؤثرة في صفاته.

وليس أدل على القيمة الكبرى للماضي بهذا المعنى المتكامل، من أننا نجد أن أكثر الدول تقدّماً وتحضّراً ورقياً بمعايير العصر الحديث، هي الدول التي تتميز بالمخترعات الحديثة والمظاهر المادية للتقدم، هي نفسها أكثر الدول اهتماماً وعناية في التنقيب عن آثار الماضي، مهما كان بعيداً عنها في الزمان والمكان.

اكتشاف جمجمة إنسان ترجع إلى عشرات الآلاف من السنين، في أقصى أنحاء الأرض، خبر مهم ينشر في الصفحات الأولى من صحف أوربا وأمريكا، ويتجادل فيه العلماء، وتحتدم حوله الاستنتاجات.

الجامعات الأمريكية والأوربية الكبرى، هي التي ترسل البعوث، وتعتمد الميزانيات، لعمل الحفريات والتنقيب عن آثار عمرها آلاف السنين في البحرين، أو في جزيرة فيلكا أمام شاطئ مدينة الكويت، أو في الكشف تحت تراكمات الزمن في مدينة قديمة كالقاهرة لدراسة نظم البناء والمعمار وشبكات الماء والمجاري في المدن الفاطمية القديمة التي اندثرت.

وحين جاء نابليون إلى مصر ومعه بعثة من أعظم علماء فرنسا، ليكشف عن آثار مصر، ويعثر على حجر رشيد، ويفك لغز اللغة الهيروغليفية، لتفهم أسرار حضارة بادت منذ آلاف السنين.. كل هذا ليس ترفاً، ولكنه في جانب أثر من آثار غريزة الإنسان في الحاجة إلى معرفة أمه وأبيه وأصوله، ومن أين جاءت؟ وفي جانب منها إدراك عميق أن الإنسان كلما زاد معرفة بتاريخه زاد معرفة بنفسه، وكلما زاد فهمه لماضيه، زادت قدرته على تصوّر مستقبله.

النقطة الثانية، أو ردّ الفعل الثاني، وهو الفزع من حضارة العصر الحديث، بتحديّاتها العنيفة والجانب القاسي من ملامحها، ومواجهة ذلك بالهرب إلى الماضي، والاستكانة إلى القديم، والانسياق لحلم غامض بالرجوع إلى عصر كان ذهبياً في أوانه، فهو بدوره ردّ فعل خاطئ نفهمه في الحقيقة من خلال علم النفس، أكثر مما نفهم من خلال مصلحة المجتمع، والأمر هنا يبدو بديهياً لا يحتاج إلى أكثر من استخدام العقل السليم، رغم أنه في العادة - كالحال في بلادنا - محل خلاف شديد.

فلا يمكن لمجتمع يريد الحياة أن يرجع كليّاً إلى الوراء، ولا يمكن أن يهرب مجتمع إلى كهف ينام فيه قروناً ثم يصحو ليجد أن الأمور قد تطوّرت لصالحه، أو أن الحياة قد توقفت عند لحظة إغفاءته، فكل ترتيب وضعه الإنسان قبل ألف سنة ليواجه ظروفاً معينة، لا يمكن أن يصلح لورثته بعد ألف سنة، ولا يمكن أن يعفيهم من واجبهم في ترتيب أمورهم من جديد، اكتفاء بجهد الأجداد والأسلاف العظام، فهؤلاء الأسلاف كانوا عظاماً لأنهم لم يركنوا إلى ما وجدوه من قبلهم، ولكنهم تقدموا وصنعوا الجديد في عصرهم، وكل ماض تندثر منه أشياء وتبقى منه أشياء.

الظروف تتغير باستمرار، ولابد من مواجهة الظروف الجديدة بحلول جديدة.

الواحة غير القرية غير المدينة الكبيرة، الرعاة غير الفلاحين غير العمال المحتشدين في المصانع والمحكومين بالآلات.

تبقى من الماضي قيم أساسية، وقسمات خاصة بكل شعب كانت له فترات حضارية عظيمة، وتكوين نفسي عام نتيجة الرسالة السماوية، وأحداث التاريخ، وحقائق الجغرافيا الباقية، والامتحانات التي مرّ بها، ولكن يتغير أسلوب الحياة وأنماط السلوك بتغير شكل الإنتاج وأسلوب التجمع السكاني وقدرات العلوم والاكتشافات المتتالية.

ولو أننا احتكمنا إلى المنطق المجرّد، لقلنا إن الأمة التي كانت لها حضارة عظيمة وتاريخ مجيد، هي التي يجب أن تكون أسرع في اليقظة من سباتها، والتخلص من عوامل تخلّفها، والانطلاق إلى التقدم، ولكن كثيرين من علماء وخبراء «التنمية» المعاصرين يلاحظون أن العكس هو الذي يحدث في حالات كثيرة، فالمجتمع البادئ من نقطة ليس لها تاريخ، يتحرك بسرعة أكبر، لأنه ليس لديه ما يجعله ينظر إلى الوراء، وليس له هوية قديمة يحرص على الاحتفاظ بها وهو يقتحم مغامرة التقدم.

والمثل على هذا في العصر الحديث نجده في المقارنة بين السرعة التي اندفعت بها الولايات المتحدة الأمريكية والبطء النسبي الذي سارت به أوربا وهي الأم في كل مجال تفوقت فيه أمريكا.

ذلك أن أمريكا بدأت بالمهاجرين، المهاجرون جاءوا إليها هرباً من ماضيهم في أوربا، كطريقة للفرار من سيئاته ومعوقاته، الاضطهاد الديني، الحروب الوطنية، التعصبات الإقليمية، النظام الطبقي، كل هذه الملامح الأوربية فرّ منها مهاجرون، ارتادوا أمريكا، يعملون فقط، بغير هذه العقد، كل فرد حرّ في دينه، الولايات التي تكونت هناك التحمت في بساطة شديدة في وطن واحد كبير، البوتقة صهرت الفرنسي والألماني والإنجليزي والأسباني الذين ظلوا في أوربا قبل ذلك وبعد ذلك يتحاربون.

امتيازات الوراثة لم توجد - وليس صدفة - ولادة أول نظام جمهوري هناك، الفرصة المتكافئة كقاعدة في المجتمع بدأت هناك من جديد.

ولست أنسى دهشة ذلك الصديق من كندا كلما قلت له في القاهرة: هذا المبنى عمره ألف سنة. . وقوله: عندما نجد في كندا مبنى عمره خمسون عاماً نعتبره أثراً تاريخياً عريقا!

فالبلاد ذات الحضارات الذهبية القديمة - مثلنا - تواجه في الواقع معادلة لابد من حلها.

فإلغاء التاريخ عبث، والسكنى بين مقابره وآثاره انتحار، إنما لابد من الإسراع بإيجاد صيغة تجمع بين القدرة على استيعاب التراث ومواجهة المستقبل.

وهذا لا يكون إلا بمعاملة التراث معاملة انتقاء، لا معاملة اكتفاء وانكفاء، والتوجه إلى المستقبل في شجاعة وليس في خوف واتقاء.

ولعله مما يسهل علينا هذا، أن ندرك ما ننساه في نظرتنا إلى الحضارات القديمة، من أن التقدم فيها كان إنسانياً ومادياً على السواء، كما ذكرت من قبل، تماماً كأي حضارة حديثة.

وهذا ينقلنا إلى النقطة الثالثة، وهي أننا كثيراً ما ننسى أن الحضارة الحديثة الراهنة، هي أيضاً قامت كسابقاتها على أساس من التقدم في الناحيتين: العلوم الإنسانية والعلوم التطبيقية أو التكنولوجية على السواء.

لاشك أن الحضارة الحديثة، بحكم التقدم العلمي المتسارع، تبدى من نفسها للناس وجهاً طاغياً في ماديته. الأمر الذي جعل الكثيرين يظنون أن هذا الجانب المادي الساحق هو الحضارة كلها، فالتقدم التكنولوجي الذي تم في مائتي سنة

لم يرث مثله في ألفي سنة قبل ذلك، ظل الإنسان آلاف السنين - مثلاً - يركب الدواب أو ما تجرّه الدواب، ولكن الإنسان في خمسين سنة، أي في عمر متوسط الإنسان، عرف الدراجة والسيارة والقطار والطائرة والغواصة والصاروخ والأقمار الصناعية!

هذا الوجه الطاغي في ماديته للحضارة الحديثة، كان من خصائصه أيضاً إيجاد تسهيلات مباشرة للحياة اليومية للفرد العادي، فقصور الأباطرة والملوك والأمراء عبر آلاف السنين لم تكن فيها التسهيلات الموجودة في بيت أي فرد بسيط من مياه جارية وإضاءة سهلة نقية بالكهرباء، ومصاعد وثلاجات وسخّانات وأجهزة تكييف الهواء، وتغسل الأواني والثياب، وراديو وتلفزيون وأجهزة تنقل الأخبار والأصوات والصور عبر آلاف الأميال في ثوان.

هذا كله رسخ في أذهان كثيرة أن الحضارة الآن هي إعادة في كل مظاهرها، وأنها كلها خرجت من معامل الباحثين في العلوم التطبيقية والتكنولوجية.

وهذا خطأ كبير...

فهذه الحضارة الحديثة كغيرها من قبل، قامت على العلوم الإنسانية والتطبيقية معاً، عصر النهضة عرف الرسّامين العظام والأدباء والفلاسفة الكبار جنباً إلى جنب مع العلماء، ولو اخترنا رمزاً لوجب أن نذكر ليوناردو دافنشي رسام عصر النهضة الذي كان يرسم أجمل اللوحات، ويرسم نماذج علمية للغواصة والكباري المعلقة وغيرها، الحضارة الحديثة صنعتها ريشة رافاييللو وبيكاسو كما صنعتها موسيقى بتهوفن، وكما صنعتها فلسفة ديكارت وهيجل، وكما صنعتها تجارب أديسون وماركوني، ورياضيات اينشتين، وصواريخ فون براون، وقنابل أوبنهايمر الأمريكي وزخارف الروسي الذرية والهيدروجينية، ومطبعة جوتنبرج وأدب فولتير، والفكر السياسي لتوماس جفرسون، وأبحاث فرويد ويونج في نفس الإنسان، مهما كانت محل خلاف أو اتفاق.

إن الحضارة كل لا يتجزأ، إنها تربة واحدة تنتج زهوراً مختلفة، لكنها متسقة متكاملة، إنها مجموعة قيم، بخيرها وشرّها، يفلسفها الفكر وترعاها العلوم الاجتماعية، وتدعمها العلوم التكنولوجية، ولا يتصوّر قيام تحضّر أعرج يعتمد على عنصر واحد دون سائر العناصر التي تعطي الظاهرة الاجتماعية اسم

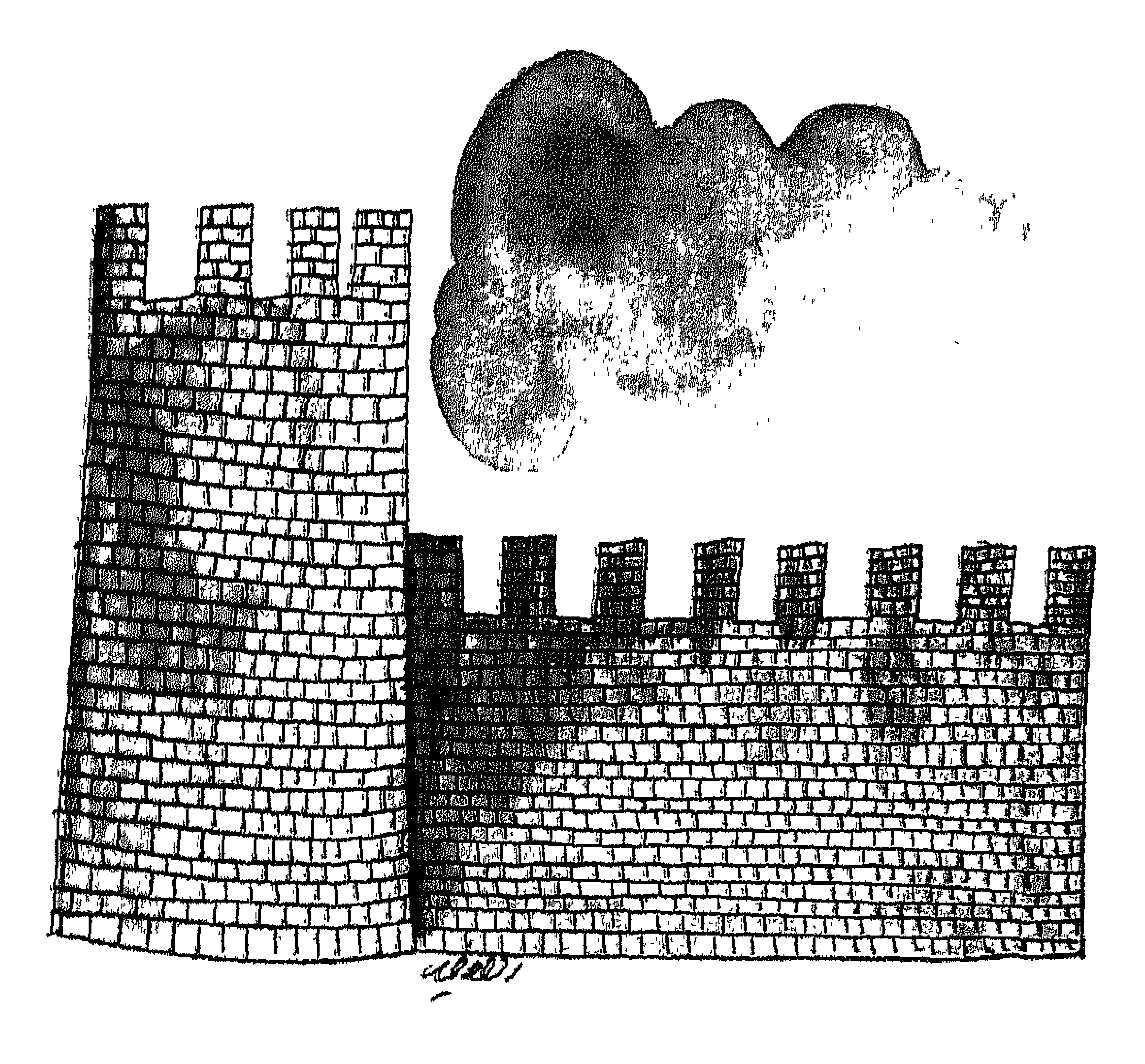
الحضارة، وتعطي كلمة الحضارة معناها، وترسم لها مسيرها، نموها أو اندثارها.

ولقد استنفدت فيما يبدو الصفحات التي لي، في الحديث عن قضية واحدة من القضيتين اللتين أثارتهما مناقشة عن بناء دار للأوبرا.

أردت أن أقول إن إقامة «مجمع فني» رفيع لا يقل قيمة وأهمية عن إقامة «معمل أبحاث» رفيع، والظن بأن الثاني يعطي بمفرده نتائج ملموسة محسوسة مادية يمكن أن تكون وحدها حضارة، ظن خاطئ.

أما القضية الثانية، قضية «النخبة والجماهير» فيبدو أنه لابد من تركها لحديث آخر.

***



عن الحضارة والحجارة؟*

عندما يذهب الزائر منا إلى باريس، لا يملك إلا أن ينظر فيما حوله، مبهوراً، من تلك المدينة التي لا ينقصها شيء.

ماذا ينقص باريس؟

الفنادق؟ المطاعم والمقاهي؟ أماكن اللهو؟ الجامعات؟ رهبان العلم؟ المكتبات والمتاحف وكنوز الفن؟ آثار الماضي؟ جمال الحاضر؟ مؤشرات المستقبل.

ولكن أهلها لا يرضون...

والمسئولون عنها يشعرون أنهم، يومياً، في سباق مع الزمن، في منافسة مع الآخرين. في صراع حياة.

هذا السعي المستمر إلى الأحسن، الأحسن الذي ليس بالتعريف هدفاً محدّداً ينتهي عنده الجهد، بل الأحسن «اللانهائي» الذي لا يوصل إليه أبداً. الذي يتجدد يوماً بعد يوم.

إن بعض الفلاسفة الذين يحللون ويقارنون الحضارات المختلفة، يرون أن ما يميز هذه الحضارة التي نسمّيها بوجه عام «الحضارة الغربية»، أو «الحضارة الأوربية» لننزع فكرة الشرق والغرب بمعناها السياسي، هو هذه «اللانهائية». روح المعرفة اللانهائية، البحث اللانهائي، الهدف اللانهائي، ومن هنا نسبوا إليها تميّزها بارتياد المجهول في البحار والمحيطات والقارات، وارتياد المجهول

---

* العربي - العدد ٢٢٦ - سبتمبر ١٩٧٧

في مجالات البحر والفلسفة والعلم والتكنولوجيا، والغوص إلى أعماق البحار لدراسة حياة أصغر سمكة تسبح فيها، وإلى ما تحت أعماق البحار لمعرفة ما إذا كانت هناك ثروات قابلة للاستخدام تحت قيعانها، والصعود إلى القمر، ثم إلى الزهرة، ثم إلى المريخ، والغوص بعلم النفس في أعماق النفس الإنسانية والتفتيش عن أدق خلجاتها.

وقد بالغ بعض الفلاسفة في التفريق بين «هوية» هذه الحضارات المختلفة، فنجد أشهرهم في هذا المجال الفيلسوف الألماني «أوزوالد شينجلر» الذي قال - مثلاً - إن كل حضارة كان لها في فنونها ورسومها ورموزها لون مميز، فالحضارة الفرعونية كان لونها المميز هو الأسود، لأنها حضارة كانت تفكر في الموت وما بعده بدليل ما أقامته من مدافن وأهرامات، وأن الحضارة العربية كان لونها المميز هو اللون الذهبي لأنها تؤمن بالمعجزة الخارقة للطبيعة، واللون الذهبي لون ليس من ألوان الطبيعة، أما الحضارة الأوربية، فقد عرفت لوناً مميزاً هو الأزرق، لأنه ليس لوناً، بل لون اللانهائي، فماء البحر ليس أزرق اللون ولكن أعماقه تعطيه هذا اللون، والسماء ليس لونها أزرق، ولكن طبقات الجو في لانهائيتها تعطيها هذا اللون.

ونتوقف هنا عن الاسترسال وراء شطحات الفلاسفة، حين يريدون أن يؤكدوا نظرياتهم بكل برهان يتاح لهم، ونعود إلى باريس، وما باريس في هذا الحديث إلا مجرد مثل نضربه، من وحي الرحلة، على روح الرغبة الدائمة في التقدم، والسعي إلى الأحسن.

عندما كان «جورج بومبيدو» رئيساً لجمهورية فرنسا قبل سنوات قليلة، وجّه سؤالاً إلى مجموعة من أكبر خبراء بلاده في الثقافة والحضارة والهندسة وتخطيط المدن والسياحة وغيرها... كان السؤال هو:

كيف نحافظ على باريس كمركز عالمي؟ وكيف تفوز في سباق عواصم الدنيا، وما الشروط المطلوبة لها لتصبح أو لتبقى المدينة الأولى في العالم؟

... إن مجرد توجيه هذا السؤال أمر يبعث على الدهشة، فإذا كان في العالم ثلاث أو أربع مدن هي أكثرها نفوذاً وإشعاعاً، وأكثرها حظاً من إقبال

الناس عليها، بدءاً من طالبي اللهو إلى الذاهبين لحضور المؤتمرات الدولية، إذا كانت هناك ثلاث أو أربع مدن متفوقة في العالم على غيرها في هذه المجالات، فلاشك أن باريس واحدة منها إن لم تكن في مقدمتها.

ولكن هذا لا يكفي أصحابها.

إنهم يشعرون بسرعة إيقاع الزمن، وعنف السباق، ومَن لا يتحوّل، ويجري، ويلهث، ويدفع بالمناكب، سوف يسبقه آخرون.

وفي عالم اليوم، لم تعد الميزة الجغرافية وحدها كافية، فوسائل الاتصال الحديثة تقرب البعيد، والأرض في النهاية كروية، فكل موقع فيها يمكن أن يكون موقعاً متوسطاً.

أوربا من موسكو إلى لندن في موقع متوسط بين الشرق الأقصى وأمريكا، ولكن أمريكا في موقع متوسط بين أوربا وشرق آسيا، واليابان في موقع متوسط بين الأمريكتين وقلب آسيا، العالم العربي في موقف متوسط واضح.

وإنما صارت الأماكن تقاس بأهميتها، فحين كانت أوربا في مركز القوة قامت فيها عصبة الأمم، وقيل إن جنيف مكان متوسط، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية حين برزت قوة أمريكا أقيمت الأمم المتحدة في نيويورك، وكانت أيضاً موقعاً متوسطاً بين مراكز الثقل الجديدة!

لهذا سألت باريس نفسها هذا السؤال، طبعاً هناك عواصم شتى للعالم، موسكو وواشنطن عواصم القوى الكبرى وعواصم الصواريخ، وحسم حياة العالم بالأسلحة الذرية، باريس عاصمة العالم ثقافياً، زيوريخ الصغيرة الصامتة عاصمة المال، لندن عاصمة سوق الأوراق المالية والذهب، نيويورك عاصمة الشركات العملاقة متعددة الجنسيات وهكذا.

ولكن باريس تريد أكثر، الكل يريد أكثر، فرانكفورت القرية في ألمانيا الغربية تحاول أن تكون عاصمة خطوط الطيران في أوربا فتسرع فرنسا إلى بناء المطار الثالث في باريس والأحدث في العالم وهو مطار شارل ديجول، وهكذا.

ردّت لجنة الخبراء على سؤال الرئيس جورج بومبيدو وبنقاط كثيرة، لابد من العمل على توفيرها حتى تظل باريس مدينة عالمية، أذكر منها:

*أماكن كافية لسكن الزوار سكناً مريحاً، سواء في الشقق للمقيمين أو في

الفنادق للسواح والعابرين .
* أكبر عدد من المنظمات الدولية والإقليمية والمؤتمرات الدولية .
* قاعات حديثة مجهّزة من أجل هذه المؤتمرات .
* نظام بنكي كفء وسريع .
* وسائل اتصال سريعة بالعالم .
* حركة مرور سريعة ومريحة .
* أماكن للترفيه، الصاخبة والهادئة المريحة .
* ازدهار ثقافي .
* صحافة قوية تعكس أحداث العالم وتطوّراته .

وطبعاً الكثير من هذا متوافر في باريس أكثر من غيرها، والغريب أنه ربما كانت هناك عواصم للمال وعواصم لأشياء أخرى، ولكن باريس ربما كانت المدينة الوحيدة تقريباً التي لديها شيء مهم من كل شيء، ولكن المطلوب لدى هؤلاء هو التحسن، والتقدم، والتحسن والتقدم .

ومن الملحوظ - مثلاً - أن لندن التي كانت عاصمة العالم الأولى، عندما كانت تحكم امبراطوريتها الواسعة قد تقلص دورها مع زوال قدرتها السياسية، وأنه خسرت ربما لحساب باريس بالذات، مع أن باريس بدورها خسرت إمبراطوريتها .

خسرت لندن كمركز حسّاس من مراكز العالم أو قلت قيمتها كمكان لقاءات ومؤتمرات وغير ذلك، وإن كانت كسبت من باريس ألقاب عاصمة اللهو وعاصمة القمار .

وربما لولا العرب البتروليون، واعتيادهم لندن منذ زمن بعيد، لما عرفت لندن رواجها الحالي في السياحة وكمدينة للطب والعلاج، وحتى في هذا المجال بدأت باريس تكسب منها .

على أن هذا التجديد جلب مناقشات حامية حوله في باريس .

كان معنى المحافظة على قصب السباق في رأي المخططين : الإذعان للمنطق الحديث في مجالات كثيرة، خصوصاً البناء، ناطحات السحاب الصماء، السوبرماركت في الأسواق، وغيرها .

وقاوم الكثيرون هذا الاتجاه، طالبوا بأن يكون هذا خارج باريس وعند حدودها، لأنه لا يجوز إفساد طابع المدينة التاريخي وشخصيتها المعمارية، وأشجارها، وضفاف نهر السين المعروفة.

وكان معروفاً أن بومبيدو ليس من رأي هؤلاء، ولكنه كان مع التجديد.

وكانت له كلمة ذاعت في هذا المجال إذ قال «على الباريسيين أن يختاروا بين أن تكون مدينتهم متحفاً، أو تظل عاصمة كبرى في العالم».

وقد ضرب المثل بنفسه، فوضع داخل قصر الإيليزية - قصر الرئاسة التاريخي - ديكورات حديثة جداً، غطى بها ديكورات القصر التاريخية دون أن يمسّها. وأعطى الإذن، فقامت ناطحات السحاب مثل «برج مانهاتن» وبرج «مونبارناس» على النمط الأمريكي المعروف، وأطلق لأهل الفن الحديث العنان في تشكيل أحياء المدينة الجديدة.

ولكن المقاومة اشتدت، وحين صعد «برج مانهاتن» بالذات، وإذا به يشق عنان السماء خلف «الايترال» أو «قوس النصر» الشهير في نهاية الشانزيليزيه. وصار مستحيلاً التقاط صورة - مثلاً - لقوس النصر، دون أن يظهر فيه هذا البرج، ثار الباريسيون.

وكان بومبيدو يموت. وجاء بعده فاليري جيسكار ديستان رئيساً للجمهورية، فنزع من قصر الأليزيه الديكورات الحديثة. وأمر بإيقاف بناء المزيد من هذه الأبراج. ولم يعد هذا ممكناً إلا في أماكن معينة، بحيث يمكن أن يتم دون إفساد الطابع التاريخي للعاصمة، بوصفه أكبر قوة جذب للزوار الذين يتزايدون بالملايين.

وقد فاتني أن أذكر أن الجمال والذوق الرفيع، كان أحد شروط المدينة العالمية، في رد الخبراء على بومبيدو.

فالذوق الرفيع ولمسة الجمال ليست ترفا. ولم تكن مربوطة أبداً بالثراء ووفرةالمال وحدها. بدليل أن بعض أغنى المدن يعد من أقبحها.

ولكنه أمر يتصل بالمستوى الثقافي للمواطن، وتعويده على أن التقدم كما أنه «كم» فإنه أيضاً «كيف». وكما أن هناك ما يسمى «مستوى الحياة» فهناك ما يسمى بـ«نوعية الحياة». وربما كان من أكبر أسرار جاذبية باريس هو تفوّقها في

هذا الجانب بالذات .

أقول هذا والعالم العربي تشبّ فيه كل يوم مدن جديدة . تحمل الطابع المادي البحت . وأحياناً المنقول حرفياً عن بيئات أخرى غير بيئاتنا ، وظروفنا الجغرافية ، دون مراعاة من البداية لهذه الظروف ، وللشخصية المحلية من ناحية أخرى ، قبل أن تصبح معالجة الأمر متأخرة أو متعذّرة .

وكم من مدينة عربية عريقة ، أعود إليها بعد سنوات ، فأجد جمالها الرقيق قد ديس بالأقدام ، كما تدوس أفيال ضخمة على حديقة زهور جميلة .

ولست أريد أن أرى تلك المدن متاحف . .

ولكن ليس مستحيلاً التوفيق بين الاستجابة لضرورة التجديد وتوفير أحدث وسائل الحياة وتسهيلاتها ، وبين إبقاء اللمسة العربية موجودة ، ظاهرة للبيان .

إنني لا أتحدث عن الطوب والحجارة ، ولكن الحجارة تدل على من صنعها . ومن خططها وشيّدها على هذا النحو أو ذاك . وكم من أسرار تاريخية عرفناها وفهمناها من الحجارة . وفن العمارة وتخطيط المدن هو جماع فنون إنسانية كثيرة ، ولأنه أكثر ما يعايش الإنسان ، فهو أكثر ما ينم عن الإنسان .

***

الفهرس

الفصل الثالث: تاريخنا.. نظرة جديدة

تصميم الغلاف : الفنان نجيب فرح
رسوم :
عبد الوهاب العوضي
نجيب فرح
عبد العال



أحمد بهاء الدين

* ولد في فبراير ١٩٢٧ لأسرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى في أسيوط إحدى محافظات جمهورية مصر العربية.

* تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٦، له تجربة مصرية مطولة في الصحافة كرئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة لمؤسسات صحفية راسخة مثل: الأهرام، روز اليوسف، أخبار اليوم، ودار الهلال.

* تولى رئاسة تحرير مجلة صباح الخير وكان في مطلع شبابه ١٩٥٦.

ثم تولى رئاسة تحرير مجلة الهلال، وقبل ذلك أشرف على مجلة الفصول لصاحبها محمد زكي عبدالقادر فجعل منها مجلة ثقافية شعبية.

* تولى رئاسة تحرير مجلة العربي في ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٢ أي لمدة سبع سنوات كاملة كتب خلالها ما يزيد على السبعين افتتاحية عالج فيها مختلف القضايا السياسية والثقافية.

* له العديد من الكتب: النقطة الرابعة، فاروق ملكاً، أفكار عصرية، أيام لها تاريخ، ومئات المقالات الموزعة في الصحف والمجلات.

* أقعده المرض أسير الفراش بضع سنين ثم رحل في عام ١٩٩٦ عن عمر يناهز التاسعة والستين.

صدر من كتاب العربي

١- الحرية	د. أحمد زكي «يناير ١٩٨٤»
٢- العلم في حياة الإنسان	د. عبد الحليم منتصر «أبريل ١٩٨٤»
٣- المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة	«مجموعة كتاب» «يوليو ١٩٨٤»
٤- العروبة والإسلام وأوربا	د. محمود السمرة «أكتوبر ١٩٨٤»
٥- العربي ومسيرة ربع قرن مع: الحياة.. والناس.. والوحدة في دول الخليج العربي	«مجموعة كتاب» «نوفمبر ١٩٨٤»
٦- طبائع البشر	د. فاخر عاقل «يناير ١٩٨٥»
٧- حوار.. لامواجهة..	د. أحمد كمال أبو المجد «أبريل ١٩٨٥»
٨- آراء ودراسات في الفكر القومي	«مجموعة كتاب» «يوليو ١٩٨٥»
٩- أضواء على لغتنا السمحة	محمد خليفة التونسي «أكتوبر ١٩٨٥»
١٠- الكويت ربع قرن من الاستقلال	«مجموعة كتاب» «يناير ١٩٨٦»
١١- نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر	د. حازم الببلاوي «أبريل ١٩٨٦»
١٢- السلوك الإنساني.. الحقيقة والخيال	د. فخري الدباغ «يوليو ١٩٨٦»
١٣- آراء حول قديم الشعر وجديده	«مجموعة كتاب» «أكتوبر ١٩٨٦»
١٤- المسلمون والعصر	«مجموعة كتاب» «يناير ١٩٨٧»
١٥- من أسرار الحياة والكون	د. عبد المحسن صالح «أبريل ١٩٨٧»
١٦- دراسات حول الطب الوقائي	«مجموعة كتاب» «يوليو ١٩٨٧»
١٧- خطاب إلى العقل العربي	د. فؤاد زكريا «أكتوبر ١٩٨٧»
١٨- المسرح العربي بين النقل والتأصيل	«مجموعة كتاب» «يناير ١٩٨٨»

١٩- الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة «مجموعة كتاب» «أبريل ١٩٨٨»

٢٠- أندلسيات محمد عبد الله عنان «يوليو ١٩٨٨»

٢١- ماذا في العلم والطب من جديد؟ «مجموعة كتاب» «أكتوبر ١٩٨٨»

٢٢- الإسلام والعروبة في عالم متغير د. عبد العزيز كامل «يناير ١٩٨٩»

٢٣- الطفل العربي والمستقبل! «مجموعة كتاب» «أبريل ١٩٨٩»

٢٤- القصة العربية أجيال وآفاق «مجموعة كتاب» «يوليو ١٩٨٩»

٢٥- تاريخنا. . . وبقايا صور د. شاكر مصطفى «أكتوبر ١٩٨٩»

٢٦- الإنسان والبيئة صراع أو توافق؟ «مجموعة كتاب» «يناير ١٩٩٠»

٢٧- نافذة على فلسفة العصر د. زكي نجيب محمود «أبريل ١٩٩٠»

٢٨- نظرات في الأدب والنقد عبد الرزاق البصير «يوليو ١٩٩٠»

٢٩- الإسلام وضرورة التغيير د. محمد عمارة «يوليو ١٩٩٧»

٣٠- الخليج العربي وآفاق القرن الواحد والعشرين « مجموعة كتاب» «أكتوبر ١٩٩٧»

٣١- القصة العربية. «مجموعة من الكتاب» «يناير ١٩٩٨»

٣٢- أرقام تصنع العالم محمود المراغي « أبريل ١٩٩٨ »

٣٣- على جناح طائر د. شاكر مصطفى « يوليو ١٩٩٨ »

٣٤- المسلمون من آسيا إلى أوربا مجموعة من الكتاب « أكتوبر ١٩٩٨»

٣٥- إسبانيا. . أصوات وأصداء عربية مجموعة من الكتّاب « يناير ١٩٩٩»

٣٦- ثورات في الطب والعلوم مجموعة من الكتاب «أبريل ١٩٩٩»

٣٧- نبش الغراب في واحة العربي محمد مستجاب «يوليو ١٩٩٩»

٣٨- المثقفون والسلطة في عالمنا العربي أحمد بهاء الدين «أكتوبر ١٩٩٩»

كتاب العربي

الكتاب القادم

الفن التشكيلي.. وعصر جديد

مجموعة كتّاب

الكتاب التاسع والثلاثون

١٥ يناير ٢٠٠٠

وزارة الاعلام
مطبعة حكومة الكويت

هذا الكتاب

تحتوي هذه الصفحات على المرحلة الكويتية من كتابات الراحل أحمد بهاء الدين، على حد تعبير كاتبنا الكبير محمد حسنين هيكل في مقدمته التي أهداها مشكوراً لكتاب العربي والتي نعتز بها كمساهمة ثمينة في المطبوعات الكويتية، وفي احياء ذكرى الكاتب العربي الكبير، وهو تعبير دقيق لأن كل ما حوته كلمات هذا الكتاب جاء متأثراً بذلك المناخ المفتوح الذي عاشه أحمد بهاء الدين في أجواء هذا البلد الذي تآلفت عناصره في نسيج حضاري من برلمان وصحافة وجامعة، في إطار من وجود حيوي وإنساني سمح ساد هذه الأرض، لقد تفاعل بهاء الدين مع هذا المناخ - كما أشار الأستاذ هيكل - خلال تلك الفترة النادرة التي تولى فيها رئاسة تحرير مجلة العربي (١٩٧٦-١٩٨٢)، وجاءت كلماته التي لم يطمس الزمن معناها، ولم يغير من دورها كرد فعل حضاري مؤكداً أن الكتابة والحرية صنوان لا يفترقان، وكتاب العربي إذ يعيد نشر هذه الكتابات لا يفعل ذلك بدافع الوفاء فقط، وهو أمر واجب عليه، ولكن من يقينه أن كل ما أثاره الراحل بهاء الدين من قضايا مازال حيا ومتفاعلا، كما نشكر الأستاذ هيكل الذي استجاب وشارك بحب في إحياء ذكرى كاتبنا الكبير.

د. سليمان إبراهيم العسكري





وزارة الإعلام: مطبعة حكومة الكويت